كلمات نافعة

تأليف

ناجي الطنطاوي

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

حقوق الطبع محفوظة

دار المنارة
للنشر والتوزيع جدة - هاتف: ٦٦٠٣٢٣٨ - ٦٦٠٣٦٥٢ - تلكس: ٦٠٣٠٦٧
ص. ب.: ٢١٤٣١/١٢٥٠

كلمات نافعة

تقـــدِيم

بقلم علي الطنطاوي

الدهر أيام ثلاثة: ثلاثة أيام هي الدهر كله وما هي غير الأمس واليوم والغد.

أما الغد فللشبان يصبُّون فيه أحلامهم، ويستودعونه أمـانيهم وآمالهم، ويتوقعون منه المستحيل. كانوا ينشدون ذلك النشيد الذي كان يوماً على كل لسان، وكان يُسمع في كل محفل ونادٍ: (نحن الشباب لنا الغدُ).

أما الأمس فللشيوخ يستعيدون بالذكرى أيامه، ويبكون بعد الفقد أحلامه، يتصورون مرَّه حلواً، وسواده بياضاً، لا يرون غيره، لا يقول أحدهم (سأكون) ولكن يقول (كنت)، لذلك دعا العرب الشيخ الكبير الكنتي (نسبة على غير قياس).

وأما اليوم فلغافل جاهل، وقفت به همته حيث تقف الأنعام، فكـان مطلبه الشراب والطعام، فإن قضى وطره منهما طلب الزواج، فهمُّه طعامه وشرابه ونكاحه، لا يكاد يذكر ما مضى، ولا يستعد لما هو آتٍ، وعلى ذلك أكثر الناس، وقليل منهم من يعمل في حاضره لمستقبله، ويزرع في يومه ليحصد في غده. فمن زرع قمحاً حصد قمحاً، ومن ترك أرضه للشوك لم يحصد إلا الشوك.

* * *

المستقبل للشباب، ولطالما قاسيت من هذا المستقبل لما كنت شاباً، يقول لي أبي: (اعمل لمستقبلك)، ويسألني معلمي: (ماذا تريد أن تكون في

مستقبلك)؟ فإذا أجبت جاء معلم آخر فأعاد عليّ السؤال، حتى تكرر عليّ خمسين مرة. بدَّلت فيها الغايات، وعدَّدت الطرق، وما كان شيء مما قدَّرت. كنت والمستقبل كحصان ربطوا بظهره عصا طويلة، ثم علَّقوا فيها حزمة من الحشيش، وقالوا له: (اسع لتدركها)، فمهما سعى فلن يصل إليها، لأنها معه مربوطة به، تمشي إن مشى وتقف إن وقف. نطلب المستقبل في غد فإذا جاء الغد صار المستقبل حاضراً وذهبنا نفتش عن مستقبل غيره.

كنا كراكب زورق في بحر هائج، يوجه زورقه الوجهة التي يراها، فتضربه موجة عاتية فتحوله، فتبدل وجهته حيث تتجه الموجة لا حيث يريد الراكب، نحس أننا كصاعد الجبل، كلما بدت له صخرة حَسِبَها الذروة، فحاول الوصول إليها، حتى إذا بلغها بدت له ذروة أخرى من ورائها، فإذا بلغ أعلى الجبل فلم يبق أمامه ما يسمو إليه هبط من الجهة الأخرى.

ونحن (أنا وناجي) الآن قد بلغنا الذروة التي استطعنا الوصول إليها، ولم يبق أمامنا ما نسمو إليه، فرجعنا نهبط من الوجه الآخر للجبل. عدت أنا من هذه الرحلة الشاقة: رحلة العمر، وما معي مما رأيت وما سمعت، وما لذذت وما ألمت، وما سعدت وما شقيت، إلا بقايا صور في ذهني، وأحاديث على لساني.

* * *

أمامي الآن كتاب أنجز طبعه ولم تخرم كراريسه، ولم يوضع غلافه، اسمه (كلمات نافعة)، حملته إليّ (دار المنارة) في جدة لأقدم له مقدمة. ولقد سبق أن قدمت لأكثر من خمسين كتاباً في أكثر من خمسين سنة، أولها كان لصحفي ناشىء اسمه عباس الحامض، صار من بعد صحفياً معروفاً، ثم مضى حيث يمضي الأحياء رحمه الله، وآخرها مقدمة شرفني بها الداعية الكبير أخي الأستاذ أبو الحسن الندوي الذي تعرفونه فلا أحتاج أن أعرفكم به. هذه الكراريس التي وضعت أمامي لكتاب ألفه أخي ناجي، القاضي من قبل في

الشام، والمستشار الشرعي الآن في وزارة الأوقاف هنا من نحو ربع قرن، فكيف أكتب مقدمة لكتاب أخي؟.

كنت أعرف عن مؤلفي الكتب التي أقدمها القليل فأصوغ منه الفصل الذي يطلبونه، ولكنني اليوم حيال حياة طويلة، أخبارها كلها ماثلة لعيني، أعرفها من يوم ولد سنة ١٣٣٢ هـ، وكان عمري نحو ست سنين إلى حين بلغت الواحدة والثمانين.. فهل يمكن أن أختصر حياة طولها خمس وسبعون سنة فأدخلها في خمس صفحات تكون مقدمة لكتاب؟ حياة رأى فيها ورأيت مثل ما يرى الناس جميعاً: أياماً بيضاً وأياماً سوداً، عرفنا فقراً وإن لم يبلغ حد الحاجة، واكتفاء وإن لم يصل إلى منزلة الغنى، عرفنا السدود عن طريق الحلال، وعرفنا الكدر، ورأينا أزواجاً وأشكالاً من البشر، منهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم الوفي ومنهم الغادر، ومنهم الأمين ومنهم الخؤون، حياة تبدلت فيها الدنيا التي نشأنا فيها مرات، دالت دول وحالت أحوال، ومات أقوام وولد أقوام، وبادت مذاهب في الفكر وفي الأدب ونشأت مذاهب، وكانت حرب وكان سلام.. رأينا حربين عالميتين، بل رأيتهما أنا وحدي لأنه ولد في مطلع الحرب الأولى، فما دام سرور وما دام كدر، وما دام نفع وما دام ضرر.

كان عالمنا صغيراً، ولكنا كنا نراه على صغره كبيراً، لم يكن عندنا إلا القليل، ولكننا كنا راضين بقليلنا. كانت مسراتنا محدودة، ولكنا لم نكن نطمع إلى أكثر من تلك المسرات. لقد كنا سعداء ولكن لم ندرك إلا الآن - بعدما فات الأوان - أننا كنا سعداء.

يحسب الإنسان أنه كلما كثر ماله، وزاد اطلاعه، وعلت منزلته، كبرت سعادته، وينسى أن السعادة هي قصر المسافة بين ما تجده وما تتمناه. فمن كان يجد عشرة ويتمنى عشرين، فسعادته تنقص عشرة، ومن كان معه ألف ويطلب ألفين فنقص سعادته ألف.

فنحن نحِنّ إلى أيام الطفولة، ونتمنى عودتها، ونأسى على فقدها، لأننا لم نكن نطلب فيها إلا القليل.

ولست أريد أن ينشأ الشبان بلا طموح فقد صدق شوقي لما قال:

شبـاب قُنَّـع لا خيـرَ فيـهم   وبُورك في الشباب الطامحين

* * *

كان عالمنا بيتنا الصغير في الحارة الضيقة في حي في طرف دمشق، بلغ من ضيق الحارة أنه لو مشى فيها اثنان ومدا أيديهما لنالا جانبيها، والمسجد الصغير الذي كان أبي إمامه، فلما توفّاه الله ولّوني أنا الإمامة وأنا لم أكمل السابعة عشرة، فقالوا لي: لا بدَّ للإمام من عمامة، وإن لم يكن قد اشترطها الشارع ولا أوجبها الدين، فأدرت على طربوشي عمامة فصرت شيخاً صغيراً. فقالوا: لا بدَّ له من لحية، قلت: العمامة جئت بها من عند البزاز (أي بائع القماش) فمن أين آتي باللحية؟.

فإذا أردنا تبديلاً ذهبنا إلى بيت خالتي أم المشايخ: (الشيخ شريف والشيخ سهيل والشيخ طه والسيد ثابت)، وهي الشقيقة الكبرى لمحب الدين الخطيب التي ربته وكانت له أماً بعد أن فقد أمه طفلاً، وكان بيت خالتي عند المدرسة البادرائية بين الأموي وباب السلام الذي كان يدعى قديماً باب السلامة. وهو أحد أبواب دمشق السبعة، وقد بقيت ستة منها على حالها، كما بقي أكثر السور سليماً. ولدمشق سوران وبينهما حي لا يزال طرف منه باقياً يسمى إلى الآن (حي بين السورين)، وإن كانت العامة تبدِّل السين صاداً. فإذا مشيت من باب السلام مشرِّقاً بلغت (باب توما) ثم الباب الشرقي، وهو آخر الطريق المستقيم الذي ذُكر كما أظن في التوراة، فيكون بذلك أشهر شارع في التاريخ، وقد ورد في الأثر أن المسيح ينزل في آخر الزمان عند المنارة البيضاء شرقي دمشق(١)، والله أعلم بصحة الذي روي.

---

(١) وعند هذا الباب الآن منارة بيضاء.

وأول هذا الطريق باب الجابية الذي دخل منه أبو عبيدة دمشق صلحاً، كما دخلها خالد من الباب الشرقي فتحاً، فالتقيا وسط معبد دمشق، الذي كان معبداً وثنياً، ثم صار كنيسة نصرانية، ثم غدا مسجداً من أقدم مساجد الإسلام وأجملها، فقسموه بين المسلمين والنصارى، فكان ما حازه خالد عنوة مسجداً، وما كان في حيز أبي عبيدة بقي بالصلح كنيسة. فلما كان عهد الوليد ارتفع الصوت بالشكوى: المسلمون يشكون من قرع النواقيس وقت الصلاة، والنصارى يشكون من ارتفاع الأذان، فبنى الوليد للنصارى الكنيسة الكبرى، بنيت لهم بأموال المسلمين وبأيديهم، ونقلهم برضاهم إليها، وأخذ منهم الكنيسة فضمها إلى المسجد.

وكنا إذا أردنا نجعة أكبر، وتبديلاً أكثر، ذهبنا إلى بيت عمي الأكبر الشيخ عبد القادر الذي كان المرجع في علم الفلك الإسلامي، وكان منزله في العفيف (في أوائل حي المهاجرين)، وقد أنشأ هذا الحي الأتراك للمهاجرين من أهل أقريطس (كريت) وما والاها لمَّا غلبهم الكفار على أرضهم وانتزعوا منهم جزيرتهم، وكان موضع المهاجرين ممتلئاً بالمدارس، تقوم صفاً متصلاً على كتف نهر يزيد متجاورة لا يكاد يحصى عددها من الصالحية إلى السفح المطل على الوادي.

وفي قاسيون واديان أكبرهما الوادي الذي يجري فيه بردى، ويقدِّر العلماء أن مجراه هو الذي أنشأ الله به هذا الوادي في سوالف الدهور، وهو من أجمل أودية الدنيا، لا أعرف مثله إلا (وادي الأرْدِن في بلجيكا) الذي يجري فيه نهر الموز، وفيه قرية (دينان) حيث كانت المعارك في الحربين العالميتين بين الحلفاء وبين الألمان. فإذا رمينا بأبصارنا إلى بعيد وبلغناه بخيالنا، تصورت مصر وفيها خالي محب الدين الخطيب، واسطنبول وفيها عمي الشيخ عبد الوهاب، يلاحق قضية لنا مع آل الصلاحي بقيت في المحاكم بين دمشق واسطنبول ثلاثاً وثمانين سنة.

وكانت أمي رحمها الله تلزمني أن أكتب إلى أخيها رسالة وكان ذلك سنة

١٣٣٥ هـ لما بدأت أتعلم الكتابة وأنشىء الرسائل. تقول لي كل يوم، وربما كررت لي القول مرتين في اليوم: يا علي، الله يرضى عليك أكتب لي (مكتوباً) إلى خالك بمصر، ولم يكن يرضيها أن تكون الرسالة من إنشائي أنا، فلم يكن يعجبها إنشائي بل أن أختار لها ديباجة حلوة من كتاب (الإنشاء العصري)، وكان يشتمل على جميع أشكال الرسائل: رسائل الاستعطاف والاعتذار والتهنئة والتعزية، التي ترسل إلى الوزراء أو الرؤساء أو الأهل أو الأقارب أو الإخوان أو الأصدقاء، وتقول لي: اقرأ (الديباجة) حتى أسمعها، لأنها رحمها الله لم تكن تقرأ أو تكتب، مع أن عمتي وهي أسنُّ منها بخمس عشرة سنة، كانت تكتب وتقرأ وتحفظ كثيراً من آيات الكتاب ومن أحكام الفقه، تعلمته من رسالة لمحمود الحمزاوي ـ أشهر مفتي في دمشق في القرن الماضي ـ اسمها (علم حال)، وهو كتيب في أصول الدين وأصول الفقه وفي الحلال والحرام، وفي الآداب والأخلاق، وضعه لتلاميذ المدارس الابتدائية، ولم يكونوا يفهمون منه شيئاً، فكانوا يحفظونه غيباً، ويرددونه كما تردد الببغاء ما يلقى عليها. وكانت عمتي مع أول فوج تخرج في مدارس البنات التي أنشئت بهمة الشيخ طاهر الجزائري في أواخر القرن الثالث عشر الهجري. وكان تاريخ شهادتها سنة ١٣٠٠ هـ.

أقول (وأعود إلى الموضوع بعد أن خرجت عليه): إن أمي كانت ترتضي الديباجة فتكلفني نقلها من الكتاب إلى الورق ثم إرسالها إلى أخيها، فمكرت يوماً فكتبت إليه: السلام عليكم ورحمة الله.. نحن بخير والرسالة في الصفحة كذا من كتاب الإنشاء العصري.. أقول هذا توفيراً لوقتك ووقتي، وتسهيلاً عليك وعليَّ، ورد عليَّ مسروراً بما فعلت بكتاب لا يزال عندي يثني فيه على فعلي، لأنني كما قال: حفظت له وقته. أما عمي الذي في اسطنبول فما كنت أكتب إليه لأنني لا أعرف عنوانه.

* * *

يا لله، كم تبدلت الدنيا من تلك الأيام إلى الآن، ذهب عالَم وجاء عالَم

آخر. كنت أصدر سنة ١٣٤٨ هـ رسائل متتابعة أسميتها (رسائل في سبيل الإصلاح)، جعلت إحداها صورة أدبية خيالية لما تكون عليه دمشق بعد تسعين عاماً، وجعلت ذلك عنوانها، أفتدرون ما الذي كان مما نراه الآن، لا بعد تسعين عاماً بل بعد ستين فقط؟ إن الذي تصورته بخيالي الجامح الذي لا يقف عند حد لم يبلغ ربع ما وقع الآن. وقد طبعت رسالتي [دمشق بعد تسعين عاماً] سنة ١٣٤٨ هـ وأنا أتخيل الآن ماذا تكون حالي لو أنني نمت عشية ذلك اليوم في الكهف الذي نام فيه الفتية الذين آمنوا بربهم، فلم أستيقظ إلا سنة ١٤٠٨ هـ، فإذا الأرض غير الأرض، والناس غير الناس، وإذا كل شيء قد تبدَّل، انقلبت الموازين، واختلت المقاييس، كبر الصغير، وصغر الكبير، وعزَّ الذليل، وذلَّ العزيز، ولم تعد العظمة دائماً بما تحوي الرؤوس ولكن بما تصنع الأقدام، فالذي يرمي الكرة برجله فيدخلها الشبكة في الملعب أشهر وأكبر في الناس من الذي يكشف في العلم مجهولاً، أو يحل معضلة، أو يبني في صرح الأدب رفرفاً يكون لأمته ذخراً وفخراً. والذي يسلِّي الناس على المسرح، أشهر من الذي يعظهم في المسجد على المنبر، أو يعلِّم في الجامعة أبناءهم، أو يداوي في المستشفى مرضاهم، وغدا أمثال عادل إمام ودريد لحام أعرف في الناس من مدير الجامعة أو من شيخ الأزهر وأذيع اسماً وأشهر.

ولكن من نعم الله على الإنسان أن الطفرة لا مكان لها في نظام هذا الكون، وأن كل شيء يتبدل ولكنه يجري في تبدله على مهل. إنك ترى ظل الشمس عند الجدار تحسبه ثابتاً لا يتحرك، ولكن عُدْ إليه بعد ساعتين تجده قد انتقل من مكانه، والعقرب الصغير في الساعة تبصره واقفاً ولكنه يمشي، والإنسان ينتقل من الضعف إلى القوة ويعود بعد القوة إلى الضعف. يكون طفلاً لا يملك نفعاً ولا ضراً، لا يستطيع أن يطرد الذباب إذا حطَّ على أنفه الذباب، ثم يقوى حتى يطوي الأرض، ثم يعلو متن الهواء ثم يخترق طرف الفضاء، ولو سألته في أي ساعة من أي يوم انتقلت من الطفولة إلى الشباب ومن الشباب إلى الكهولة لما استطاع أن يجيب.

والليل يكون أسود داجياً، فمن كان في غرفة مغلقة لا يبصر مما حوله شيئاً، إذا أخرج يده لم يكد يراها، فإذا كانت الظهيرة من الغد ملأ الضوء المكان وكشف كل ما فيه، فهل انتقلنا من ظلمة الليل إلى وهج الظهيرة في لحظة واحدة؟ إنَّ سنة الله في خلقه أنه يولج النهار في الليل، وأنه يخرج من الطفل الضعيف رجلاً قوياً، ثم يعود القوي ضعيفاً كما بدأ.

لقد صدر في أعقاب الحرب الأولى يوم كنت تلميذاً في أواخر المدرسة الابتدائية كتاب ترجم إلى أكثر اللغات، وقرىء في أكثر البلدان، ألفه (شبنكلر)، كان مما جاء فيه أنه ينتقد ما يقرر على الطلاب في المدارس من أن القرون الأولى تنتهي بسقوط روما، وأمثال هذه التحديدات، ومثلها ما يدرس عندنا في تاريخ الأدب من أن العصر الأموي قد ختم بقتل مروان (الذي كان يُدعى لصبره بالحمار مدحاً له لا ذماً وانتقاصاً) فلو أن روما سقطت يوم الجمعة، فهل كان يوم الخميس قبلها من القرون الأولى ويوم السبت من القرون الوسطى؟. ولو قتل مروان يوم السبت هل كانت الجمعة من العهد الأموي في الأدب، ويوم الأحد من العهد العباسي؟ إن من الشعراء من عاش في العهدين، نظم فيهما الشعر، وقال فيهما القصائد، فهل القصيدة التي قالها بشار مثلاً في العهد الأموي تختلف بخصائصها وصفاتها عن التي قالها في العهد العباسي؟.

* * *

الدنيا التي عاش فيها أبي وولدت فيها أنا وأخي ناجي ما زالت تُنقص من أطرافها وتتغير معالمها، حتى لم يكد يبقى منها إلا أقل من القليل. وجاءت دنيا جديدة، فلو أن أبي بعثه الله من مرقده الآن لما عرف كيف يمشي في دمشق ولا عرفه أحد من أهل دمشق، ولغدا جاهلاً بها مجهولاً من أهلها، وكان علماً من أعلام علمائها. ولرأى ولده (سعيداً) الذي تركه ابن ثلاثة أشهر صار في الخامسة والستين. لقد غدونا كلنا نحن الأخوة الأربعة، وأختان لنا، كلنا صرنا أكبر سناً من أبينا ومن أمنا، اللذين قضيا ولم يجاوز أكبرهما الثالثة

والأربعين، فهل رأيتم أو سمعتم بأولاد أسنَّ من أبويهم؟.

* * *

أنا إنما أنشأت هذا الفصل ليكون مقدمة لكتاب من كتب أخي ناجي، وناجي وأخواه: عبد الغني وسعيد كلهم أنبغ مني، ولكني خطفت الأضواء منهم كما يقولون في التعبير الحديث، ودخلت حلبة المصارعة، وما الحياة إلا مصارعة، بطبل وزمر، وضجة وصخب. نشرت سنة ١٣٤٨ هـ (رسائل في سبيل الإصلاح) التي أتكلم الآن عنها فانتقدت فيها المشايخ، وأساليبهم في التدريس، واختيارهم للكتب وبعدهم عن العلوم الجديدة، فأثرتهم عليّ حتى أُلِّفت في الرد عليّ كتب منها: الإفصاح عن رسائل الإصلاح للشيخ أحمد الصابوني رحمه الله، وقد كان خطيباً من أبرع من عرفت من الخطباء، يخطب في المساجد يذم الشباب المنحرفين، ويدعو إلى التمسك بالدين، ويضرب المثل بي وبرسائلي، ولا يخرج حتى يبيع ما يحمله أتباعه من رسائله، ولما تيقن أني بعيد عما اتهمني به من مخالفة الدين كتب في آخر الرسالة أنه «يسلني مما قال سلَّ الشعرة من العجين» ولكن ذلك لم يمنعه أن يبيع الكتاب وفيه العجين وفيه الشعرة التي سلَّها، وأن يحدث عنه في المساجد.

ثم أصدرت السنة التي بعدها رسائل «سيف الإسلام» التي كانت تطبع على نفقة طائفة من خيار التجار، وتوزع بالمجان، هجمت فيها على الشبان الجاحدين كما هجمت في الرسائل الأولى على الشيوخ الجامدين، فوضعت نفسي بين حجري الرحى، وصرت كالواقف بين الصفين، يتلقى السهام من الجانبين.

نبهت الناس إليَّ، فظلمت إخوتي الذين هم أنبغ مني، ذلك لتعلموا أن الشهرة ليست مقياس العظمة، ولا المدار عليها في تقدير قيم الرجال.

لقد عرفت الشهرة وذاع اسمي وأنا ابن إحدى وعشرين سنة، ولي كتاب نشر يومئذٍ اسمه «الهيثميات» لأنني كنت أنشر بإمضاء «أبو الهيثم»، وكنت أول

من سمّى نفسه به في دمشق، وكل من تعرفونه باسم (هيثم) في دمشق إنما ولد بعد إصدار هذا الكتاب، وتحت يدي الآن العدد الأول من مجلة (البعث) التي كنت أصدرها من نحو ستين سنة، قبل أن يولد حزب البعث وقبل أن يتخذ لنفسه هذا الاسم، وكان المسؤول عنها أمام الحكومة والذي يتولّى إدارتها «جمعية التهذيب والتعليم» ورئيسها الشيخ هاشم الخطيب رحمه الله.

في هذا العدد الذي صدر في غرة جمادى الأولى سنة ١٣٥٠ هـ قصيدة لشاعر لم يصرح باسمه، ولكن وقّع في ذيل قصيدته باسم «أبو النضر» جاء فيها:

ويلٌ لمن ملك القويُّ قيادَه
وغدا يبدّدُ ماله وبلاده

ويذيقه مرَّ العذاب وليس مَنْ
ينجيه من مضض أذاب فؤاده

ما للقوي سوى الضعيف فريسة
والذئب يلقى في الشياه مراده

يعدو على الحمل البريء مخادعاً
فيريه منه البشر كي يصطاده

فِعْل الفرنجة بالضعيف من الشعو
ب تسوده إذ تبتغي استعباده

يا شرقُ فاذكر عهد عزٍّ قد مضى
كيما تعيد إلى الوجود تلادَه

أيام كان العلم فيك ونوره
يهدي ببازغ شمسه رواده

أيام كنا للوجود أئمة
ونري الوجود ضلالَه ورشادَه

اذكر أسود الله من حكموا الورى
بسيوفهم يتسلمون قياده

وانظر ديارهم تراها بلقعاً
والغرب يُؤوي رَبْعها أجنادَه
ملكوا أزمتها وساموا شعبها
خسفاً وهدُّوا ظالمين عمادَه
الضعف في شرع الحياة جريمة
يا ويل من ملك القويُّ قيادَه

أترون هذه الأبيات؟ فلمن تحسبونها؟ إنها لطالب في الثانوية في السابعة عشرة من عمره، وأكثر طلاب الثانوية الآن، في كثير من البلدان لا يستطيعون قراءة أمثالها بلا خطأ، وفي عدد جمادى الأولى ١٣٥٢ هـ من مجلة الرسالة قصيدة مترجمة شعراً عن (أندري شينيه) الشاعر الفرنسي المولود في اسطنبول سنة ١٧٦٢ م، كما ولد فيها أخوه الأديب ماري جوزيف شينيه بعده بسنتين، وهو شاعر معروف، وترجمة الشعر شعراً، مع المحافظة الممكنة على المعنى من أصعب الصعاب. عنوان القصيدة (اللقاء العجيب). هذه أبيات شعرية تصور الشاعر العاشق وصاحبته تائهين في الغاب، كل يطلب الآخر ولا يجده، ويبحث عنه ولا يصل إليه، فتقول هي:

أيها الغاب هل رأيت حبيبي
قرب ماء الغدير عند الغروب
كم صباح أتاك بل كم مساء
عند همس الصبا وشدو الجنوب
سوف أصغي لكل صوت بعيد
فلعلي أحظى به من قريب

ويقول هو: (وهو في الجهة الأخرى من الغاب) لا يراها ولا يعرف مكانها:

إيه يا موجة الغدير سلاماً
يا عروس الماء النمير السكوب

احملي لي حبيبتي فهي عندي
زهرة الحب فوق غصن رطيب
كم لثمت العشب الذي وطئته
قدماها في الغاب دون رقيب

هي:

آه لو يعلم الحبيب بشوقي
وحنيني وحرقتي وشحوبي
هل أراه في الغاب؟ إن خيالي
ليراه في ذا المكان الرحيب
لم أفكر في أن أراك ولكن
جُزْتُه نحو بيتي المحبوب

هو:

أنا ألهو برؤية الموج وحدي
وذُرى الزيزفون تجلو كروبي
لم أفكر في أن أراك أمامي
لم أفكر في ذا (اللقاء العجيب)

* * *

هاتان المقطوعتان نشرتا من نحو ستين سنة لطالب كان يومئذٍ في المدرسة الثانوية، هو أخي ناجي الطنطاوي. نظم بعدها ما لا يحصى من المقطوعات، ومن القصائد، ولكنه لم يجمع منها شيئاً، ولولا أنني وجدت ما نشرته هنا في مجموعة الرسالة ومجموعة مجلة البعث من قبلها لضاعتا فيما ضاع.

وناجي أحد الذين يجري الشعر على ألسنتهم كما يجري الماء، ينظمونه عفواً، ويرتجلونه ارتجالاً، ولقد عرفت من الشعراء الكبار في هذا العصر من يرتجل، منهم الشاعر الكبير الشيخ عبد المحسن الكاظمي، قال له مرة الأستاذ خير الدين الزركلي في مصر: وجدت أبياتاً أحب أن تجيزها:

قال: هاتِ. فقرأ عليه أبياتاً من بحر الطويل وقافية الراء، فتدفق الكاظمي بقصيدة من البحر والروي، فلما بلغ منها بضعة عشر بيتاً، قال له خير الدين: لا عفواً، بل من البحر الكامل وقافية النون، فقال له: هل تمتحنني! خير الدين؟ وأجاز هذه الأبيات بقصيدة ارتجلها بلغت أبياتها خمسة وأربعين بيتاً، تدفق بها تدفقاً من غير إعداد ولا تحضير، وحدثني بها الأستاذ الزركلي رحمه الله والأستاذ أحمد عبيد.

وجزت يوماً بأخي ناجي، وكان وحده في الدار، فوجدته مكباً على المغسلة يعالج شيئاً فيها. قلت: ماذا تصنع؟ قال: هذا القميص وجدته متوسخاً فنزعته، قلت: هذا كلام موزون فأتمم القصة.

قال:

هذا القميص مع اللباس وجدته متوسخاً فنزعته وخلعته
ووجدت قِدْراً فارغاً فوضعته فيها وماءً صافياً فنقعته
ووضعت تَيْداً فوقه ومزجته وتركته في جوفها ونقعته
وخرجت من بيتي وقد أقفلته ورأيت قربي مسجداً فدخلته
والفرضَ خلف إمامه أديته ومشيت في سوق هناك رأيته
متجولاً فيه وقد أحببته ورجعت للبيت الذي خلّفته
وبدا القميص لناظري فأخذته وبهمة وعزيمة نظفته

ومضى يكمل القصة على هذا النمط.

وما هذا بالشعر السامي، ولا بالفن الرفيع، ولكنه لسهولته ولقربه من أفهام الناشئة، يصلح أن يتخذ لنظم الأشعار للأطفال، كما يصلح للمسرحيات المنظومة. وأنا أعرف من الشعراء القدماء والمحدَثين من كان له مثل هذا الأسلوب، وليست تحت يدي وأنا أكتب هذا الفصل مراجع أرجع إليها، فأكتفي بما أحفظ من أسماء الشعراء وبما بقي في ذهني مما قالوا. فمن هؤلاء البهاء زهير وأحفظ من شعره قوله:

من اليوم تعارفنا
ونطوي ما جرى منا
فلا كان ولا صار
ولا قلتم ولا قلنا

ومن الشعراء العصريين شاعر عندي ديوانه في مكتبتي في الشام اسمه رستم ونسيت بقية الاسم، ديوانه كله من هذا النمط الذي يمكن أن تسميه العامي الفصيح كقوله:

قد زرتُ زيداً وما زارني
وما عجب أن قبلت اعتذاره
فإن الحمار بإصطبله
يزار وليس يرد الزيارة

وفي أول الديوان بيتان عالقان في ذهني هما:

قالوا متى يطلع ديوانكم
فوقعوا في غلطة مفظعة
صوابه ينزل إذ أنه
في الطابق الأعلى من المطبعة

وقد لحظتم أن الشطر الثاني من البيت الأول حشو ليس له مكان إلا إقامة الوزن. وبيدي الآن رسالتان علميتان، إحداهما فقهية عنوانها (من أحكام اليمين)، والثانية عنوانها (حقيقة الجن في الكتاب والسنة)، وأحسب أن هذه

جريدة (الشرق الأوسط) قد أشارت إليه من أيام قريبة، فكتب فيها كاتب فاضل يعرِّف بهذا الكتاب. والرسالتان لصاحب المقطوعتين، فهو شاعر وفقيه. ولا تعجبوا أن يجمع رجل بين الفقه والفتوى والقضاء، وبين الشعر منظوماً ومترجماً عن لغة أخرى، فإن تاريخنا العلمي مُتْرع بأمثال هذه النماذج، وحسبكم منها واحداً، هو ابن رشد الحفيد، وقيل له الحفيد لأن جده كان أيضاً فقيهاً وكان قاضياً، فهو في هذا كتقي الدين (ابن تيمية) المشهور الذي كان جده مجد الدين قبله فقيهاً معروفاً ولكن اسم الحفيد غطّى على اسم الجد؛ ابن رشد مثلاً كان قاضي الجماعة في الأندلس ولقب قاضي الجماعة فيها يعدل لقب قاضي القضاة في بغداد وكان من أكبر فقهاء المذهب المالكي، مع مشاركة قوية واطلاع واسع على المذاهب الأخرى، ويكفي دليلاً على ذلك كتابه العظيم (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) وهو من أجود الكتب فيما يدعونه الآن في كليات الشريعة بالفقه المقارَن، وهي ترجمة حرفية لاسمه عند غيرنا، ولو رجعوا إلى ما كان يسمِّيه به أجدادنا لكان خيراً وأجدى وهو (علم الخلاف) فإذا قالوا فلان عالم باختلاف الفقهاء، قصدوا غالباً اختلاف العلماء في المذهب الواحد، وإذا قالوا علم الخلاف فإنما يريدون به ما يراد الآن باسم الفقه المقارن. ابن رشد هذا كان أكبر الفقهاء، وكان في الوقت نفسه أكبر الأطباء، وكان الإمام في الطب يؤخذ عنه، ويرجع فيه إليه، وكان أكبر عالم بالفلسفة، ردَّ على الغزالي بعد موته بزمن طويل، وذلك أن الغزالي كان أستاذاً في المدرسة النظامية يوم كانت تعدُّ الجامعة الكبرى في العالم المتحضر، فلخص مذاهب الفلاسفة وشرحها شرحاً واضحاً بيناً على عادته في كل ما يكتب، وصار كتابه هذا: وهو (مقاصد الفلاسفة) مرجعاً لكل من درسها ثم ردَّ عليها ونقدها في كتابه المشهور: (تهافت الفلاسفة) هذا الذي ردَّ عليه ابن رشد في كتابه: (تهافت التهافت) وقد طبع الكتابان معاً وطبع معهما كتاب لرجل ليس من طبقتهما ولا من بابتهما لا أدري ما الذي جمعه بهما وحشره معهما.

ولابن رشد أمثال من الذين جمعوا علوماً مختلفة، وكانوا أدباء وكانوا

فقهاء وعلماء، أعرف من هؤلاء الكثير الكثير، ولكن لما ضعفت الملكات، وكان ما يدعى بعصر الانحطاط، انفكت الصلة بين الأدب وبين العلم، وضاعت الملكة البيانية فافتقدها أكثر المؤلفين، ولما كنا صغاراً كان العلماء بين اثنين: عالم بالعلوم الشرعية وله اطلاع على غيرها لكنه وقف عند القديم الموروث فلم يجاوزه، وجهل ما استحدث في العلوم بعد (عصر النهضة) فلم يعرفه، وبين عالم درس العلوم الحديثة التي كانوا يدرسونها على أيامنا في اسطنبول، ثم صاروا يدرسونها في لندن أو باريس أو أمريكا. كان من علمائنا في الشام من ينكر كروية الأرض مع أن المسلمين عرفوها من قديم، بل إنهم قاسوا طول خط الاستواء أيام المأمون، إذ أوفد كما أحفظ (ولعلي لا أكون ناسياً أو مخطئاً) أوفد بعثتين، واحدة إلى صحراء سنجار، والثانية إلى جوار تدمر، فرصدوا نجم القطب، ومشوا بخط مستقيم حتى رأوه قد ارتفع درجة واحدة، فقاسوا المسافة على الأرض، وضربوها بثلاثمئة وستين، التي هي درجات الدائرة عرفاً، فعرفوا طول محيط الأرض، والرقم الذي وصلوا إليه لا يختلف عن الرقم المعترف به الآن علمياً إلا بقدر يسير.

فجاء من مشايخنا الذين كنا نقرأ عليهم بعد أكثر من ألف ومئتي سنة من يشك في كروية الأرض، ثم جاء شيخنا الشيخ الكافي التونسي الذي كتبت عنه في ذكرياتي، فألف في الشام لما هاجر إليها كتابيه: (الأجوبة الكافية) أولاً، و(المسائل الكافية) ثانياً، ذهب فيهما في إنكار دوران الأرض شتى المذاهب، وجاء بما توهمه دليلاً وليس بدليل على إنكار حركتها، والزعم بأنها ثابتة، والشمس تدور من حولها، كما كان يعتقد الفلاسفة الأقدمون من اليونان.

وعن الشيخ الكافي أخذ من قال بهذه المقالة من العلماء هنا، ثم رأينا من ينكر حقائق فلكية ثابتة فلا يصدق أن الشمس إنما تكسف في أوائل الشهر العربي، وأن القمر إنما يخسف في أواسطه، وكان منهم من يدع الطب الحديث ويلجأ إلى (تذكرة داوود الانطاكي) في الصيدلة، وإلى كتب الطب

القديمة التي تأخذ عن جالينوس وأبقراط، وأصغر تلميذ اليوم في كلية الطب يعرف من الطب أكثر مما كان يعرف أبقراط وجالينوس.

كان العلماء كثيراً ولكن أكثر علمهم علم رواية لا علم دراية. يعرفون ما في الكتب، لكنهم لا يضمون إلى تلك الأبواب باباً جديداً، ولا يكادون يجيلون أذهانهم فيما لا تحويه تلك الكتب. وكان أبي فقيهاً، بل كان من صدور الفقهاء في الشام، وكان أمين الفتوى عند المفتي الشيخ أبي الخير عابدين، وهو بداية السلسلة الذهبية التي أدركتها من المفتين الفقهاء. وكان بعده الشيخ عطا الكسم، ثم الشيخ محمد شكري الأسطواني، ثم الطبيب الفقيه الشيخ أبي اليسر عابدين، ثم انقطعت السلسلة.

وكان مع الفقه أستاذاً في الحساب يدرِّسه لكبار الطلاب، فورثنا ذلك عنه نحن أبناءه الأربعة. فكنت أنا وناجي من المشتغلين بالفقه، وكان عبد الغني ومحمد سعيد من المهتمين بالحساب والعلوم.

أما عبد الغني فقد شهد له كبار أساتذته: جودة الهاشمي، ومسلَّم عناية، ثم رشدي بركات (لما كان طالباً) أنهم لم يروا فيمن درّسوا من الطلاب في الشام أنبغ منه في الرياضيات.

ولما أعلنوا عن بعثتين من الطلاب لدراسة الرياضيات والعلوم في باريس دخل المسابقة فكان الأول في الفرعين، واختار الرياضيات، وكان ذلك سنة ١٩٣٧ م. وقضى سنتين في السوربون، ثم قامت الحرب سنة ١٩٣٩ م فحالت بينه وبين العودة فتأخر نيله الدكتوراه سنين، وكان على كل حال أول من نالها في سورية في الرياضيات. ولما بلغ سن التقاعد قدم المملكة وهو الآن يدرس في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وأكثر أساتذة الرياضيات في الشام ومن جاء منهم يدرس هنا في المملكة من تلاميذه وممن تلقّى العلم عنه. ولما اهتم الناس بما دعوه (الرياضيات الحديثة) كان أول من درسها وألَّف فيها كتاباً هو المرجع لدراستها، وضّحها وعبد طريقها.

ومن النـاس من آتاه الله القـدرة على حل المعضـلات، وتوضيـح الغامضات، وعبد الغني من هؤلاء، يمشي على طريق الغزالي من المتقدمين - والشيخ عبد الوهاب خلاّف والشيخ شلتوت من العصريين، يشرح أعقد القضايا فإذا هي واضحة سهلة قد انحلت عقدها وبان سبيلها.

وكانت لغته الأخرى هي الفرنسية التي تعلَّم بها في السوربون في باريس - فلما انصرف الناس إلى الانجليزية درسها وحده حتى أتقنها إتقانه العربية التي يكاد يعدُّ من أساتذتها فهماً لها ومعرفة بها. ثم درس (وحده) الألمانية وصار يفهمها ويعرف قواعدها، وهو أشد مني عزلة وابتعاداً عن الناس.

أما محمد سعيد، فقد فارق المدرسة عقب المرحلة الابتدائية لأسباب صحية، وتركته يقرأ ما يريد، وجئته ليتعود المطالعة ويألفها (بقصة عنتر) وهي تشتمل على أخبار الجاهلية كلها، وفرسانها وأيامها، وإن لم تكن كتاب تاريخ يرجع إليه، ويعتمد عليه. ثم جئته بفتوح الشام للواقدي - على ما في صحة نسبته للواقدي، ثم صار يقرأ في كل موضوع. فلما بلغ الطلاب الذين فارقهم لما ترك المدرسة لما بلغوا الشهادة الثانوية دخلها معهم - فكان من أوائل الناجحين فيها، وتخرَّج في الجامعة من فرع الفيزياء وكان من أفاضل مدرسيها - فهماً لها وتفهيماً لطلابها، مع اطلاع واسع على الفقه والحديث والتفسير وكذلك السيرة والتراجم، أي أن الله جمع له طرفاً من علوم الدين ومن علوم الدنيا.

فقد كلِّفت أيام الوحدة مع مصر بوضع مناهج العلوم الشرعية والعربية في مدارس الأوقاف، فنظرت فإذا كثير من المدرسين يسيئون تدريس ما وقع بين الصحابة الكرام «عائشة وعلي» و«علي ومعاوية» فاقترحت إلغاء هذه المادة من أساسها، ووضعت بدلاً منها مادة سميتها «أعلام الإسلام» وأخذت نحو أربعمئة اسم من أسماء الأعلام، على أن تبدل كل ثـلاث سنين. واقترحت على المجلس الذي يشرف على هذه المدارس، وكنت رئيسه، أن

يكلف بتدريس هذه المادة الجديدة أخي محمداً (محمد سعيد)، فقام بها خير قيام، ووضع فيها سلسلة من الكتيبات الصغيرة انتفع بها الناس.

* * *

مشيت أنا وناجي في طريق واحد، ولكن القوافل شتى.. فأنا في السابقة وهو في اللاحقة. المكان واحد لكن الزمـان متعدد، علَّمت في المدارس وجاء فعلَّم فيها بعدي. ودخلت سلك القضاء ثم دخله على إثري. وكنت قاضياً في (النبك) ثم في (دوما) وكان قاضيها بعدي. وجئت المملكة وجاءها كما جئتها.

لقد فتحت عليّ يا ناجي باب الذكريات، ولو دخلته لم أخرج منه، ولبلغت هذه المقدمة مئة صفحة، كانت فيها أيام لم يبقَ منها إلا ذكريات.

ذُمَّ المنازل بعد منزلة اللِّوى   والعيش بعـد أولئـك الأيـــام

وأين منا الآن تلك الأيام، وأين من كان فيها من الأهل والإخوان، والأصدقاء والخلّان؟.

لقد مضَوا ونحن ماضون على آثارهم، فاللهم لك الحمد أن نَسَلتنا من أبوين مسلمَين صالحَين، وأن أنشأتنا في دار علم وتقى، ونسألك اللهم أن تجعل نهايتنا خيراً من بدايتنا وأن تختم لنا بالحسنى.

* * *

وبعد فلا تحسبوا أن هذه (الكلمات النافعة) هي كل ما يقدر عليه ناجي... إن البلاغة هي الوصول إلى الغاية التي يسعى الكاتب إليها، وهذه الكلمات ما كانت الغاية منها الأدب، ولا خوطب بها الأدباء، ولا أريد بها الفن، بل هي كلمات نافعة لعامة الناس، أنشئت لهم، وأريد منها مصلحتهم ونصحهم، لا كسب إعجابهم ونيل رضاهم.

غرة ربيع الأول ١٤٠٨ هـ   **علي الطنطاوي**

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله

(وبعد): فإنّ الكتب ألوان كألوان الطعام، منها الثقيل الدَّسم الذي يُقبل عليه الأكول النهم، ومنها الخفيف الهشّ الذي يتبلّغ به القنوع أو المشغول الذي لا يملك وقته.

والكتاب غذاء للروح كما أنّ الطعام غذاء للبدن، وحاجة المرء للأول لا تقلُّ في ضرورتها عن حاجته للثاني، فكما أن الغذاء هو قوام بقاء الحياة للبدن، فالمعرفة هي قوام الروح للإنسان الذي يعيش في مجتمعه ومع أهله وعشيرته.

وقد يكون الكتاب علمياً بعيد الغَوْر يصعب فهمه على غير المختصين، وقد يكون في موضوعه وأسلوبه سهلاً واضحاً قريب المنال يفهمه من رُزق طرفاً مِن العلم ومن اللغة.

وإذا استطاع المؤلف أن يعرض للقارىء الموضوع العلمي أو الفكر الدقيق، بأسلوب سهل واضح، وأن يقرّب إليه البعيد، ويكشف له الغامض بمثل هذا الأسلوب كان جديراً بأن نصِفَهُ بالبراعة والمقدرة والسبق في ميدان التأليف.

ولستُ أدّعي أنني بلغتُ في هذا الكتاب منزلة هذا المؤلف البارع، ولكنني أذكر للقارىء أنني حاولتُ قدْر وسْعي تبسيطَ الأسلوب في الحديث عن موضوعات أشبعها العلماء بحثاً وتفصيلاً في لغةٍ علمية يجدُ كثيرٌ من القُرّاء مشقّةً في فهمها والانتفاع منها.

وهذا الكتاب يضمُّ فقراتٍ كثيرة، لا تزيد الواحدة منها على صفحتين من الكتاب، تتضمّن عرضاً موجزاً للفكرة مع الاستشهاد ببعض الآيات والأحاديث

والحكم والأخبار.. ولا تخرج موضوعاتها عمّا يتحدث الناس عنه في بيوتهم ومجالسهم ومُنتدياتهم فيما يمسّ جوانب حياتهم.

والناس اليوم ـ وبخاصةٍ الشبابُ وأربابُ الأعمال ـ لا يصبرون مع الأسف على قراءة الأبحاث المطوّلة ولو لم تكن ذات صبغة علمية، لأننا نعيش في عصر السرعة، وقد استنفذ طلبُ المال جُلّ أوقاتنا، فلم يَعُد يجد أحدنا وقتاً لراحة بدنه فضلاً عن تغذية روحه، فأصبح لزاماً علينا أن نعرض عليه الكتاب كما تُعرض المُشهيّات من الطعام في صِحافٍ برّاقة معطّرة.

وأنا آمُل أن يجد القاريء في هذا الكتاب ما ينفعه في دنياه وآخرته، والله حسبي ونعم الوكيل.

المؤلف.

آدابُ المجتمَع

اللَّغْو في الأَقوال

لا تخلو أحاديث الناس اليوم في مجتمعاتهم ومنتدياتهم وسهراتهم من الأحاديث الفارغة والأقوال الساقطة التي تدور على ألسنتهم من غير فائدة ترجىٰ منها يقصدون بها قطع الوقت لمجرد الكلام فقط، مع أن العاقل لا يتحدث إلا بما ينفعه ولا يحضر إلا المجالس التي تزيده علماً وتكسبه نفعاً سواءً في أمور الدين أو في مصالح الدنيا، والمؤمن مأمورٌ بترك اللغو وهو الساقط من القول، والذي ينطق به اللسان من غير تفكير ولا رويَّة، وهو كلامٌ لا خير فيه لأن الإنسان يتكلم لجلب منفعةٍ أو لدفع مضرةٍ فإذا خلا عنهما كان عبثاً لا طائل تحته. وقد وصف الله سبحانه عباده المؤمنين بقوله ﴿والذين هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، وقال أيضاً ﴿وإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْه﴾، فربّما كان اللغو وبالًا على صاحبه لأنه لا يخلو من ألفاظٍ قبيحةٍ وكلماتٍ سيئةٍ قد تتضمن شيئاً من الغيبة والكذب والبذاءة والفحش.

والمؤمن لا تكون أعماله عبثاً، ولا تكون تصرفاته لهواً ولعباً، ولا تكون ألفاظه لغواً ولا كلاماً مبتذلاً، ولا يترك أوقاته تذهب هدراً من غير أن يستفيد منها، بل تراه هادئاً ساكتاً لا يتكلم إلا فيما ينفع ويفيد ولا يفكر إلا في مصلحته ومصالح المسلمين، وقد ورد في الأثر: من حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه، يعني أن ما ينطق به اللسان معدودٌ من عمل المؤمن ويكتب ما ينطق به في صفحة حسناته أو في صفحة سيئاته لذا فهو يقل من كلامه خوفاً من أن ينطق باللغو.

وقد ذكر الإمام الغزالي رحمه الله من آفات اللسان أن تتكلم فيما لا يعنيك، وأن يكون كلامك زيادةً عن الحاجة، قال تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُم إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أو مَعْرُوفٍ أَو إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاس﴾، وأن تخوض في الباطل كالتحدث عن النساء أو مجالس الغناء أو أخبار الفاسقين والملحدين، وأن تنطق بألفاظ الفحش والبذاءة، أو الغناء الذي فيه منكرٌ أو السخرية والاستهزاء والتحقير ونشر العيوب والنقائص بقصد إضحاك الجالسين، أو المجادلة في الباطل واللسان يورد صاحبه موارد العطب، ومن حفظ لسانه أراح نفسه.

يروى عن مالك بن أنس رحمه الله أنه قال كل شيءٍ ينتفع بفضله ـ أي بزيادته ـ إلا الكلام، فإن فضله يضر. وقال الفضيل بن عياضٍ: شيئان يقسيان القلب كثرة الكلام وكثرة الأكل. وقال أبو الدرداء: كفى بك ظالماً ألا تزال مخاصماً وكفى بك آثماً ألا تزال ممارياً يعني مجادلاً بالباطل وكفى بك كاذباً ألا تزال محدثاً إلا حديثاً في الله تبارك وتعالى.

ونختم حديثنا بأن ننصح الناس أن يختاروا الموضوعات النافعة عندما يتحدثون في مجالسهم، فمن كان يحفظ قصةً طريفةً ذات مغزىً، أو خبراً من أخبار التاريخ، أو رأياً من الآراء العلمية أو الأدبية التي تصلح موضوعاً للنقاش الهادىء المفيد فليذكر ذلك في المجلس، وإن كان لا يحسن من ذلك شيئاً كان السكوت خيراً له.

المبالغة في الضحك

الضحك والبكاء غريزتان في الإنسان خصَّ الله سبحانه بهما الإنسان دون سائر المخلوقات، فهو إذا فرح ضحك وإذا حزن بكى، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، أي إنه فطر الإنسان وقدَّر له الأسباب التي يضحك ويبكي لأجلها، فالضحك مطلوب في بعض حالات السرور ولكن القهقهة وهي المبالغة في الضحك مذمومة، وكثيراً ما نرى الناس في مجالسهم ومنتدياتهم وسهراتهم يذكر أحدهم القصة الطريفة أو يلقي النكتة المستحبة فتنفجر لها أفواه الحاضرين بالضحك الكثير والقهقهة بالأصوات المرتفعة المنكرة التي تشمئز منها نفوس العقلاء وتنفر منها أفئدة الفضلاء.

وللقهقهة مساوىء كثيرة منها أن كرام الناس يأنفون منها ويتجنبونها ويعدونها نقصاً في المروءة وشيناً للكرامة ويذمون صاحبها، ومنها أن السفهاء والجهال إذا رأوا صاحبها اجترؤوا عليه لأن احترامهم إياه ينقص أو يزول من نفوسهم، ومنها أن صاحبها إن كان جاهلاً ازداد جهله وإن كان عالماً انحطت منزلته وضعف قدره ونقص علمه، ومنها أن هذا النوع من الضحك يحجب عن صاحبه عيوبه ونقائصه وينسيه ذنوبه الماضية فلم يعد يبالي بالندم عليها والتوبة منها، وقد يؤدي به ذلك إلى الإقدام على ارتكاب ذنوب جديدة لأن الضحك يحجب عن قلبه مراقبة الله والمخافة من عقابه، ومنها التوقف عن ذكر الموت والاستعداد له لأن الضحك ضرب من اللهو الذي ينافي الخشوع، ومنها أنه يكتب على الضاحك وزره ووزر من ضحك معه لأنه المتسبب بذلك.

وأخيراً فإنّ كثرة الضحك تميت القلب وتعقب بكاءً طويلاً في الآخرة.

قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان والله أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي. وجاء في الحديث عن النبي ﷺ قوله: «والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعدات ـ أي إلى الطرق ـ تجأرون إلى الله تعالى»، وسئل طاهر المقدسي: أتضحك الملائكة؟ فقال: ما ضحكوا ولا كل مَنْ دون العرش منذ خلقت جهنم.

وعلى المسلم أن يقتدي بالنبي ﷺ فقد كان أكثر ضحكه التبسم، وكان أحياناً يضحك أعلى من التبسم بقليل وكان نهاية ضحكه أن تبدو نواجذه وكان يضحك مما يُضحَك منه ومما يُتعجب من مثله ويُستغرب وقوعه كما ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله.

إلى إخواننا الأطباء

إن الرابطة النفسية بين المريض والطبيب الذي يقوم على مداواته وعلاجه أمرٌ مشاهدٌ ومعروفٌ، وإن الأثر الذي تتركه نصائح الطبيب في نفس المريض أثرٌ كبيرٌ، ولحكمةٍ بالغةٍ اعتبرت الشريعة الإسلامية المرض من الأعذار الشرعية التي تبيح للمريض من التصرفات ما لا تبيحه لصاحب البدن السليم المعافى، وإن المريض في العادة يحس في أعماق نفسه بأن الناحية الروحية في باطنه قد تيقظت فهو يشعر بضعفه وعجزه أمام القضاء والقدر فيلتمس عوناً من قوةٍ علويةٍ خفيةٍ لا يعرف اسمها إن كان من غير المسلمين. أما المسلم فهو يعلم ويعتقد أن ما أصابه من مرضٍ كان بتقديرٍ من الله سبحانه الذي خلقه وأوجده وأحياه ووهب له القوة والصحة والعافية، وسلب ذلك عنه لحكمة يعلمها فهو يتداوى ويعلق قلبه بالله وحده طالباً منه البرء والشفاء قائلاً قولة إبراهيم عليه السلام ﴿فإنَّهم عَدُوٌّ لي إلاّ رَبَّ العَالمين الذي خَلَقَني فَهُو يَهْدين وَالذي هُو يُطعِمُني وَيَسْقِين وإذا مَرِضْتُ فَهُو يَشْفين﴾ ومن هنا يأتي دور الطبيب المؤمن الصالح الذي يعتبر المريض بين يديه كالطفل الصغير القاصر بين يدي أبيه أو مربيه يستطيع بحكمته وقوة إيمانه أن ينفخ في نفس مريضه قوة الإيمان واليقين والثقة بالله والتوكل عليه وتفويض أمره إليه، ويستطيع أن يأمره عند وصف الدواء وضرورة تناوله أن يقرن ذلك بالإلتجاء إلى الله وكثرة الدعاء وتلاوة القرآن والصلاة بقدر استطاعته من غير مشقةٍ عليه.

وبما أن المريض يثق بطبيبه، فإنه سوف يستجيب إليه وسوف ينفذ هذا العلاج الروحي السامي كما استجاب لتعاطي الدواء المادي لأن نفسه الضعيفة تطلب الشفاء من أي طريقٍ وبكل وسيلةٍ ممكنةٍ.

ولقد قرأنا عن طائفة المبشرين الذين يتنقلون بين البلاد الإسلامية لتعليم المسلمين مبادىء الكنيسة وتعاليم إنجيلهم طمعاً منهم في سلخ المسلم عن دينه وإدخاله في دينهم وتنصيره، قرأنا عنهم أن الطبيب منهم يدخل المستشفى ويداوي المرضى من الرجال والنساء، وهو في خلال المدة الطويلة في معالجتهم يبذل جهده في تلقينهم عبارات في الرحمة والتسامح التي ينسبونها إلى المسيح عليه السلام ثم يحاولون من بعد ذلك شرح عقيدة التثليث بأسلوب مبطنٍ وكلماتٍ ناعمةٍ في ظاهرها وهي كالسم في باطنها.. وقد قرأنا تصريحاً صدر عن أحد كبار أطبائهم من ألمانيا يقول فيه: يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينسى ولا في لحظةٍ واحدةٍ أنه مبشِّرٌ قبل كل شيءٍ ثم هو طبيبٌ بعد ذلك، أي إنه يعتبر الطب مرتبةً ثانيةً بعد واجب التبشير الذي يعتبره في المرتبة الأولى.

السخرية والاستهزاء

هناك مثل يقول: (من يضحك أخيراً يضحك طويلاً) يضرب هذا المثل لمن يسكت على استهزاء الناس به بسبب ضعفه فإذا صار قوياً قابل الاستهزاء بمثله، كالطالب النشيط المجد المجتهد ينكب على القراءة والمراجعة والدراسة آناء الليل وأطراف النهار بهمةٍ قويةٍ وعزيمةٍ صادقةٍ فيأتي رفيقه المهمل الكسول ويضحك منه ويهزأ به على هذه الهمة النادرة والعقل الكبير، ويحتمل الأول هذه السخرية صامتاً ساكتاً حتى إذا انتهى الامتحان وظهرت النتيجة بفوز هذا ورسوب هذا، وجد الفائز المجال واسعاً للضحك على رفيقه ومقابلة السخرية بمثلها.

وقد ورد مثل هذا المعنى في القرآن الكريم في تصويرٍ جميلٍ وعرضٍ بديعٍ، فقد كان بعض رؤساء المشركين مثل الوليد بن المغيرة والعاص بن هشام يضحكون على بعض المستضعفين من المسلمين مثل صهيبٍ وبلالٍ وخبابٍ ويسخرون بهم ويتغامزون عليهم بأعينهم ويقولون إن هؤلاء لضالون، فذكر الله سبحانه أنه إذا جاء يوم القيامة جاء دور المؤمنين فيضحكون من الكفار كما سبق أن ضحك هؤلاء منهم في الدنيا، قال تعالى في سورة المطففين: ﴿ إِنَّ الذينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلذينَ آمَنُوا يَضْحَكُون، وَإِذا مَرُّوا بهم يَتَغَامَزُونَ وَإِذا ٱنقَلَبُوا إلى أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا فَكِهين، وَإِذَا رَأَوْهُم قَالُوا إنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلوا عَلَيْهم حَافِظِين، فَاليومَ ٱلذينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُون عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرون هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلون ﴾ أي هل جوزي

الكفار بعملهم في الدنيا من السخرية والاستهزاء.

قال المفسرون: توجد بين الجنة والنار كوىً - يعني فتحات وطاقات - فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو له كان في الدنيا اطلع من بعض هذه الكوى وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾، قالوا: يفتح للكفار باب جهنم من الجنة ثم يقال لهم تعالوا، فيقبلون يسبحون في النار، ويكون المؤمنون جالسين على الأرائك ينظرون إليهم، فإذا وصل الكفار إلى باب الجنة سد في وجوههم فيضحك المؤمنون منهم.

وقد نهى الله سبحانه عباده المؤمنين عن الاستهزاء والسخرية في الدنيا فقال: ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمَنوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرَاً مِنْهُم وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرَاً مِنْهُنَّ﴾ والمقصود هو التحقير وذكر العيوب والنقائص أو التقليد باللفظ أو الإشارة، أي لا تحتقر أيها المؤمن غيرك فلعله يكون خيراً منك عند الله، وقبل أن تنظر إلى عيوب غيرك انظر إلى نفسك وأصلح عيوبها.

من صفات الصديق

الإنسان اجتماعيٌّ بطبعه، وهو لا يستطيع أن يعيش وحده في عزلةٍ عن الناس ولا بد له من إخوانٍ يصطفيهم لمودته ويختارهم لعشرته، لأن الاجتماعٍ بالإخوان هو الذي تقتضيه الفطرة وقد جعل الله سبحانه المؤمنين إخوةً ليجتمعوا على الخير. ويتعاونوا عليه، وقد ورد في الحديث الشريف أن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً. وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: خالط الناس ودينك لا تَكِلْمْه، يعني إنك لا تستطيع أن تستغني عن معاشرة الناس ومخالطتهم ولكن احذر أن يؤدي ذلك إلى نقص في دينك أو تهاونٍ في تنفيذ أوامر ربك.

ومن هنا تظهر فضيلة الأخ الصالح والصديق الطيب الذي يؤاخيك في الله لا لغايةٍ في نفسه ولا لنفع يطلبه، فلا خير فيمن يصاحبك للدنيا لينتفع بمالك أو جاهك.

وعلى صديقك أن يكون قاسياً في أحكامه عليك في تصرفاتك وأعمالك، فلا يجاملك في الحق ولا يتساهل في بيان أخطائك ولا يتردد في مواجهتك بالصواب من غير أن يخشى غضبك وقد قيل إن صديقك من صَدَقَك لا من صَدَّقَك وقال أحد الصالحين: رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي.

ويجب عليه أن يحتمل تقلبات أخلاقك ونزوات طباعك لأن كل إنسانٍ يرضى ويغضب ويفرح ويحزن وتتقلب به الأحوال تبعاً لحالاته النفسية،

فالصديق يحتمل هذه التقلبات ولا يسرع بالغضب، بل يكون ذا صدرٍ رحبٍ يصبر عليك ثم يحاسبك من بعد ذلك على هفواتك بعبارةٍ سمحةٍ وعتابٍ رقيقٍ وأسلوبٍ هادىءٍ ناعم.

ويستحسن أن يكون صديقك أفضل منك خلقاً وأوسع عقلاً وأنبل غايةً ليرفعك إليه بدلاً من أن تنحدر إليه، وعليك أن تختاره من أهل العلم والصلاح لتتعلم منه ما تجهله من أحكام دينك وتاريخ أمتك وأسرار لغتك ولتتخذه قدوةً في الصلاح والعبادة والتقوى.

وكلما كانت طباعه أقرب إلى طباعك، وتفكيره مماثلاً لتفكيرك كانت الصحبة أقوى وأمتن وأطول مدىً. وعليه أن يحفظ سرك ولا يفشيه لأحدٍ من الناس، وأن لا يغتابك ولا يعرض بك ولا يتكلم عنك بسوءٍ، وأن يكون ظاهره كباطنه في كل أمرٍ من أموره، فلا خير في الصديق المرائي الذي يظهر غير الذي يبطن، ولا تدوم صحبة مثله.

وعليه أن يبذل جهده في مساعدتك وتقديم العون لك، ولو احتاج الأمر إلى أن يضحي في سبيلك.

العناية بالأولاد (١)

في كل بيتٍ أطفالٌ يعيشون مع أهليهم، وكل واحدٍ منا يعرف أن من الواجب عليه رعاية أولاده والعناية بهم، ولكن القليل من الناس هم الذين يقومون بهذا الواجب، أما الأكثرون فهم ـ مع الأسف ـ معرضون عنه، مهملون هذه الأمانة التي وضعها الله سبحانه بين أيديهم وهو سائلهم عنها يوم القيامة بدليل قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُم وَأَهْلِيكُم نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارةُ﴾. وبدليل قوله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته فالإمام الذي على الناس راعٍ وهو مسؤولٌ عنهم والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤولٌ عنهم»، وقوله أيضاً: «ما نحل والدٌ ولداً أفضل من أدبٍ حسنٍ».

وأنت إذا طلبت من الرجل في أيامنا هذه ملاحظة أولاده ورعايتهم اعتذر بأن مشاغله كثيرةٌ وأنه لا يجد وقتاً يتفرغ فيه لهم، ولكن هذا الجواب غير مقنعٍ ولو رحت تبحث عن حقيقة الأمر لوجدت هذا الرجل يقضي جانباً من وقته في الاجتماع إلى أصحابه وأقرانه يتبادلون الأحاديث التافهة ويستمعون إلى الإذاعات أو يلعبون بالورق وغيره، ولو فرضنا جدلاً أن أخانا من كبار التجار والمتمولين، ومن أصحاب الأعمال المرموقين، فإن ذلك لا يعفيه من الالتفات إلى أولاده لأن المال ليس أغلى من الأهل والولد، وقد تضيق الأم ذرعاً بأولادها لكثرة شغبهم وصياحهم فتطلب إليهم الخروج إلى الشارع تخلصاً منهم فيجلسون على التراب أو يلهون مع قرناء السوء، وهذا أمرٌ مشاهدٌ في كثيرٍ من البيوت.

مع أن الطفل في حقيقة أمره جوهرةٌ نفيسةٌ ساذجةٌ خاليةٌ عن كل نقشٍ وصورةٍ، وإن قلبه الصغير النقي الصافي قابلٌ لكل نقشٍ فإذا عودته الخير في صغره اعتاده وصار طبيعةً فيه ونشأ عليه وسعد في دنياه وآخرته وشاركه في ثوابه أبواه وكل من اشترك في تأديبه وتعليمه، وإن أهملته وتركته وتعود الشر وسلك طريق الفساد شب على ذلك وأصبح عضواً مؤذياً في الأمة وخطراً على المجتمع وعاش في نكدٍ وشقاءٍ وخسر الدنيا والآخرة وكان الوزر في عنق من أهمله وضيعه، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبعٍ واضربوهم عليها لعشرٍ وفرقوا بينهم في المضاجع»، وذكر القشيري أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا؟ فقال: «تنهونهم عما نهاكم الله وتأمرونهم بما أمر الله»، فعلينا إذاً أن ندل أهلينا وأولادنا على طريق الخير ولا نهمل أمرهم، وللحديث بقيةٌ.

العناية بالأولاد (٢)

الطفل كالعجينة تستطيع أن تكيفها بالشكل الذي تريده، وهو ينقاد إليك بسهولةٍ ويسرٍ وتستطيع أن توجهه الوجهة التي تختارها له ويستجيب لك من غير مقاومةٍ، ومن هنا كانت فائدة التربية في الصغر لأنها كما يقولون كالنقش في الحجر يثبت فيه ولا يزول بمر الأيام والليالي.

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت   ولا يلين إذا قومته الخشب

فالعاقل من استفاد من هذه الفرصة واعتنى بأولاده وغرس في نفوسهم العادات الحسنة والآداب القويمة والعقائد الصالحة والعلوم النافعة لأن من شب على شيءٍ شاب عليه، وأصاب الشاعر حيث يقول:

وينشأ ناشيء الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

وأكثر الرجال المنحرفين الفاسدين كان السبب في انحرافهم إهمال أمر تربيتهم فجرفهم تيار الشر وأصبحوا خطراً على المجتمع، وإذا كان الأب يصون ابنه عن نار الدنيا ويداويه من الأمراض التي تؤلمه، فالأجدر به أن يصونه عن نار الآخرة، فيراقبه في أعماله وتصرفاته ويقره على الصالح منها ويردعه عن مساوئها، وعليه أن يعرف أقرانه ورفاقه الذين يعاشرهم ويصاحبهم، لأن المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل، وقد شبَّه النبي ﷺ الجلساء الصالحين والفاسدين تشبهاً جميلاً حين قال: «مثل الجليس الصالح مثل العطار ـ يعني بائع العطر ـ إن لم يُنِلْك منه أصابك من

ريحه، ومثـل جليس السوء مثل القَيْـن - يعني الحداد - إن لم تصبك ناره أصابك شرره».

ولا تعود ولدك كثرة التنعم والرفاهية، لأن الدنيا فيها الحلو وفيها المر وفيها الراحة وفيها التعب فيجب أن يكون المرء مستعداً لتحمل الشدائد والمصاعب وقد ورد ما معناه: اخشَوْشِنُـوا فإن النعم لا تدوم، وعليك أن تلاحظه في منامه ويقظته وفي مأكله ومشربه، فلا يطيل السهر في الليل لئلا تفوته صلاة الصبح في وقتها، ولا يأكل بشراهةٍ ونهمٍ كالبهائم ولا يتناول الطعام بشماله، وليقل بسم الله في أوله وليحمد الله في آخره ولا يوسخ يده ولا بدنه ولا ثوبه وأن ينظف يده وفمه بعد الطعام، وليتعود تناول الطعام الخشن من غير إدامٍ بين حينٍ وآخر لأنه إذا تعود الطعام الدسم لم يستطع الصبر على غيره، وعليه أن لا يلبس الثوب الناعم الملون لأنه ينافي الرجولة، وعليه أن يجتنب كثرة الضحك والمزاح، وأن يحفظ القرآن في صغره لأنه أهون عليه وأن يقرأ حكايات الصالحين وأخبار الشجعان، وأن يمدح على أفعاله الحسنة كي يتشجع وبالله التوفيق.

فلذات أكبادنا

الحديث هـنا مـوجهٌ إلى الآباء وإلى أولياء الطلاب، وهو حديثٌ ذو شجونٍ، نرجو أن يصغوا إليه بقلوبٍ متفتحةٍ لا بآذانٍ مغلقةٍ، وأن يولوه من عنايتهم ما هو جديرٌ به.

منذ أيامٍ معدوداتٍ نشرت إحدى الصحف كلمةً لكاتبٍ فاضلٍ لم يصرح باسمه وجهها إلى الآباء قال لهم فيها: هل تحبـون أبناءكم؟ هـل تحرصون على سمعتهم ومستقبلهم؟ أعرف أنكم تحبونهم وتبـذلون الغالي والرخيص في سبيل إسعادهم، أيها الآباء الطيبون إن أبناءكم الطلاب لا يعرفون المدرسة إلا مرةً أو مرتين في الأسبوع، أما الأيام الباقية فإنهم يقضونها في المقاهي وفي أحواض السباحة وفي الدورة أيضاً. إنهم يخرجون أمام أعينكم في الصباح على أنهم ذاهبون إلى المدرسة، ويعودون إليكم في الظهيرة متعبين جائعين، وفي اعتقادكم أنهم خارجون من المدرسة، مع أنهم في الحقيقة وضعوا حقائبهم في أقرب دكانٍ ثم راحوا يسرحون ويمرحون، فإذا ادعوا أنهم كانوا في المدرسة أو في المذاكرات فلا تصدقوهم لأنهم يكذبون عليكم. راقبوهم في كل وقتٍ إن كنتم تحبونهم. . ويختم كلمته قائلاً: هذه مجرد نصيحةٍ من رجلٍ مسلم.

ولا أكتم القُراء إنني لم أكد أتم قراءة المقال حتى شعرت بهزةٍ في جسمي وأصابني الفزع وقلت في نفسي هل هذا صحيحٌ؟ وما هي مصلحة

الكاتب في أن يصور الأمر على غير حقيقته، ثم إنني لما رأيته يقول: هذه نصيحةٌ من رجلٍ مسلم، وقع في قلبي أن المقال ربما كان في أسلوبٍ عرضه شيءٌ من الزخرف اللفظي أو بعض المبالغة ولكنه يصف حقيقةً واقعةً، وأنا الآن أقول معقباً على قوله:

يا إخواننا: إن كل واحدٍ منكم أبٌ لأولادٍ وطلابٍ، أو وليٌّ لهم يرعى شؤونهم، وأنتم تنفقون عليهم وتقدمون لهم الطعام والشراب والكسوة وتقدمون لهم كل ما في وسعكم من طاقةٍ وجهدٍ في سبيل تربيتهم وتعليمهم وتأمين مستقبلٍ مشرقٍ لهم، أفلا يجدر بكم أن تراقبوهم في غدواتهم وروحاتهم أفلا يجب عليكم أن تسألوا عنهم وتستقصوا أخبارهم؟ إن أحدكم لا يعجزه أن يدخل على مدير المدرسة يسأله عن ولده وعن سلوكه ودراسته ودوامه، فإذا عرف منه أن ابنه لم يحضر إلى المدرسة فإن من واجبه أن يُفتش عنه في كل مكانٍ أو أن يلحق به في الصباح الباكر ويتبعه من بعيدٍ من غير أن يشعره بذلك، والأفضل له أن يتعاون مع إدارة المدرسة أو مع أحد المدرسين في سبيل تربية الطالب وتقويمه وانزال العقوبة الصارمة به.

أيها الناس إن الوضع خطيرٌ وإن الفساد قد انتشر وإن التيار القوي يجرف الصالح والطالح فانتبهوا لذلك وأنقذوا أولادكم قبل أن تندموا ولات ساعة مندم.

الأخذ بالثأر

إن عادة الأخذ بالثأر كانت سائدةً بين الناس في زمن الجاهلية ولا تزال رواسبها موجودةً إلى اليوم في بعض بلاد المسلمين لا سيما في القرى النائية التي يكثر فيها الجهل ويقل عدد المتعلمين، وكان العرب في الجاهلية يقولون: إن القتل أنفى للقتل، ويتبعون القاعدة التي تقول: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، ويقصدون بذلك أن على المرء أن ينصر ذوي قرباه سواءً أكانوا على حقٍ أم على باطلٍ فكان مبدأ التناصر بين أفراد القبيلة الواحدة قاعدة واجبة الاتباع في كل زمانٍ ومكان.

فكانوا إذا قتل فيهم قتيلٌ، قام أفراد عشيرته للأخذ بثأره على عادة التناصر بينهم، وكانت الحروب تستمر بينهم بسبب ذلك إلى أن يقيض الله لهم رجلاً مصلحاً يسعى بالصلح بينهم.

فلما جاء الإسلام منع مبدأ الأخذ بالثأر وقرر قاعدةً هامةً هي أنه لا يُطَلُّ دمٌ في الإسلام، يعني أن دم القتيل لا يذهب هدراً، ولا بد من البحث عن القاتل فإن لم يعرف تحمل بيت المال دية القتيل أو تحملها أهل الحي الذي وقعت فيه الجريمة وهو ما يسمى بالقسامة. ومن عدالة الإسلام أنه حرم التعرض بالأذى لغير القاتل، قال تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي القَتْلِ إِنَّه كانَ مَنْصُوراً﴾، فالقصاص ليس حقاً فردياً يقوم به الشخص كما يريد ولكنه تشريعٌ يعم جماعة المسلمين من وليٍّ أو إمامٍ أو سلطانٍ، لأن تنفيذ الحدود

من سلطة الحاكم أو ولي الأمر فهو الذي يستوفي الحقوق بالقصاص العادل.

وعندما يطبق حكم الله في بلدٍ من بلاد المسلمين وتقام الحدود، فإن الناس لا يفكرون بالأخذ بالثأر في حالات القتل والاعتداء على النفوس والأرواح بل إنهم يتركون الأمر لإمام المسلمين يقتص لهم من القاتل بعد البحث عنه ومحاكمته، فإقامة الحدود تجعل الناس يطمئنون على أموالهم وعلى أرواحهم، ولا بد لمنع عادة الأخذ بالثأر من تربية النفوس على مبادىء الإسلام وإيقاظ الضمير الإسلامي والوازع الديني في قلوب الأفراد، وإصلاح القلوب على أساسٍ من التقوى والخوف من الله ومراقبته في السر والعلن، ويجب أن يفهم الناس أنه لا يجوز للفرد في ظل الإسلام أن يأخذ حقه بيده لأن في ذلك رجوعاً إلى الجاهلية الأولى التي جاء الإسلام لمحاربتها ومحوها، وقد تكفَّلت الشريعة الإسلامية بتقرير العلاج الحاسم حين أعطت ولي الأمر حق القصاص وإقامة الحدود بالعدل والإنصاف وذلك بعد البحث والتحري في الموضوع من شتى جوانبه وسائر أطرافه وسماع أقوال المتهم والشهود، وعدم التسرع في الحكم ودرء الحدود بالشبهات كي لا يقع الظلم على أحدٍ من الناس.

حقوق الجوار

ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الجيران ثلاثةٌ، جارٌ له حقٌ واحدٌ، وجارٌ له حقان، وجارٌ له ثلاثة حقوق. فالجار الذي له ثلاثة حقوقٍ الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم، وأما الذي له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له حقٌ واحدٌ فالجار المشرك».

وهكذا نرى أن حق الجوار لا يشترط فيه التوافق في الدين والعقيدة، بل هو منفصلٌ عنهما وهو حقٌ قائمٌ بذاته، سواءٌ أكان الجار مسلماً أم غير مسلم. يقول مجاهدٌ: كنت عند عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وغلامٌ له يسلخ شاةً فقال يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهوديّ، حتى قال ذلك مراراً، فقال الخادم: كم تقول هذا، فقال له ابن عمر: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه.

وحق الجوار يشمل جوانب الحياة المختلفة وروابط العيش وقد أوضحها الحديث الذي رواه عمرو بن شعيبٍ عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال: «أتدرون ما حق الجار؟ إن استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته وإن افتقر عدت عليه، وإن مرض عدته، وإن مات تبعت جنازته، وإن أصابه خيرٌ هنأته، وإن أصابته مصيبةٌ عزيته. ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه، وإذا اشتريت فاكهةً فأهد له،

فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها».

هذا هو أدب الإسلام في العلاقة بين الجيران، وهي كما يفهم من الحديث علاقةٌ متينةٌ قويةٌ تشمل التعاون بينهم في السراء والضراء، وفي الحزن والسرور، وفي الفقر والغنى، فالجار في هذه الصورة أخٌ وصديقٌ يعينك وتعينه وينصرك وتنصره، ويهدي إليك وتهدي إليـه، وتعطف عليـه ويعطف عليك، وللأطفال نصيبٌ وافرٌ في هذه الرابطة ولا يكاد ينقضي يومٌ لا يجتمعون فيه ومن الواجب تقوية روح الأخوة بينهم في اللعب والمعاملة والعطف وتبادل أنواع الحلوى والفاكهـة.. وعلى المسلم أن يصبر على الأخطاء التي تصدر عن جاره عن قصدٍ أو عن غير قصدٍ وأن يمتنع عن معاملته بالمثل، بل يحاول بكل وسيلةٍ أن يكبح من جماحه ويقابل السيئة منه بالحسنة كما أمر الله سبحانه.

من آداب السفر (١)

كنا ذكرنا أن الإسلام يصبغ المسلم بصبغته، ويرافقه في حركاته وسكناته وتصرفاته، فلا يؤدي عملاً إلا بعد أن يعرف حكم الإسلام فيه، ولـلإسلام آدابٌ في القيـام والجلوس، وفي اليقظة والنـوم وفي الطعـام والشراب، وفي معاشرة الأهل، وهي آدابٌ يهملها كثيرٌ من الناس، مع أن اتباعها يربي النفس المسلمة ويحقق للمجتمع الإسلامي الصفة البارزة التي أرادها له الشارع الحكيم.

وللسفر آدابٌ نريد اليوم أن نشير إلى بعضها وهي ذات فائدةٍ لمن أراد اتباعها، والمسافر اليوم يجعل أكبر همه شراء ما هو في حاجةٍ إليه من أمتعةٍ وهدايا وهو واثقٌ من نفسه من أنه سوف يعود من سفره ويتابع أعماله، مع أن العودة من السفر ليست مضمونةً، وكم من الحوادث التي وقعت للمسافرين في البر والبحر والجو، وبما أن الأعمار بيد الله سبحانه فمن الأفضل للمسافر أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون والوصية وذلك من باب الاحتياط لنفسه ولدينه، وعليه أن يعد النفقة اللازمة له في السفر ويؤمن نفقة من هو مكلفٌ بالانفاق عليه كالزوجة والوالدين والأولاد والأهل، وعليه أن يجمع النفقة والزاد من المال الحلال بقدر الإمكان..

ومن المستحسن اختيار الرفيق الصالح فقد قالت الحكماء الرفيق قبل الطريق، وعليه أن يختار رفيقاً من أصحاب الدين والاستقامة يدله على الخير ويحثه على العمل الصالح لأن المرء على دين خليله، ولا يعرف الرجل إلا

بقرينه ورفيقه. وقد نهى النبي ﷺ أن يسافر الرجل وحده وقال: «إذا كنتم ثلاثةً في السفر فأمِّروا أحدكم». وإنما يحتاجون إلى الأمير لأن الآراء تختلف في أعمال السفر وتختلف في الارتحال والنزول وفي شراء الزاد والحوائج وفي تنظيم خطة السير، فإذا اتفقوا على أن يكون أحدهم أميراً ووعدوا بإطاعته وعدم مخالفته ارتاحت نفوسهم وانتظم أمرهم، ويجب على الأمير أن يستشيرهم في كل أمرٍ قبل أن يعطي القرار فيه.

ومن آداب المسافر أن يودع الأهل والأصحاب، ومن السنة أن يقول لمن يودعه: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك. فيقول له صاحبه: زوَّدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث توجهت. ومن الأفضل للمسافر أن يصلي قبل سفره ركعتين، فإذا خرج من الباب يقول: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، رب إني أعوذ بك أن أَضِلّ أو أُضَلّ أو أَزِلّ أو أُزَلّ أو أَظِلم أو أُظْلَم أو أَجهل أو يُجْهَل عليّ، فإذا ركب الطائرة أو السيارة، فليقل: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون.

وللحديث بقيةٌ.

من آداب السفر (٢)

ذكرنا أن للسفر آداباً يجدر بالمسافر أن يعرفها وأن يعمل بها كي ينال ثواب اتباع الأدب النبوي وكي ينال الفائدة التي قصد الشارع الحكيم أن يؤمنها له.

ونود أن نشير اليوم إلى أن الشارع الحكيم منح المسافر بعض التخفيفات في العبادة سماها رخصةً لأن الله تعالى يقول: ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ﴾، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُم وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾، والرخصة جعلت لرفع المشقة عن المسافر الذي يخرج من بلده أكثر من مسافة القصر وهي ما يقارب ثمانين كيلومتراً، فلا يكلف بتأدية صلاة الجمعة وهو مخيَّر فيها وليس مجبراً عليها، ومثلها صلاة العيدين، ويمسح على الخفين والجوربين إذا أراد الوضوء، قال صفوان بن عسالٍ: أمرنا رسول الله إذا كنا مسافرين أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيامٍ ولياليهن، فكل من لبس الخف على طهارةٍ ثم أحدث فله أن يمسح على خفه خلال المدة المذكورة، وله أن يتيمم عند فقد الماء أو قلته أو بعده عن مكان نزوله والقصر في الصلاة يشمل الصلاة الرباعية وهي الظهر والعصر والعشاء فيصليها ركعتين فقط، وله أيضاً أن يجمع بين الظهر والعصر جمع تقديمٍ وبين المغرب والعشاء جمع تأخيرٍ... وأما السنن والنوافل فيجوز أداؤها على الراحلة، وكان النبي ﷺ يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته، والمتنفل على الدابة ليس عليه إلا الإيماء أي الانحناء ويجعل انحناء السجود أكثر من الركوع،

ويجوز له الفطر في رمضان على أن يقضي الأيام التي أفطرها وذلك بعد رجوعه أو عند إقامته في بلدٍ آخر.

وهكذا يتبين لنا ما في الإسلام من يسرٍ وسماحةٍ، وأن الله سبحانه ما جعل علينا في الدين من حرج وقد ذكر العلماء أن المشقّة تجلب التيسير، يعني أن الصعوبة تصير سبباً للتسهيل، ويقع التسامح في وقت المضايقة.

وأخيراً فإن الرجوع من السفر له بعض الآداب أيضاً. كان النبي ﷺ إذا رجع من غزوٍ أو حجٍ أو عمرةٍ يكبّر على كل شرفٍ من الأرض يعني على كل مكانٍ مرتفعٍ ثلاث تكبيراتٍ ويقول لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون. وكان ﷺ ينهى أن يطرق المرء أهله ليلاً ولا يقدم عليهم بغتةً، وكان إذا قدم دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت، وينبغي أن يحمل المسافر لأهله عند رجوعه تحفةً أو هديةً يسرهم بها ويدخل بها الغبطة والفرح إلى قلوبهم.

آداب الضيافة

يتبارى الناس في إعداد الولائم الفاخرة، ويهيئون لها أنواع الأطعمة، وينفقون في سبيل ذلك أموالاً ليست بالقليلة، وربما دعوا إليها من ليس في حاجةٍ إليها، مع أننا نهينا عن التبذير والإسراف ووضع المال في غير موضعه، ونهينا عن التكلف وعن دعوة الموسرين.

والضيافة سنةٌ دعا الإسلام إليها وحض عليها، ورد في الحديث أن النبي ﷺ سئل ما الإيمان، فقال: «إطعام الطعام وبذل السلام» ومدح الله سبحانه عباده المؤمنين بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُم لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُم جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾، وقال تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام حين جاءته الملائكة ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذ﴾، أي مشويٍّ، فالضيافة كما قلنا من مكارم الأخلاق ومن آداب الإسلام وإكرام الضيف من السنن المؤكدة وخاصةً في البادية والقرى حيث لا توجد فنادق ولا مطاعم. ولكن التكلف للضيف مذمومٌ، والأفضل تقديم الكفاية من غير زيادةٍ، كان الفضيل بن عياضٍ يقول: إنما تقاطع الناس بالتكلف يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عن الرجوع إليه.

ويجب على الداعي أن يدعو الأتقياء البررة ويجتنب غيرهم من الفسقة أو المنحرفين، وعليه أن لا يقتصر على الأغنياء بل يضم إليهم بعض الفقراء والمساكين لأنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «شر الطعام طعام الوليمة يدعى

إليها الأغنياء ويحرم منها الفقراء»، فيكون الداعي قد أتعب نفسه وأنفق ماله في طعامٍ نص الحديث على أنه شرٌ، ويصبح وقد خسر ماله ولم يستفد شيئاً، ولا يخلو الأمر من الانتقاد، لأنه مهما بذل من العناية والخدمة لم يسلم من لسان رجلٍ ينتقده لنقصٍ وجده في الوليمة.

ومن الأدب أن يبذل العناية في خدمة أضيافه ويسعى في إكرامهم، ومن تمام الإكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث، سئل الإمام الأوزاعي: ما إكرام الضيف؟ قال: طلاقة الوجه وطيب الكلام، قال الشاعر:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه المضيف خصيب

وإجابة الدعوة مطلوبة وهي سنةٌ، وإن كان صائماً صيام نفلٍ، فإن كان يعلم أنه يسر صديقه فإنه يفطر بنيَّة إدخال السرور على قلب صديقه ثم يصوم مكانه يوماً آخر، روي عن ابن عباسٍ أنه قال: من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار.. وليبذل الداعي جهده في أن يكون طعامه من المال الحلال وأن يجتنب الحرام وما فيه شبهةٌ لينال الثواب إن شاء الله تعالى.

حق الأقارب

لشد ما تحدث المتحدثون وتكلم الناصحون عن وجوب حسن معاملة الأهل والأقارب، وعن الحث على صلة الأرحام، ومع ذلك فإننا لا نزال نرى من يهجر أقرباءه ويقطع رحمه بسبب خلافٍ حدث بينه وبين أحدهم فيغضب لذلك وينفر من قريبه ويترك زيارته ويمتنع عن الكلام معه والسلام عليه ولو كان يعلم ما للأرحام من حقوقٍ عليه لصبر على أذاهم وحاول إصلاح ما فسد بينه وبينهم، لأن الشريعة الإسلامية أقامت المجتمع على أساس الأسرة لأنها تربط بين أفرادها بروابط قويةٍ وثيقةٍ تستدعي التواصل وتبادل المودة والمحبة والألفة، وإذا صلحت الأسر، صلح المجتمع، وقد جعل الله سبحانه للأرحام منزلةً عاليةً رفيعةً وقرنها باسمه حين قال عزَّ من قائلٍ: ﴿ واتَّقُوا اللهَ الذي تَساءَلُونَ به والأَرْحَام إنَّ اللهَ كانَ عَلَيكم رَقيباً﴾، وقال تعالى: ﴿وَأُولو الأَرْحَام بَعْضُهم أَوْلَى بِبَعضٍ ﴾، وأوجب رعاية القريب قبل البعيد.

والرحمة مشتقةٌ من الرحم، وقد ورد في الحديث الشريف: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت بلى قال فذلك لك».

وليس أبلغ في الزجر عن قطع الأرحام من قوله تعالى: ﴿ فَهَل عَسَيْتُم إنْ تَوَلَّيتم أَنْ تُفسِدُوا فِي الأَرْض وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُم ﴾، فقد قرن سبحانه تقطيع الأرحام بالإفساد في الأرض، وقال أبو ذر رضي الله عنه: أوصاني خليلي ﷺ

بصلة الرحم وإن أدبرت، يعني أن قرابتك وأهلك إذا قاطعوك وهجروك فلا تقابلهم بالمثل لأن الله سبحانه نهاك عن ذلـك، وقد وصف الله عبـاده المؤمنين بأنهم: ﴿يَدْرَؤون بالحَسَنَةِ السَّيْئة﴾ فيقابلون الشر بالخير والهجر بالوصل والمؤمن يصبر على الأذى ويصفح عن الخطأ والزلـل، وقد ورد في الحديث: «أن أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح» يعني بذلك قريبك المعرض عنك، فإن توددك إليه يعتبر صدقة منك عليه وورد في الأثر: «من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه».

وإن روابط القرابة هي الأبوة والبنوة والأخوة والعمومة وما يتبع ذلك من درجاتٍ وحق الأب والأم مقدمٌ على غيرهما من الأقرباء، ومن نظر في نظام المواريث والنفقات علم مقدار عناية الشريعة برابطة القرابة، فقد جعلت في أموال القادرين الموسرين واجب النفقة على ذوي القربى المعسرين تقويةً لروابط النسب ووشائج القرابة، وقد قال ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت».

الأمانــة

تشمل الأمانة سائر الحقوق المتعلقة بالذمة سواءً أكانت من حقوق الله سبحانه أم من حقوق العباد وسواءً أكانت قوليةً أو فعليةً أو اعتقاديةً. والأمانة هي كل حقٍ لزمك أداؤه وحفظه، وهي مظهر من مظاهر الإيمان فإذا نقص الإيمان في الناس نقصت الأمانة فيهم وإذا زاد زادت، روى الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له». وقد وصف الله سبحانه المؤمنين بصفاتٍ كثيرةٍ منها قوله تعالى فيهم: ﴿ والذينَ هُم لأَمَانَاتهم وَعَهْدِهِم رَاعُون ﴾.

والأمانة في العلم من أجمل ما يتزين به العالم ومن أحسن ما يتخلق به، فإذا كان العالم ذا أمانةٍ في علمه رأيته محترماً بين الناس يقبلون عليه للانتفاع به والاستفادة منه، وإن كثيراً من العلماء المحققين الموثوق بعلمهم وفضلهم إذا سئل أحدهم عن مسألةٍ في العلم ولم يحضره الجواب دفعه دينه ودفعته أمانته إلى أن يقول لسائله: لا أدري، لا يبالي بما يتركه جوابه من كلام الناس فيـه لأن دينه أعز عليه من أن يقول ما لا يعلم.

ومن المعروف أن رجلاً سأل الإمام الجليل مالك بن أنسٍ رضي الله عنه عن مسألةٍ وذكر له أنه أرسل فيها من مسيرة شهرٍ من الغرب فقال له الإمام: أخبر الذي أرسلك أنه لا علم لي بجوابها. وقال رضي الله عنه: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه قول لا أدري حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال لا أدري.

وعن أبي ميسرة قال: خرج علينا علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وهو يمسح بطنه ويقول ما أبردها على الكبد سئلت عما لا أعلم فقلت لا أعلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ﴾. ذكر الإمام القرطبي في تفسيره عن ابن جريجٍ وغيره أن هذا خطابٌ للنبي ﷺ في أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن أبي طلحة وابن عمه شيبة وكانا كافرين يوم فتح مكة فدخل ﷺ الكعبة فكسر ما كان فيها من الأوثان وخرج وهو يقرأ هذه الآية، فدعا عثمان وشيبة فقال: «خذاها، خالدةً لا ينزعها منكم إلا ظالمٌ».

وأجمع العلماء على أن الأمانات مردودة إلى أصحابها وأنها تكون في كل شيءٍ في الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والجنابة والكيل والوزن والودائع وفي سائر العبادات وفي العلم والمعاملة لأنها أصلٌ كبيرٌ من أصول الدين.

أدب الطعام والشراب

شرع الله الإسلام وجعل منه نظاماً كاملاً للحياة في سائر ألوانها وشتى نواحيها، ولم يترك عنصراً من عناصر الخير والصلاح إلا دل عليه وأمر به، والإنسان جسمٌ وروح، ولكلٍ منهما حظٌ ومتعةٌ ومتطلباتٌ لا بد منها، ولا تتحقق له السعادة إلا باستكمال حظه منهما، وقد عني الإسلام بتهذيب الروح ووجوب تحليها بالفضائل والخيرات ولكنه لم يهمل أمر الجسم فقد دعا إلى العناية به وحفظ صحته وأوجب التداوي من الأمراض التي تصيبه، وأباح له التمتع بالطيبات في المأكل والملبس والمسكن في حدود ما أحل الله من غير إفراطٍ ولا تفريطٍ ولم يترك الإسلام هذه الناحية من حياة المسلم مطلقةً من القيود، بل سن آداباً للنوم واليقظة، وللأكل والشرب، منها غسل اليد قبل الأكل لأنها لا تخلو من التلوث في تعاطي الأعمال ومنها أن يبدأ ببسم الله في أوله والحمد في آخره، ومنها تناول الطعام باليد اليمنى وتصغير اللقمة وتناول الطعام مما يليه أي من الطرف القريب منه، وأن لا يمسح يده بالخبز، وأن يتوقف عن الطعام قبل الشبع ويغسل يديه بعد الطعام، وأن لا يفعل فعلاً مخالفاً للآداب العامة مما يستقذره الذين يأكلون معه.

وعليه أن يتحرى الحلال في طعامه ويبتعد عن الشبهة، وأن ينوي في قلبه التقوى على طاعة الله. ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ملأ آدميٌ وعاءً شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيماتٌ يقمن صلبه فإن كان لا محالة فاعلاً فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه» أخرجه الترمذي وابن ماجه..

ويلاحظ أن الشبع يورث البلادة والكسل والنوم ويعوق الذهن عن التفكير السليم. وكان النبي ﷺ لا يذم مأكولاً ولا يعيب طعاماً وكان إذا أعجبه الطعام أكله وإن لم يعجبه تركه.

أما الشرب فالأدب فيه أن يشرب بيمينه وأن يقول بسم الله وأن يشربه مصاً ولا يعبه عباً وأن لا يشرب قائماً ولا يتنفس أثناء الشرب داخل الكأس. روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله».

وقد يعترض معترضٌ على هذه الآداب ظاناً أن الأكل والشرب من الأعمال الشخصية التي تتبع الذوق والعادة ولكننا نرد عليه بأن الإسلام نظامٌ كاملٌ يلازم المسلم في كل حالةٍ من حالاته ويريد منه أن يكون كاملاً فيها جميعاً وبالله التوفيق.

الإسلام دين النظافة

من العادات السيئة التي درج عليها بعض المصلين في المساجد إهمال أمر النظافة في أجسامهم وثيابهم، فترى كثيراً منهم يدخل المسجد بثيابٍ قد خالطتها الأوساخ ووجوهٍ وأقدامٍ علتها الأقذار، يصلي أحدهم إلى جانبك في بيتٍ من بيوت الله فيؤذيك بقذارته ورائحته مع أن إيذاء المسلم مما نهى الشارع عنه وأبواب المساجد مفتوحةٌ للمسلمين على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وهم مأمورون بإعطائها حقها، قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾، كان الرجل يطوف بالبيت عرياناً فمنعهم عن ذلك وأمر بستر العورة، ووردت كلمة الزينة مطلقةً عامةً وذلك أبلغ في رعاية الأدب في الصلاة.

ونحن نرى بعض الناس يهملون العناية بأبدانهم فمنهم من لا ينظف فمه بعد الأكل، ومنهم من لا يعتني بغسل يديه، ومنهم من لا يغتسل إلا قليلاً، مع أن الدين حث على النظافة وأمر المؤمن بالاغتسال للجمعة وتنقية البراجم وهي مفاصل الأصابع وقص الأظفار والسواك والتعطر والتطيب ونهى عن دخول المسجد لمن أكل الثوم، وربما أدى إهمال قص الأظافر إلى تراكم الوسخ تحتها فيمنع وصول الماء إلى ما تحتها من البشرة فلا يصح الوضوء ولا تصح الصلاة.

وكان النبي ﷺ أنظف الناس وأطيب الناس، وكان يكره أن يشم أحدٌ منه ريحاً ليست طيبةً، ورغب في قص الشارب وإزالة شعر الإبط كلما طال،

وحلق شعر العانة والعناية باللحية والأخذ من أطـرافها، وإن المضمضـة والاستنشاق مطلوبان عند الوضوء والغسل لأن الفم والأنف معرضان لتراكم الأوساخ عليهما وخروج الأبخرة الضارة المؤذية والسواك مطهرةٌ للفم مرضاةٌ للرب، قال تعالى: ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابين وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرينَ ﴾، وقال النبي ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»، وهكذا نرى أن الشريعة الغراء قد اعتنت بالطهارتين الظاهرة والباطنة ليكون المؤمن أقرب إلى الكمال في الحالتين.

فإذا كان الشارع الحكيم قد سن أنواع النظافة للمؤمن ولو كان وحده فما بالك بالمساجد وهي بيوت الله يجلس فيها المسلم إلى أخيه في الدين والعقيدة ويسره أن يراه نظيفاً مثله ويسوؤه أن يراه وسخاً في جسمه أو ثيابه، فيؤذيه بذلك.

أما الفراشون المكلفون بتنظيف المساجد فإنهم مؤاخذون بتقصيرهم وإهمالهم وقد أدى هذا التقصير إلى ترك بيوت الله على صورةٍ لا يرضى عنها المؤمنون الذين عرفوا وأدركوا أن النظافة من الإيمان.

المعاريض في القول

نقل عن السلف قولهم: (إن في المعاريض مندوحةً عن الكذب) والمعاريض هنا هي التعريض بكلامٍ يحاول قائله التخلص من شيءٍ، أو هو التلويح دون التصريح، فإذا اضطر الإنسان إلى الكذب في بعض المواقف الحرجة أداه في جملةٍ تعطي المعنى المقصود، ومثال ذلك ما فعله الإمام النخعي، كان إذا جاءه أحد الناس وهو لا يريد أن يجتمع به، يقول للجارية: اذهبي وقولي له إذا كنت تريد أن تراه فاطلبه في المسجد، عوضاً عن أن يقول له إنه ليس موجوداً في الدار، ومثالٌ آخر يروى عن بعض العلماء أن بعض الملوك طلب إليه مشاركته في تناول طعامه، ولم يكن العالم يرغب في أكل طعام الملك ولا يريد أن يصرح له بأن طعامه لا يؤكل فقال للملك: أصلحك الله إن الصائم لا يأكل، فقال كلاماً حقّاً وأخفى فطره لأنه لم يكن في الحقيقة صائماً ووصل إلى مقصوده من غير أن يكذب.

وقد يقع في نفس من يقرأ هذا الكلام، أن هذه الطريقة غير مستحبة لأنها فرارٌ عن التصريح بالحق بشجاعةٍ وجرأةٍ، وليس الأمر كذلك، ولكنه من باب ارتكاب أهون الشرين. والكلام في ظاهره ليس كذباً ولسنا مكلفين بالبحث عن نيَّة قائلة، وقد أجاز العلماء التعريض في حالات الضرورة إما لدفع ضررٍ عن القائل أو بقصد تطييب قلب غيره بالمزاح، كقوله ﷺ للعجوز: «لا يدخل الجنة عجوزٌ»، وكقوله لامرأةٍ أخرى حين سألته عن زوجها فقال لها: «زوجك الذي في عينه بياضٌ»، أو كما قال.

وقد ورد في هذا الباب عن النبي ﷺ حين اجتمع عنده أزواجه ذات يومٍ وقلن: يا رسول الله أيتنا أحب إليك؟ فوعدهن الغداة أي إنه أجل الجواب ثم أعطى لكل واحدةٍ منهن خاتماً من غير أن يعلم غيرها ثم قال لهن بالغداة اجتمعن فاجتمعن فقال صاحبة الخاتم أحب إليَّ. . .

وقد حرم الشارع الكذب لما فيه من الضرر على المخاطب وغيره، أما إذا تعلقت به مصلحةٌ فيكون مأذوناً فيه. . ويكون في بعض الأحيان واجباً كما إذا كان في الصدق سفك دمٍ امريءٍ قد اختفى من ظالمٍ ، فالكذب في هذه الحال واجبٌ. ومثل ذلك ما يكون في الحرب مع الأعداء أو في المصالحة بين المتخاصمين أو تعاشر الزوجين كما هو معروفٌ، لكنه في هذه الحالات كلها يجب أن يقتصر على حد الضرورة ولا يتجاوزها.

من آداب الزيارة

قال لي صاحبي: أتعرف فلاناً؟ قلت نعم إنه أستاذٌ فاضلٌ من أهل العلم والأدب. قال إن هذا العالم الأديب طردني بالأمس ولم يقبل أن أدخل داره.. فلم أكد أصدق ما ذكره لي صاحبي وأحببت التوثق من صحة الخبر فذهبت إلى ذلك الرجل وسألته عن حقيقة الأمر فأجابني ضاحكاً إنني لم أدخل صاحبك بيتي، هذا صحيحٌ، ولكنني لم أطرده كما يدعي. قلت كيف ذلك؟ قال إنه طرق عليَّ الباب وكنت منكباً على عملٍ ضروريٍ وعاجلٍ لا يحتمل التأجيل ففتحت له الباب ورحبت به واعتذرت عن استقباله موضحاً له أمري وطلبت إليه أن يزورني في وقتٍ آخر فذهب غاضباً مدعياً أني طردته وأنا لم أطرده ولم أخرج عن حدود الأدب الإسلامي فقد قال تعالى مخاطباً عباده المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيوتِكم حَتى تَسْتَأنِسُوا وَتُسلموا عَلى أَهْلِها ذَلِكُم خَيرٌ لَكُم لَعلَّكُم تَذَكَّرُون فإنْ لَمْ تَجدُوا فيها أَحَداً فَلا تَدْخُلوها حَتى يُؤذَن لَكُم وَإن قِيلَ لَكُم آرجِعُوا فَارجِعُوا هُوَ أَزْكَى لكم والله بِمَا تَعْمَلون عَلِيم﴾.

فلما سمعت منه هذا الجواب لم أجد في تصرفه خروجاً عن حدود الأدب الشرعي، لأن الضيف يستأذن فإن لم يأذن له صاحب البيت فإنه يكون قد استعمل حقه، وعلى الضيف في هذه الحال أن يرجع راضياً من غير أن يخالط نفسه شيءٌ من الغضب أو اللوم، وإنَّ السنة في الاستئذان أن يستأذن الرجل ثلاث مراتٍ يقول لأصحاب البيت السلام عليكم أأدخل؟ فإن أذن له

دخل وإن أمر بالرجوع انصرف، وإن سكتوا انصرف أيضاً، هكذا قال العلماء، وحديث عمر مع أبي موسى معروفٌ، قال عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما ما منعك أن تأتينا؟ فقال أبو موسى أتيت فسلمت على بابك ثلاث مراتٍ فلم ترد عليّ فرجعت وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»، ويلاحظ أن بيوتهم كانت تقرع بالأظافر.

قال العلماء إن عدم الإذن بعد الثلاث يفهم منه أن رب البيت لا يريد الإذن أو يمنعه عذرٌ لا يمكنه قطعه وإن للناس أحوالاً وحاجاتٍ يكرهون دخول أحدٍ عليهم فيها. قال رجلٌ من المهاجرين: أحب أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي ارجع فأرجع وأنا مغتبطٌ لأن الله سبحانه يقول هو أزكى لكم يعني أصلح لكم وأطهر لكم.. هذا هو أدب الإسلام وفيه عدلٌ وإنصافٌ. ومن حقك على أخيك أو صديقك أن تلتمس له عذراً ولا تعتب عليه وبالله التوفيق.

أدب الجدال

اعتاد الناس في مجالسهم أن يتناقشوا في أمورهم وأن يتجادلوا في شتى الموضوعات، ولكن بعضهم يجهل أسلوب النقاش وطريقة الجدال، فتراه يتكلم في المجلس معجباً بنفسه محاولاً إظهار مقدرته وبراعته لا يطلب الوصول إلى الحق ولكنه يطلب الغلبة ولو بالباطل. حتى إن بعض المتعلمين والمثقفين لا يتقيدون بأصول المناظرة العلمية الهادئة وكثيراً ما ترتفع أصواتهم ويقاطع بعضهم بعضاً دون أن يحاول فهم ما يقول زميله كي يحسن الرد عليه.

وقد عرف العلماء المجادلة بأنها دفع القول على طريق الحجة، فأنت تسمع ما يقوله خصمك وتستوعبه ثم تدفع قوله بحجةٍ علميةٍ منطقيةٍ مقبولةٍ. وفرقوا بين الجدل والجدال فقالوا إن الجدل في الدين محمودٌ لأنه يكشف ما غمض من أمور الدين ويظهر الأدلة العلمية التي تميز الحق من الباطل، أما الجدال فقد قالوا عنه إنه مذمومٌ لأنه يكون في الغالب لإظهار الباطل في صورة الحق، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلون ﴾ وفي هذه الآية أدبٌ حسنٌ علمه الله عباده في الرد على من جادل تعنتاً ومراءً ومعاندةً فمن واجبك أن تسكت عن جوابه وأن تمتنع عن مناظرته.

أما المراء فهو الجدال بالباطل. قال الإمام الغزالي رحمه الله: المراء طعنك في كلامٍ لإظهار خللٍ فيه لغير غرضٍ سوى تحقير قائله وإظهار مزيتك عليه. . وقال الإمام النووي رحمه الله: أعلم أن الجدال قد يكون بحقٍ وقد يكون بباطلٍ قال تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالتي هِي أَحْسَن ﴾ وقال تعالى:

﴿ مَا يُجَادِلُ في آياتِ اللهِ إلا الذينَ كَفَرُوا ﴾. قال: فإن كان الجدال للوقوف على الحق وتقريره كان محموداً وإن كان في مدافعة الحق أو كان جدالاً بغير علمٍ كان مذموماً. وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «ما ضل قومٌ بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدال»..

وعلى هذا فإننا ننصح القراء أن يتركوا المجادلة التي لا تؤدي إلى نتيجةٍ، ويجب على المسلم أن لا يجادل في مسألةٍ إلا بعد أن يدرسها ويمحصها ويعرف أدلتها ويطلع على حقيقتها كي يكون نقاشه مبنياً على علمٍ ومعرفة. وهذه هي الطريقة التي تفيد الناس وتكشف لهم وجه الحق، أما مجرد الكلام والصياح من غير علم ولا معرفةٍ فهو مذمومٌ لأنه من صفات الجاهلين. وإذا جادلت أخاك في مسألةٍ علميةٍ فيحسن بك أن تصغي إلى كلامه وتستوعبه وأن تتلطف في جوابه قاصداً معرفة وجه الحق ولا تتكلم معه بقصد إفحامه وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه، قال بلال بن سعدٍ: إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته.

الاعتراف بالحق

الاعتراف بالحق فضيلةٌ، ولكنه صعبٌ على النفس، لأن الإنسان معجبٌ برأيه، فليس من السهل عليه أنِ يتراجع عنه ولا أن يقر بخطئه، إلا إذا كان على مستوىً رفيعٍ من العلم والخلق، ونحن نرى كثيراً من الناس يتعصب أحدهم لرأيه ويرمي من يخالفه فيه بالجهل والخطأ ولا يقبل فيه جدالاً ولا نقاشاً، وليس هذا من الإنصاف في شيءٍ بل هو عنادٌ وجهلٌ وإصرارٌ على الخطأ، وإن النقاش الهادىء المبني على الروية والحكمة هو الطريق السليم الذي يؤدي إلى معرفة الحق وإلى التمييز بين الآراء الصائبة السليمة، والآراء المنحرفة الخاطئة.

وقد يسهل على المرء أن ينصف من هو أكبر منه سناً احتراماً لسنه، ولكن لا يسهل عليه أن ينصف قرينه لأن النفس مطبوعةٌ على التحاسد بين الزملاء والأقران، وأشد من ذلك صعوبةً أن ينصف المرء من هو أصغر منه سناً وأن يعترف له بصواب رأيه، مع أن الأدب الإسلامي يوجب على المؤمن أن يعترف بخطئه إذا ظهر له صواب الرأي المخالف ولو كان صاحب الرأي المخالف أقل منه علماً وأصغر منه سناً، وليس في ذلك غضاضةٌ على النفس بل هو فضيلةٌ كبرى.

ونحن نعرف قصة عمر رضي الله عنه في موضوع تحديد المهور حين قال وهو على المنبر: امرأةٌ أصابت ورجلٌ أخطأ، ولم ينقص هذا الكلام من قدر عمر بل زاده رفعةً وفضلاً، ويروى أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

تكلم في مسألةٍ فقال له أحد الحاضرين ليس الأمر كذلك يا أمير المؤمنين ولكنه كذا وكذا، ففكر عليٌّ قليلاً ثم قال: أصبتَ وأخطأتُ وفوق كل ذي علمٍ عليم.

وقد اقتدى بالصحابة كبار العلماء حتى إننا نرى الإمام الشافعي يقول: ما ناظرت أحداً على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحق على يديه. فالإمام رحمه الله لا يناظر ولا يناقش دفاعاً عن رأيٍ يراه بقصد التعصب لرأيه والتمسك به، ولكن قصده هو الوصول إلى الحق وثبوت الدليل. والإنصاف فضيلةٌ ترتفع بها أقدار الرجال، وتتسع بها دوائر العلوم وتظهر بها الآراء المختلفة والحجج المتفاوتة وينتظم بها شأن المجتمع، والعناد قبيحٌ في حد ذاته وهو في مجال العلم والبحث أشد قبحاً، ومتى كانت الحجة أكثر ظهوراً وأجلى بياناً كان العناد أقبح ، وليس أجمل من الإنصاف والاعتراف بالخطأ والرجوع إلى االصواب. وقد ذكروا أن مناظرةً جرت بين الإمامين مالك بن أنسٍ وأبي يوسف صاحب أبي حنيفة في مقدار الصاع الذي تؤدَّى به زكاة الفطر، فقال مالك: هو خمسة أرطالٍ وثلثٌ وقال أبو يوسف: هو ثمانية أرطالٍ، فاحتج عليه مالكٌ بالصاع الموجود في ذلك الحين عند أبناء الصحابة في المدينة فرجع أبو يوسف عن رأيه.

المبالغة في الثناء

اعتاد كثيرٌ من الناس أن يمدحوا أصحاب الجاه والمنزلة لما يرجون من النفع على أيديهم، فتؤدي بهم المبالغة في المدح والثناء إلى الكذب في سبيل المصلحة الشخصية، ويؤدي به إلى الرياء أيضاً لأنه يظهر بلسانه الحب ويضمر في نفسه بلوغ المنفعة، وقد يكون الممدوح متكبراً أو ظالماً وقد ورد النهي عن مدحه قال الحسن: من دعا لظالمٍ بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله في الأرض. وكان أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه إذا مدحه أحدٌ قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون.. يفهم من هذا أن الممدوح يجب أن يكون شديد الاحتراز عن الكبر والإعجاب بنفسه لأن كل نفسٍ يعجبها المدح فتطمئن له وتطرب عند سماعه، وعليه أن يقول في نفسه: لو علم هذا المادح مني ما أعلمه من نفسي من تفريطٍ وتقصيرٍ وذنوبٍ لامتنع عن مدحي..

وقد ورد النهي عن الإفراط في المدح والثناء، جاء في صحيح البخاري من حديث أبي بكرة أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجلاً خيراً. فقال النبي ﷺ: «ويحك قطعت عنق صاحبك إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك وحسيبه الله ولا يزكي على الله أحداً». ففي هذا الحديث نهي عن مدح الرجل بما ليس فيه، لأنه حينئذٍ تعجبه نفسه ويظن أنه فاضلٌ ومستقيمٌ فيقصر في الأعمال الصالحة يتكاسل عن الازدياد منها.

وقال ﷺ: «أحثوا في وجه المداحين التراب»، يعني (والله أعلم) الذين يمدحون الناس في وجوههم بالباطل يريدون بذلك الوصول إلى منفعةٍ شخصية أو كسب مادي.

فأما إن كان الرجل من الفضلاء الصالحين ومدحته بما فيه لا تطلب بذلك نفعاً. بل تقصد من ذلك أن يقتدي الناس به فذلك من الأعمال الحسنة ولا يدخل في باب النهي، وهذا راجعٌ إلى النية في القلب التي لا يطلع عليها إلا الله سبحانه وتعالى والله يعلم المفسد من المصلح.

ويجب على المادح قبل المدح أن يفكر في الأمز ويدرس حال الشخص الذي يريد أن يمدحه، وأن يتوثق من صلاحه كي يكون متكلماً عن خبرةٍ ومعرفةٍ، سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يثني على رجل فقال: هل سافرت معه؟ قال: لا، قال هل عاملته بالصفراء والبيضاء (يعني هل جربته في المعاملة والبيع والشراء)؟ قال لا. قال هل أنت جاره في الصباح والمساء؟ قال لا. قال عمر: فوالله الذي لا إله إلا هو، لا أراك تعرفه.

أدب النصيحة

إذا كان لك صديقٌ تحبه وتخلص له الود، فمن حقه عليك إذا عمل خيراً أن تمدحه وتثني عليه وتشجعه، ومن حقه عليك إذا عمل سوءاً أن تمنعه وأن تنصحه بتركه، فالصداقة موجودةٌ بين الناس منذ أقدم العصور، والأخوة قائمةٌ بين المؤمنين ولا غنىً لهم عنها لأنه قد ورد في الحديث الشريف أن المؤمن آلفٌ مألوفٌ ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. ومن أدب الصداقة والأخوة بين المؤمنين أن يتناصحوا أي أن ينصح بعضهم بعضاً وقد ورد أن من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه، فعليك أن تنصح صديقك وترشده إلى ما ينفعه في دنياه وآخرته، وإذا حاد عن نهج الصواب أو صدرت عنه خطيئةٌ أو مخالفةٌ فعليك أن تلفت نظره إلى الخطأ الذي صدر منه وأن تبين له مضرته وسوء عاقبته، أما إذا سكتَّ عنه في مثل هذه الحال فإنك تكون قد قصرت في حق الصداقة، وبعض الناس في هذا الزمن يتحدثون في آداب المجاملة ويقولون إن أصول اللياقة توجب عليك غض النظر عن أخطاء صديقك كي لا تفسد الصداقة بينكما، وهذا المبدأ غير مقبول لأنك إن سكت عنه فقد غششته وقصرت في حقه وشجعته على تكرار الخطأ، والصديق لا يغش صديقه.

ولكن ينبغي أن تنصحه سراً من غير أن يطلع على ذلك أحدٌ، لأن النصيحة أمام الناس تعتبر فضيحةً، وفي السر تعتبر شفقةً. قال ﷺ: «الدين النصيحة قلنا: لمن قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»، ويجب

على صديقك أن يتقبل نصيحتك بالسرور والرضا والشكر إذا جعلتها بينك وبينه ولم تعلنها للناس، روي عن عبد الله بن المبارك أنه قال: كان الرجل إذا رأى من أخيه ما يكره أمره في سترٍ، ونهاه في ستر، فيؤجر في نهيه ويؤجر في ستره، فأما اليوم ـ أي في زمن ابن المبارك ـ فإذا رأى أحدٌ من أحدٍ ما يكره استغضب أخاه وهتك ستره. وروي عن سفيان أن طلحة جاء إلى أحد إخوانه وعنده قومٌ فسارَّه بشيءٍ أي كلمه سراً ببعض الكلمات ثم انصرف.. قال الصديق: أتدرون ما قال لي؟ قال لي رأيتك التفت أمس وأنت تصلّي..

وهذه هي النصيحة الحسنة المقبولة التي تدل على الأدب وعلى الإخلاص في المودة، لأن من وعظ، أخاه علانيةً فقد فضحه وشانه ومن وعظه سراً فقد نفعه وزانه، وليس المقصود هو التوبيخ ولكن المقصود هو الإرشاد والتنبيه..

فِي المعَامَلَات

نعمة الإيمان

حدثني أحد القادمين من بلاد الغرب أن بعض المثقفين في سويسرة أنشأوا جمعيةً أطلقوا عليها اسم جمعية (التسلح الخلقي) قصدوا بها تغيير المجتمع عن طريق تغيير أفراده، وإنشاء مجتمعٍ جديدٍ يتسلح كل فردٍ فيه بمبادىء خلقيةٍ يأخذ نفسه بها بعزيمةٍ وهمةٍ من غير ضعفٍ ولا تساهلٍ، ومن جملة هذه المبادىء الاتجاه إلى الله والإصغاء إلى أوامره وطاعته وأن يحاسب المرء نفسه كلما أذنب ذنباً مصمماً على تجنب الرذائل.

فقلت له: الحمد لله على دين الإسلام فهو نعمةٌ كبرى أنعم الله بها علينا، وأنقذتنا من الشرور والمهالك، إن القوم هناك يعيشون في جوٍّ ماديٍّ صاخبٍ يتسابقون إلى طلب المال والمنافع المادية بنفوسٍ متعطشةٍ إليهما دون مراعاةٍ لرادعٍ من ضمير أو خلق أو وجدان وفقدوا المشاعر الروحية فهم لا يعرفون عنها شيئاً، وانتبه عقلاؤهم والمفكرون فيهم إلى هذا الحظر الداهم وأخذوا يدعون قومهم وبني جلدتهم إلى وقف هذا التسابق المجنون في أمور الدنيا وإعطاء النفس بعض حظها من التوجيه الروحي.

أما المسلم فهو بعيدٌ عن هذا البلاء الطاغي، وهو في نعمةٍ كبرى كما ذكرنا لأن الإيمان بالقضاء والقدر يملأ جوانحه، وإن الرضا بما كتبه الله له أو عليه يبعث في نفسه الطمأنينة ويشيع فيها السكينة وهو يعمل الخير طلباً للثواب من الله لا يطلب به جاهاً ولا منصباً ولا نفعاً مادياً وهو يجتنب الشر خوفاً من عقاب الله لا خوفاً من سلطة النظام وأحكام القانون وهو يكبح جماح

نفسه فيبتعد عن الملذات والشهوات بقوة الصبر ودافع الإيمان وهو في صراعٍ دائـمٍ مع نفسه الأمارة بالسوء يغلبها مرةً وتغلبه أخرى، فإذا غلبها شكر الله سبحانه الذي وفقه إلى ذلك، وإن غلبته ندم وتاب واستغفر فكان من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم، والمسلم لا ينسى نصيبه من الدنيا فهو يبذل جهده في السعي والعمل والأخذ بأسباب المعاش، ولكن الإيمان بالله يبقى ملازماً له في كل تصرفاته، فلا يقبل أن تكون حياته في السوق أو في المعمل أو في الوظيفة ذات صبغة مادية دنيوية، لأنه يعلم أن الدين المعاملة وأن أوامر الشرع تلازمه في سائر حالاته وتقيده وتمنعه عن الانجراف في تيار المادة ويتخذ شعاراً له في حياته الحكمة القائلة: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، ومن راقب الله سبحانه في أعماله وتصرفاته يعلم أنه محاسبٌ عليها في الآخرة يوم الامتحان الأكبر فيبقى بين الخوف والرجاء ويحاسب نفسه قبل أن يقدم على ربه أفليس هذا الإيمان نعمةً من الله، ولقد قال أحد الزهاد: لو عرف الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

الأدب مع الصحابة

التاريخ الإسلامي تاريخٌ ناصعٌ مشرقٌ وهو مفخرةٌ على مر الزمان ودرة على جبين الدهر، ولا يدانيه تاريخ أمةٍ من الأمم في قديم الزمان وحديثه، ومع ذلك فقد وقعت فيه بعض الحوادث التي تلقي بعض الظلال القاتمة على إشراقه، بدأت بعد وفاة النبي ﷺ، حيث ظهرت بعض الخلافات في وجهات النظر بين بعض الصحابة أدت إلى وقوع بعض الحروب مثل وقعة صفين ووقعة الجمل ويوم الحرة وأمثالها، والطالب المسلم يمر بها في بعض مراحل حياته الدرسية ونحن نريد أن نلفت نظر المعلم أو المدرس إلى وجوب التزام جانب اليقظة والحكمة والحذر عند عرض هذه الوقائع على طلابه، فالصحابة رضي الله عنهم شموسٌ لامعةٌ براقةٌ أشرقت في تاريخ الإنسانية فغمرته بالنور، وهي شموسٌ تتفاوت أقدارها وتتباين في أنواع فضائلها ولكنها تبقى دائماً في أعلى درجات الفضل وفي ذروة العز والمجد، ولو ميز المشتغلون بتاريخ الإسلام بين الأصيل والدخيل من الحوادث التي وقعت بين الصحابة لأخذتهم الدهشة لما اخترعه أعداء الإسلام من يهودٍ ومجوسٍ ومنافقين وملحدين وحاقدين من أخبارٍ ملفقةٍ كاذبةٍ ألصقوها بالصحابة الكرام ظلماً وعدواناً وكيداً فصورت أخبارهم الوضع على غير حقيقته وأدخلت التشويه على الصورة الحقيقية الناصعة للصحابة رضي الله عنهم الذين يعتبرون بحقٍ سادة البشر وخلاصة الإنسانية كيف لا، وهم تلامذة أشرف المخلوقين وسيد المرسلين ﷺ.

إننا نهيب بإخواننا المدرسين وأبنائنا الطلبة أن يميزوا الغث من السمين في الأمور التي وقعت بين الصحابة الكرام، وأن لا يتوسعوا بها وأن لا يتسرعوا بإعطاء الأحكام على أحد الطرفين، ويجب أن يعتقدوا أنهم كلهم على الحق، وهم غير معصومين عن الخطأ ولكنهم اجتهدوا، وللمجتهد أجرٌ إن أخطأ وأجران إن أصاب، ونحن نقول كما قال علماؤنا: تلك دماءٌ طهر الله سيوفنا منها فلا نتعرض للحكم فيها، وقد قال تعالى في الصحابة الكرام: ﴿كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ﴾، وقال فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِين والأَنْصَارِ والَذين اَتَّبَعُوهم بإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهم وَرَضُوا عَنْه﴾، وورد في حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»، وفي حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحدٍ ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه». قال الإمام أبو زرعة رحمه الله: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديقٌ.

الرفق بالحيوان

كثيراً ما نقرأ في الصحف عن التجارب التي يجريها علماء الغرب على الفئران والجرذان والأرانب وغيرها من الحيوانات في حقول الطب لمعرفة الأثر الذي تتركه الأدوية والعلاجات الطبية في أجسام المخلوقات، فيحبسون الحيوانات ويمنعون عنها الطعام أو الشراب ويحقنونها بالسم ويحولون بينها وبين الحركة أو التنفس أو النوم، وقد يفقؤون أعينها أو يزيلون أكبادها أو قلوبها ليعرفوا الآثار التي تتركها هذه التصرفات في أجسامها، ويدعي هؤلاء الباحثون أنهم إنما يفعلون ذلك لخدمة الإنسانية وتقديم العون إلى البشرية، ولسنا الآن في مجال النقاش معهم وإن كنا نرى أن الوصول إلى الخير لا يصح أن يتم عن سلوك طريق الشر.

ومنهم من يدخل مع الثيران في صراعٍ مريرٍ يفقد المصارع صفة الإنسانية فلا يتورع عن إنزال الطعنات والجراحات بهذا الحيوان الأعجم لتمضية ساعةٍ من التسلية واللهو البريء المباح بنظره.

ومنهم من يجعل بعض الحيوانات هدفاً لسهامه ويذيقها أنواع العذاب وضروب الآلام في سبيل تعلم الرماية وهي غايةٌ شريفةٌ في نظره تبرر الواسطة التي يسلكها لبلوغها.

ويذكرنا هذا العمل بعبدالله بن عمر رضي الله عنه حين مر بصبيان من قريشٍ قد نصبوا طيراً وهم يرمونه ليعرفوا المخطىء من المصيب، فلما رأوا

ابن عمر تفرقوا فقال: لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً، أي هدفاً، ونهى أن تصبر البهائم، يعني أن تحبس للقتل، رواه مسلمٌ في صحيحه. وورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ رأى امرأةً معلقةً في النار والهرة تخدشها في وجهها وصدرها وهي تعذبها كما عذبتها في الدنيا بالحبس والجوع.

وذكر العلماء أن هذا عامٌّ في سائر الحيوان فلا يجوز أن يضرب الدابة ضرباً وجيعاً، ولا أن يحبسها من غير أن يلاحظها ويطعمها ما يكفيها، وليس له أن يحملها فوق طاقتها، فإن فعل شيئاً من ذلك اقتصت منه يوم القيامة بقدر ما ظلمها أو جَوَّعَها، ويكره صيد الطير أمام فراخه وذبح الحيوان بحضور أمه، ويكره قتل الحيوان عبثاً أو لهواً من غير منفعةٍ وقد ورد في الأثر أن من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة وقال: يا رب سل هذا لم قتلني عبثاً ولم يقتلني لمنفعةٍ؟.

أما الحيوانات المفترسة أو السامة أو المؤذية كالحية والعقرب والفأرة والكلب العقور وما أشبهها فقد أذن الشرع بقتلها قتلاً شرعياً أي دفعةً واحدة من غير تعذيب، والحديث في هذا معروفٌ وهو قوله ﷺ: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

حسن الظن بالله

يعيش المؤمن بين الخوف والرجاء، يذكر ما أعده الله سبحانه للعصاة من أنواع العذاب فيجزع ويخاف ويذكر ما أعده لعباده المتقين من الثواب والنعيم فيستبشر ويفرح، وقد وردت أحاديث في الترهيب والتخويف والوعيد ووردت إلى جانبها أحاديث أخرى في سعة رحمة الله وعفوه ومغفرته منها ما أورده الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً». وهذا الحديث من الأحاديث المبشرة الدالة على عفو الله ورحمته، ومَن سَمِعَه امتلأ قلبه رضىً واطمئناناً، وفرح واستبشر ومهما خاف المؤمن من ذنبه فإنه يبقى حسن الظن بربه راجياً غفرانه وعفوه.

فإذا ذكر العبد ربه ذكره الله سبحانه، وقد ورد أن كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمراً بمعروفٍ أو نهياً عن منكر أو ذكر الله عزّ وجلّ لأن اللسان ترجمان القلب، قال بعض السلف: ما تكلمت بكلمةٍ لم أتدبرها إلا ندمت عليها إلا ذكر الله تعالى وهذا مقتبسٌ من قوله تعالى: ﴿ لا خَيْرَ في كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُم إلّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أو إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاس ﴾.

وكما يكون ذكر الله باللسان فإنه يكون بالأعمال أيضاً، والثاني أفضل

من الأول، ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: إن ذكر الله عند أمره ونهيه خيرٌ من ذكره باللسان، ومن المعروف أن ذكر الله باللسان يجب أن تصدقه الأعمال كي يكون ذكراً بالمعنى الصحيح قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ والذين هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُون ﴾، وكان النبي ﷺ يدعو ويقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»، فإذا اقترن ذكر الله سبحانه بالعمل الصالح كان هو الذكر المطلوب المقبول الذي دل عليه الحديث، قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب﴾ وهذه القلوب المطمئنَّة هي التي مَنَّ الله سبحانه عليها بالإيمان الصادق والعلم النافع والعمل المخلص مع حضور القلب لأن صاحب القلب الغافل لا يعتبر من الذاكرين المخلصين، وقد ورد في الأثر: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»، وورد في آخر الحديث: «وإن تقرَّب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً»، يعني أن العبد إذا تقرب إلى ربه بطاعةٍ قليلةٍ كانت مكافأته عند الله كبيرةً، وكلما ازدادت طاعته عظم عند الله ثوابه نسأل الله أن يوفقنا للخير.

من وسائل الدعوة

كلما دخلت دكان الحلاق وجلست على إحدى الأرائك أنتظر دوري، وقع نظري على هذه المجلات المصورة الموضوعة على المناضد تغري الناس بصورها الملونة كأنها تقول لهم خذوني، ورأيت الزبائن كلما دخل واحدٌ منهم وجلس في مكانه امتدت يده بحركةٍ غير شعوريةٍ إلى واحدةٍ منها يقلب صفحاتها بين يديه يتسلى بها ويمضي بها الوقت ويطرد عن نفسه بها ملل الانتظار..

وأنا أمقت هذه المجلات التي تجمع بين دفتيها كلاماً غثاً سخيفاً ليس له معنىً ولا طعم كلامٌ كأنه مضغ الخرق، موضوعاتٌ تافهةٌ وأخبارٌ هزيلةٌ في أسلوبٍ مهلهل لا يمت للعربية بصلةٍ، وفيها الشيء الكثير من أخبار السياسة المعقدة وتراجم شخصيات الغناء والتمثيل من الجنسين وأخبار المجتمعات الليلية التي تولى عقدها إبليس بأساليبه الماكرة، هذا إلى جانب صور النساء أنصاف العاريات.

جلست في مكاني عند الحلاق أفكر في هذا الأمر، ووجدت أن الكلام وحده لا يفيد فلطالما كتب الكتابون وخطب المرشدون ولم يسمع منهم إلا القليل، وهداني تفكيري إلى طريقةٍ ظننتها ذات فائدةٍ، فأسرعت إلى إحدى المكتبات واشتريت مجموعةً من قصص الأنبياء وهي رسائل صغيرةٌ زاهية اللون تعرض كل رسالةٍ منها حياة نبي من الأنبياء بأسلوب مبسطٍ واضحٍ، واشتريت مجموعةً أخرى من سير الصحابة والتابعين وهي على نمط الأولى

مطبوعةٌ في مصر، وبعض رسائل صغيرةٍ عنوانها حكايات من التاريخ الإسلامي لأحد الكتاب المعروفين، ورجعت إلى صاحبي الحلاق وقدمتها هديةً إليه واقترحت عرضها على الزبائن إلى جانب المجلات، ونفذ الرجل طلبي.

وانقضت أيامٌ رجعت إليه بعدها فذكر لي أن التجربة قد نجحت وأن كثيراً من الزبائن أقبلوا على قراءة هذا الشيء الجديد واطمأنت نفوسهم إليه وشعروا بالمتعة والفائدة وكثر إقبالهم عليه وأعرضوا عن تلك المجلات التي تشبه السم الذي يقدم للزبائن في إناءٍ من الفضة.

وأنا أعلم أن فطرة الخير مغروسةٌ في كل نفسٍ وأنها بحاجةٍ إلى من يوقظها من رقدتها بأسلوبٍ عمليٍّ سهل المنال بعيدٍ عن التعقيد، والمسلمون إلى خير وهم ينتظرون من يدلهم على الطريق، وما الذي يمنع إخواننا الأطباء والصيادلة والمحلات التجارية والشركات من أن تعرض في الصالات المعدة لجلوس الزبائن كتباً إسلاميةً وخاصةً في التاريخ والسيرة والتراجم ونشراتٍ صغيرةً سهلة الفهم؟.

ربما ظن بعضهم عدم فائدتها أو عدم إقبال الزبائن عليها، ولكنني أدعوهم إلى تنفيذ هذه التجربة فلعلها تنجح عند بعضهم فيشترك الطرفان في الثواب إن شاء الله تعالى.

الاعتدال في الإنفاق

إن الله سبحانه جعل المال وسيلةً للعيش ولم يجعله غايةً في نفسه، فالواحد منا ينفق المال الموجود في يده على نفسه وعلى عياله، وعلى ما يحتاج إليه في بيته من متطلبات الحياة، ومن هذه المتطلبات ما هو من ضروريات العيش كالطعام والشراب واللباس، ومنها ما هو زائدٌ عن الضرورة ويدخل في باب الكماليات التي يصعب تحديدها بسبب اختلاف النظر إليها بين زمنٍ وآخر..

ولنضرب على ذلك مثلاً الغسالة الكهربائية والثلاجة وموقد الغاز والمكواة والمروحة والمكيف والسيارة، فهذه كلها من مستحدثات العصر الحديث ولم يكن أجدادنا يعرفون شيئاً منها ولو أنهم عرفوها لعدوها من الكماليات التي تمكن الحياة بدونها، ولكن كثيراً منا الآن يدخلها في باب الضروريات، ويلاحظ أن الحدود بين الضروري والكمالي حدودٌ غير واضحةٍ نستطيع أن نضيقها وأن نوسعها حسب نظرة كل واحدٍ منا إلى الحياة.

ولو أننا نظرنا إلى الموضوع بمنظار الإسلام لوجدنا أن الاقتصار على ضرورات العيش بحسب العرف العام لكل عصرٍ وزمانٍ هو الأصل في إنفاق المال، وأن التوسع فيما هو وراء ذلك، مما يسمى ترفاً وسرفاً أمرٌ يكرهه الإسلام وينهى عنه، فمن المقبول أن يعيش أحدنا حياةً متوسطةً لا يغل يده فيها إلى عنقه فيحرم نفسه وأهله مما هو ضروريٌ له ولهم، ولا يبسطها كل البسط فيشتري ما يمكن الاستغناء عنه، وليس من المستحسن أن يتسابق

الناس في شراء الثريات الفاخرة والسيارات الفخمة والمكانس الكهربائية لأن ذلك يدخل في باب السرف في عرف هذا العصر.

وقد كان أجدادنا يدعون المسلمين إلى التحرر من الكماليات. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لهم: اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم، لأن الإنسان إذا ركن إلى الهدوء والراحة واعتاد حياة الرفاه لم يعد يستطيع مواجهة مصائب الحياة ولا تحمل متاعبها، ولو أن نور الكهرباء انقطع عن الواحد منا اليوم أو أصاب ثلاجته خللٌ فتعطلت أو لم يجد غازاً لموقده أو توقف المكيف عن العمل لضاق صدره وركبه الهم واسودت الدنيا في وجهه ذلك لأننا اعتدنا نمط هذه الحياة فلم نعد نحتمل الخلل الذي يعترض خط سيرها، ونحن اليوم مدعوون إلى قتال أعدائنا ولكننا نحس من أنفسنا صعوبةً في تلبية النداء لأنها ألفت الراحة وركنت إلى الدعة، وقد قيل للحسن: ما بالنا نحب الحياة ونكره الموت فقال لأنكم عمرتم دنياكم بخراب آخرتكم فأنتم تكرهون الانتقال من العمران إلى الخراب.

الرفق في المعاملة

كان الناس على عهد رسول الله ﷺ فئتين: فئة أصحابه وأتباعه من المسلمين وفئة أعدائه من المخالفين والمناوئين، وكانت تشمل الفئة الأولى المسلمين والمنافقين، وكانت الفئة الثانية تشمل الأعداء المسالمين والأعداء المحاربين المقاتلين، فهذه في الجملة أربع طوائف.

أما الطائفة الأولى من المسلمين المهتدين الصالحين فكان النبي ﷺ يلاقيهم بالبشر والإيناس ويخالطهم في تواضعٍ ويحمل لهم في طيات فؤاده الرحمة والعطف والحنان.

ورد في الحديث الصحيح عن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه أنه قال ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم. وقال أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً وإن كان ليخالطنا حتى يقول لأخٍ لي صغيرٍ: «يا أبا عمير ما فعل النُّغير؟»، أي ما فعل الطير الذي كان معك؟ ووصفه الله سبحانه بالرحمة في قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيْكُم بالمُؤمِنينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

أما الطائفة الثانية وهي طائفة المنافقين فكان عليه الصلاة والسلام يعاملهم بالرفق والإحسان إليهم ويقابل إساءتهم بالعفو، وهمَّ بعضهم بقتله حين كان راجعاً من غزوة تبوكٍ فخاب سعيهم حين جاءه الوحي بأمرهم فقال بعض المسلمين ألا تأمر بهم يا رسول الله فنضرب أعناقهم؟ فكان جوابه: «أكره أن يقول الناس إن محمداً قد وضع يده في أصحابه».

أما المخالفون المسالمون فقد كان يلقاهم بالجميل ويقسط إليهم يأخذ فيهم بأدب القرآن، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ ٱللهُ عَنْ ٱلذين لَمْ يُقَاتِلُوكُم فِي الدِّين وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِنْ دِيَارِكُم أَنْ تَبَرُّوهُم وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِم إِنَّ اللهَ يُحِبُّ ٱلمُقْسِطِين﴾، وكان المخالفون الذين دخلوا معه في عهدٍ أو سالموه يلقون من حسن معاملته ما يشهد بسماحة الإسلام، وكان غلامٌ يهوديٌّ يخدمه فمرض الغلام فجاءه النبي ﷺ يعوده ودعاه إلى الإسلام فأجاب الدعوة ومات مسلماً.

أما المخالفون المحاربون فكان يعاملهم بالاحتراس والحزم، ويرفق بهم إن كفوا عنه ويعاملهم بالعزم والقوة إن طغوا وبغوا وتمردوا، وقد أذن عليه الصلاة والسلام بقتل كعب بن الأشرف لأنه كان شاعراً سليط اللسان وكان يهجو رسول الله ويحرض عليه كفار قريشٍ، وكان شعره على المسلمين أشد من السهام النافذة وكان فوق ذلك يشبب بنساء المسلمين، فاحتمل عليه السلام الأذى منه حيناً ولما أبى أن يرتدع عن غيه أمر بقتله لدفع شره عن المسلمين.

الطمع والغش في التجارة

ينبغي أن يقنع التاجر بما قسمه الله له من الرزق، وعليه أن يسلك سبيل الاستقامة وحسن المعاملة مكتفياً بالربح الحلال القليل، وليعلم أن التجارة لم تشرع لأخذ أموال الناس بالطرق الملتوية، ولكنها شرعت ليستطيع التاجر أن يؤمن النفقات التي تتطلبها حياته ليحيا في قومه حياةً كريمةً وليعيش في غنىً عما في أيدي الناس، وهو مأمورٌ بأن ييسر للناس أمور معايشهم فليس كل واحدٍ مستطيعاً أن يجلب ما يحتاجه من البضائع من أماكنها البعيدة، فالتاجر يجلبها ويضعها في أيدي الناس تيسيراً لأمورهم وتسهيلاً لمصالحهم.

والمطلوب منه أن يستوفي من المشترين حقه مع الربح المعتدل من غير أن يتعداه إلى شيءٍ من حقوق غيره ومن غير أن تمتد يده إلى أموال الناس بدافع الطمع، ولا بأس بالمماكسة التي تقع بين البائع والمشتري والمناقشة في مقدار الثمن شريطة أن تبقى في حدودها المعقولة دون شططٍ من أحد الطرفين، ومن الناس من تطيب نفسه بأن يترك شيئاً من حقه للمشتري على سبيل المكارمة خاصةً في مبايعات الفقراء وهذا خلقٌ نبيلٌ يمدح عليه صاحبه، استلف عبد الله بن عمر من رجلٍ دراهم ثم قضاه دراهم خيراً منها فقال له الرجل: يا أبا عبد الرحمن هذه خيرٌ من دراهمي التي أسلفتك، فقال ابن عمر: قد علمت ولكن نفسي بذلك طيبةٌ.

هذه هي المعاملة الطيبة التي تأتلف وروح الإسلام أما الطمع والغش فهما بعيدان عنها، وإنك لترى فئةً من التجار والبائعين ترضى لهم نفوسهم

الطماعة أن يبخسوا الناس حقوقهم وأن يأخذوا أموالهم عن طريق الكذب والغش والخداع، وهؤلاء قومٌ قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوةً. وبسبب شناعة الغش والجشع في المعاملات عنيت الشريعة بمكافحتهما فقد ورد في الحديث الشريف: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»، وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «من غشنا فليس منا»، وفي روايةٍ أخرى : «من غش فليس منا».

والغش يكون في مواضع كثيرةٍ فيكون بنقص الكيل في المبيع، ويكون بنقص الوزن، قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾، ويلحق بذلك النقص فيما يباع بالذراع والمتر كالأقمشة والثياب. ويكون الغش أيضاً بأن يكتم البائع العيب في الشيء الذي يبيعه ولا يذكره للمشتري، ويكون الغش بخلط الجيد بالرديء ثم يبيعه على أنه جيدٌ، وغالباً ما يكون ذلك في أنواع الطعام، ويكون الغش أيضاً عندما يدعي البائع أن البضاعة من صنفٍ أعلى من حقيقتها ويؤكد لك ذلك، وأمثال هؤلاء الناس إذا عرفهم الناس تركوا معاملتهم وانصرفوا عنهم وبذلك يلاقون جزاءهم في الدنيا قبل الآخرة.

مكافحة الغش

توجد في المملكة العربية السعودية لجنة تسمى (لجنة مكافحة الغش) تطوف على الحوانيت التجارية وعلى الذين يبيعون أنواع الأطعمة والأشربة ويقومون بفحصها لمعرفة الفاسد فيها من الصالح، فيأخذون ما تبين فيه الفساد أو ظهر فيه الغش فيتلفونه ويعاقبون صاحبه.

وهذا عمل جميل ونافع ومفيد لأنه من باب الحفاظ على المصالح العامة الذي أمرت به الشريعة. ورد في صحيح الإمام مسلم أن النبي ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام»؟ فقال: أصابته السماء يا رسول الله قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس منا». . وكان الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده يتولون أمر السوق أو يكلون أمره إلى موظفين مكلفين بمراقبته تطبيقاً لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله وظائف المحتسب وأشار إلى ما يدخل في باب تطفيف المكيال والميزان والغش في الصناعات والبياعات والديانات وقال إن الغش يدخل في البيوع بكتمان العيوب وتدليس السلع مثل أن يكون ظاهر المبيع خيراً من باطنه، كالرجل الذي مرّ به النبي ﷺ وأنكر عليه، ويدخل الغش أيضاً في الصناعات وذكر ابن تيمية مثالاً عليهم الذين يصنعون المطعومات من الخبز والطبخ والشواء، أو يصنعون الملبوسات كالنساجين والخياطين ونحوهم أو يصنعون غير ذلك من الصناعات فيجب نهيهم عن

الغش والخيانة والكتمان، ثم يقول بعد ذلك ومن هؤلاء الكيماوية الذين يغشون النقود والجواهر والعطر وغير ذلك فيصنعون ذهباً أو فضة أو عنبراً أو مسكاً أو جواهر أو زعفراناً أو ماء ورد أو غير ذلك.

هذا ما قاله الإمام رحمه الله ولكننا لو نظرنا الآن في الموضوع لوجدنا دائرة الغش قد اتسعت وأصبحت تشمل أشياء أخرى ظهرت في هذه العصور ووجب أن تنالها يد المكافحة من غير رحمة ولا هوادة. ألا ترى معي أيها القارىء الكريم أن الغش في بعض البلاد قد دخل إلى العقول والأفكار عن طريق المذاهب الضالة والعقائد المنحرفة فأصبح القوم هناك في بلادهم يدخلون في عقول النشء ما يشاؤون من أفكار وضعوها لهم وهم يحاولون تثبيتها وإرساخها في عقولهم لأن من شب على شيء شاب عليه، ونحن نرى من واجب المسلم اليوم الامتناع عن قراءة كتب القوم والدعوة إلى منع تداولها ومصادرة كل كتاب منها، كما أن الروايات الخليعة والقصص الماجنة سم يقتل النفوس البريئة ويودي بها في مهاوى الفساد... إننا نواجه اليوم أعنف هجوم على الإسلام، ونقابل حرباً تخطط لها عقول كبيرة شريرة وتنفق عليها الأموال الطائلة، إن العدو يريد أن يدخل مدارسنا ودواويننا وبيوتنا ومجتمعاتنا فلنكن حذرين ولنقاومه بكل ما أوتينا من قوة.

وطأة الدين

من أصعب الأشياء على النفس أن يكون عليك دينٌ يجب عليك وفاؤه في آخر الشهر، فأنت لا تزال تفكر فيه وفي طريقة أدائه وفي تنظيم موازنة البيت بعد وفائه، وقد يكون واردك قليلاً لا يكفي لمصروف الشهر، فتحس بأن هذا الدين كالقيد في يدك أو كالغل في عنقك لا تستطيع أن تتخلص منه ولا تعرف كيف تعيش بعد الخلاص منه، ولذلك ورد في الأثر: أن الدين همٌّ بالليل ومذلةٌ بالنهار وقال علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: قد حملت الأحجار والصخور فما وجدت أثقل من الدين.

ومن الخير للإنسان أن يحتمل شظف العيش ويصبر على الفقر والضيق ولا يفكر بالاستدانة من أحدٍ إلا في حالات الضرورة القصوى، ومن الملاحظ أنك حين تستدين ويصبح المال في يدك تفرح وتشعر بالسعادة والراحة، ولكن حين تنفقه ويحين وقت وفائه تشعر بالصعوبة البالغة والحرج الشديد لأنك مجبرٌ على إعادة المال والعيش في كفافٍ مرةً أخرى فتندم على ما فعلت وتتمنى لو أنك لم تطلب الدين من أحدٍ.

والدين داءٌ ثقيلٌ لا يبرأ منه إلا من عصمه الله من مرض التبذير والإسراف، ويورث الذل والمهانة لأن المدين يحاول أن يبتعد عن وجه الدائن ولا يلتقي به، فإذا اجتمع به شعر بالحرج والمهانة واضطر إلى الكذب واختلاق الأعذار في تأخره بوفاء الدين، وقد استعاذ النبي ﷺ من المأثم والمغرم، والمأثم هو الذنب والمغرم هو الغرامة أي الدين، فقال له قائلٌ: ما

أكثر ما تستعيذ يا رسول الله من المغرم فقال: «إن الرجل إذا غرم ـ أي إذا كان عليه دينٌ ـ حدث فكذب ووعد فأخلف». هذا إذا استدان لأمرٍ غير ضروريٍّ أو شيءٍ يمكن الاستغناء عنه، أما الاستدانة لحاجةٍ ماسةٍ ولضرورةٍ ملحة ولأمرٍ لا يمكن تأجيله ولا الصبر عنه كالمرض والولادة والفقر المدقع، فلا يستعاذ منه ولا يستغني عنه الإنسان في بعض مراحل حياته التي يتناوبه فيها العسر واليسر، لأن الناس يحتاج بعضهم لبعضٍ ولا غنىً لأحدهم عن الآخر.

ولكن الواجب على المستدين أن يعزم في قلبه على وفاء الدين في وقته المحدد له أو في أقرب فرصةٍ ممكنةٍ وقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله».. يعني أنه إذا عزم على أدائها فتح الله له باباً من الرزق لم يكن يحتسبه مكافأةً له على نيته الصالحة، أما إذا كان بخلاف ذلك فإن الله سبحانه يوقعه في خبث نيته ويسد في وجهه أبواب الرزق.

دواء الهجران

أعرف صديقين كانا متحابين متصافيين تربط بينهما أواصر الود وتجمعهما الألفة والمحبة وقع بينهما خلافٌ على بعض الأمور يقع مثله بين الإخوان، ويزول في العادة بحسن النية بين الطرفين ولكن الشيطان وجد الفرصة سانحةً للعمل فأفسد الذي بينهما، فأعرض كلٌ منهما عن صاحبه وأشاح عنه بوجهه، وانقطعت رابطة الصحبة والمودة.

ومضى الزمن في مسيرته، وتوالت الأيام متعاقبةً إلى أن جاء يومٌ كان أحدهما يؤدي فيه صلاة الجمعة في المسجد فسمع الخطيب يتحدث عن التقاطع والتهاجر بين المؤمنين وما ورد من النهي عن ذلك وتيقظت في نفسه روح الإيمان وعاطفة الأخوة وفكر قليلاً ثم عزم على أمرٍ أحب أن يسرع إلى تنفيذه قبل أن يغلبه الشيطان فذهب إلى بيت صديقه القديم وطرق الباب بيدٍ قويةٍ ثابتةٍ، وانتظر قليلاً حتى فتح له صديقه فبادره بالسلام قائلاً له جئت أصالحك، وبهت الصديق لهذه المفاجأة ولما رأى الابتسامة تعلو وجهه أذن له بالدخول، وتعاتب الصديقان ثم ذكرا أيام المودة والأخوة فتصافيا وعادا إلى ما كانا عليه من الصداقة.

ولو أن كل واحدٍ من الأصدقاء المختلفين صنع ما صنع هذا الرجل لذهب الخلاف وعاد الائتلاف ولا يحتاج الأمر في حقيقته إلى أكثر من إيمانٍ، وزيارةٍ كريمةٍ واعتذارٍ لطيف.

وإن نفس المؤمن يتصارع فيها الخير والشر، والشر من الشيطان والخير

من الإيمان، فلماذا لا يكبح المؤمن جماح نفسه ويطرد عنها وساوس الشيطان ويسارع إلى صديقه فيعتذر إليه، أو إلى زوجته فيقدم لها الكلمة الحلوة الناعمة والابتسامة اللطيفة ويصالحها؟ إن الأمر لا يكلف إلا عزيمةً صادقةً وخطوة ثابتةً في ساعةٍ رحمانية تغمرها روح الإيمان.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لرجلٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» والهجر هو ضد الوصل، والمؤمن يألف ويؤلف ويبتعد عن العداوة والخصام، وقد دل الحديث على أن الهجر ثلاثة أيامٍ غير محرم رفقاً بالناس ورحمةً بهم، وذلك لأن ساعة الغضب يصعب التغلب عليها فينتظر صاحبها إلى أن تهدأ هذه الثورة فيعود إلى عقله وتفكيره. كما أن الحديث يفيد أن إثم الهجر يزول بتبادل التحية، وخير الرجلين هو الذي يبدأ بالسلام إذ يكون له ثواب السبق وكبح جماح النفس، فإن لم يرد عليه الآخر باء بالإثم.

رحمةٌ واسعةٌ

من رحمة الله بعباده أنه يغفر للتائبين ويعفو عن السيئات، وقد وسعت رحمته كل شيءٍ، ويكافىء المحسنين ويتجاوز عمن يعمل السوء بجهالةٍ إذا ندم وتاب وأناب، فإذا كانت التوبة قريبةً من وقوع الذنب فقد وعد الله سبحانه بقبولها قال تعالى: ﴿إنّما التَّوْبَةُ عَلَى آللهِ للذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِم﴾، فهؤلاء الذين يقع الذنب منهم في حال الضعف النفسي من غير قصدٍ ولا إدراكٍ للعواقب ويتوبون ولا يسترسلون في الشر ولا يتمادون في الخطأ، فإن الله سبحانه يتوب عليهم بمنّه وكرمه، ووصف الله المؤمنين بأنهم ﴿الّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إلاّ اللَّمَمْ إنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَة﴾، والإثم هو الذنب، والذنوب منها الكبائر ومنها الصغائر.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: الكبيرة كل معصيةٍ يقدم عليها المرء من غير استشعار خوفٍ أو استحداث ندمٍ، وقال العلماء: إن الذنوب كلها كبائر وإنما يقال لبعضها صغيرةٌ بالإضافة إلى ما هو أكبر منها كما يقال: الزنى صغيرةٌ بالإضافة إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرةٌ بالإضافة إلى الزنى. وقال ابن عباسٍ رضي الله عنه: لا كبيرة مع استغفارٍ ولا صغيرة مع إصرارٍ، وكل ذنبٍ أصر عليه العبد فهو كبيرةٌ.

وورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا

بالحق، والسحر، وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»، وقال أيضاً: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه»، والأحاديث في تعداد الكبائر كثيرةٌ، والفواحش هي القبيح من الذنوب.. واللمم هو القليل والصغير.

فالصغائر من الذنوب لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه، ورحمة الله واسعةٌ فالمحسن يكافأ على إحسانه، والذي يجتنب الكبائر ويفعل الصغائر من غير قصدٍ ولا إصرارٍ تغفر له زلاته وهفواته، ومرتكب الكبيرة إذا لم يصر عليها وندم وتاب توبةً نصوحاً فإن باب المغفرة لا يغلق دونه، والله سبحانه يغفر ما شاء من الذنوب كبيرها وصغيرها بمنه وكرمه وهو أعلم بعباده وجعل باب التوبة مفتوحاً لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمة الله. فعلى المذنب أن يتوب ويعمل الخير ليدخل تحت قوله ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ وهذا فضلٌ كبيرٌ من الله عزّ وجلّ على عباده.

الشفاعة الحسنة

إذا كانت لك معاملةٌ في إحدى دوائر الحكومة، أو كانت لك حاجةٌ عند أحد المسؤولين أو لدى أحد الموظفين وأحببت أن تتخذ لك وسيطاً أو شفيعاً عنده من أهل الفضل والمنزلة ليكلمه في أمرها ويحثه على العناية بها والتعجيل في البت بموضوعها فلك أن تفعل ذلك، لأن الشفاعة لأصحاب الحاجات عند الرؤساء والحاكمين من الأعمال الحسنة التي رغب فيها الشرع وجرى عليها العرف، وهي بابٌ من أبواب الخير ووجهٌ من وجوه المعروف، والأصل في الموضوع أن الحقوق يجب أن تصلِ إلى مستحقيها بصورةٍ طبيعيةٍ من غير توسطٍ ولا شفاعةٍ، ولكن الشفاعة أحياناً تساعد صاحب الحق وتعجل في إيصال الحق إليه.

روى البخاري ومسلمٌ عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه كان إذا أتاه السائل أو صاحب الحاجة أقبل على جلسائه فقال: «اشفعوا تؤجروا وليقض الله على لسان رسوله ما شاء». . وهذا الحديث صريحٌ في الحث على الشفاعة في كشف كربةٍ وفي معونة ضعيفٍ محتاجٍ، وفي أصحاب الحوائج إلى الولاة وغيرهم. . ولكن الأمر ليس على إطلاقه كما قد يظن بعض الناس وإنما يشترط في الشفاعة أن تكون لمراعاة حق مسلمٍ في جلب نفعٍ مشروعٍ له أو دفع شرٍّ عنه، وأن تكون في أمرٍ مباحٍ وجائزٍ لأنه لا شفاعة في أمرٍ حرمه الله ولا شفاعة في حدٍّ من حدود الله ولا شفاعة في إحقاق باطلٍ ولا في إبطال حق. . قال تعالى: ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شفاعةً حسنةً يكُنْ له نصيبٌ منها ومَن يَشْفَعْ

شفاعةً سيئةً يكُنْ له كِفْلٌ مِنْها ﴾، والشفاعة الحسنة هي التي تكون بين الناس في حوائجهم المشروعة من كف الوالي عن ظلم أحدٍ من الرعية، أو في بذل الجهد في إيصال العطاء إلى المحتاج، ومثلها الصلح بين المتخاصمين والدعاء بظهر الغيب للمسلمين.

ويشترط في الشفاعة أيضاً أن تكون لوجه الله من غير أجرٍ ولا عوضٍ، لأن أخذ الأجر عليها نوعٌ من الرشوة المحرمة شرعاً لأن الله سبحانه لعن الراشي والمرشي والرائش وهو الذي يكون الواسطة بينهما.

ومن هذا يتبين أن الناس لا يستغني بعضهم عن بعضٍ، ولا بد لهم من التعاون في حوائجهم وسرعة قضائها، ولكن هذا التعاون المحمود المشكور يجب أن يبقى داخل الإطار الروحي الأخوي ولا يتعداه إلى ما نهى الله عنه وحرمه.

الإصلاح بين الناس

المجتمعُ الإسلامي مجتمعٌ مترابطٌ متماسكٌ كصرحٍ شامخ عالي البنيان وطيد الأركان، لا ترى فيه نقصاً ولا خللاً، تربط بين أفراده رابطة الأخوة الصادقة، والمحبة الخالصة والتعاون المثمر لما فيه مصلحة الأمة وخير الأفراد.

ولا يستطيع المسلم أن يقول ما لي وللناس، إنني مكلفٌ بنفسي ولست مسؤولاً عن غيري، إن المسلم لا يحق له أن يقول مثل هذا الكلام لأن الشارع الحكيم جعله لبنةً في صرحٍ المجتمع الإسلامي وطلب إليه أن يفكر في جيرانه وإخوانه وعشيرته، وإن المبدأ العام في الإسلام هو أن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، وقد ذكر الخليفة الأول أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه أن الناس يقرؤون هذه الآية: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا عليكمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهتدَيْتُمْ ﴾ وذَكَر أنّهمْ يَفهمونها على غير حقيقتها لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على كل مسلم في حدود قدرته واستطاعته.

فالرابطة الأخوية بين المسلمين يجب أن تبقى متينةً قوية لأن الله سبحانه جعل المؤمنين إخوةً ثم قال تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا بين أخَوَيْكُمْ ﴾، ومن هنا كان الإصلاح بين الناس من أشرف الأعمال وأكثرها نفعاً وأعمها فائدةً، لأن عدم الاهتمام بهذا الإصلاح يؤدي إلى ضعف الرابطة بين أفراد المسلمين وتفككها كما حدث الآن في المجتمعات الغربية، فالفرد هناك لا يعلم شيئاً

عن جاره، ولا يدري شيئاً عن سكان الحي الذي يقطن فيه فهو يعيش لنفسه يسعى وراء نفعه المادي ولا يبالي من بعد ذلك بشيءٍ.

فلكي نتلافى بلوغ هذا المنحدر الرهيب يجب أن نحافظ على قوة مجتمعنا وأن نفكر في أهلينا وجيراننا وإخواننا وأن نحول دون حدوث أي ضعفٍ أو وهنٍ في علاقات الأخوة والمحبة بينهم.

وقد حث الإسلام على إصلاح ذات البين ورغب فيه قال تعالى: ﴿ لا خَيْرَ في كثيرٍ مِن نَجْواهمْ إلاّ مَنْ أمَرَ بِصَدقةٍ أوْ مَعروفٍ أو إصلاحٍ بينِ الناسِ ﴾ وقال ﷺ: «أفضل الصدقة إصلاح ذات البين». وقال عليه الصلاة والسلام لأبي أيوبٍ: «ألا أدلك على صدقةٍ يحبها الله ورسوله؟ تصلح بين أناس إذا تفاسدوا، وتقرب بينهم إذا تباعدوا». وذكر الإمام محمد بن المنكدر أن رجلين تنازعا في ناحية المسجد قال: فملت إليهما فلم أزل بهما حتى أصطلحا، قال: وكان أبو هريرة يراني فقال لي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أصلح بين اثنين استوجب ثواب شهيدٍ».

ومن المعلوم أن الشرع رخص في الكذب في بعض المواضع كالحرب وإصلاح ذات البين وعلى الزوجة.

القصد في الطعام

الفرق بين الإنسان والحيوان، إن الإنسان يأكل ليعيش، أما الحيوان فليس له همٌّ إلا الأكل فهو يعيش ليأكل لأنه لا يعرف من الدنيا سوى ذلك، فإذا شاهدت في هذه الحياة أناساً من بني آدم يأكلون كثيراً ويحشون معدهم بالطعام الكثير فاعلم أنهم أشباه الحيوانات.

وقد ذكر الأطباء أن في الإكثار من الطعام مفاسد كثيرةً فهو يورث البلادة ويمنع النشاط وهو يعوق الذهن عن التفكير السليم فلا يستطيع صاحبه أن يصل بتفكيره إلى رأيٍ واضحٍ صائبٍ وهو مدعاةٌ للخمول والكسل والنوم، وقد قيل من أكل كثيراً شرب كثيراً نام كثيراً فاته خيرٌ كثير ولا ريب أن الوقت هو رأس مال الإنسان في سعيه وعمله وتحصيل رزقه فإذا ضيعه المرء في الخمول والنوم كانت خسارته كبيرةً لا تعوض.

ومن وصايا لقمان لابنه قوله: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. أما في حال الإقلال من الطعام فإن القلب يصفو، والقريحة تتقد، وتصبح النفس مقهورةً والشهوة مغلوبةً.

وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى أن شر وعاءٍ يملأ هو البطن حين قال: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه»، ثم أرشدنا من بعد ذلك إلى المقدار المناسب في الطعام فقال: «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فاعلاً فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنَفَسه»، وفي هذا التقسيم حكمةٌ

بالغةٌ لأن البطن إذا امتلأ ضغط على الحجاب الحاجز، فضغط على الرئتين فضاقت مجاري التنفس، وإذا ضاق النفس وقع صاحبه في بلاءٍ ومحنة.

وقد أوضح لنا القرآن الكريم طريقة الاقتصاد وأدب الاعتدال في الطعام والشراب فقال: ﴿ وكُلُوا واشْرَبوا ولا تُسْرِفوا، إنّه لا يُحبُ المُسْرِفين ﴾ وكان لهارون الرشيد طبيبٌ نصرانيٌ سأل مرةً علي بن الحسين هل جاء عن نبيكم شيءٌ في الطب فقال نعم قد جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظٍ يسيرةٍ بقوله: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء». وقد قيل إن هذا من أقوال الحكماء وليس بحديثٍ ومعناه صحيحٌ، وقد روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الكافر يأكل في سبعة أمعاءٍ والمؤمن يأكل في مِعًى واحدٍ»، أي إنه يأكل دون الشبع، وقد قيل إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت.

وذكر الفقهاء أن من زاد في الأكل إلى درجةٍ تمنعه من القيام بواجب العبادة حرم عليه والله أعلم.

فضل العمل والكسب

قيل للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ما تقول في من جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجلٌ جهل العلم أما سمع قول النبي ﷺ: «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي» وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً» فذكر أنها تغدو في طلب الرزق ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم والقدوة بهم.. وهذا الجواب من الإمام أحمد رحمه الله يدلنا على أن الإسلام دين السعي والعمل وليس دين الخمول والكسل فهو يدعو إلى اتخاذ أسباب الكسب ويمنع الخمول والبطالة فهو دينٌ عمليٌ جمع خير الدنيا وخير الآخرة.. روي عن ابن عمر قال: سئل النبي ﷺ عن أطيب الكسب فقال: «عمل الرجل بيده وكل بيعٍ مبرورٌ» وقال قتادة كنا نحدث أن التاجر الصدوق الأمين مع السبعة في ظل العرش يوم القيامة، وقال ﷺ: «كان داود لا يأكل إلا من عمل يده».

وقال كعبٌ كان إدريس رجلاً صالحاً يتعبد الله ويصوم ويصلي وكان خياطاً يتصدق بكسبه ما فضل من قوته وكان زكريا نجاراً. وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لأن يحمل الرجل حبلاً يحتطب ثم يجيء فيضعه في السوق فيبيعه الرجل يستغني فينفقه على نفسه خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه». والأنبياء كانوا يؤاجرون أنفسهم وكان النبي ﷺ آجر نفسه وكذلك أبو بكرٍ وعمر ولم يقولوا نقعد حتى يرزقنا الله عزّ وجلّ، قال تعالى:

﴿ وَٱبۡتَغُوا مِن فَضۡلِ اللهِ ﴾، فلا بد من الكسب وطلب المعيشة.

ويجب على المسلم أن ينوي بالعمل من تجارةٍ وصناعةٍ وغيرها الاستعفاف عن سؤال الناس وكف الطمع في أموالهم وأن يطلب الحلال وينفقه على نفسه وعلى عياله، وعليه أن ينوي في قلبه النصح، للمسلمين وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، وعليه أن يسلك طريق العدل في المعاملة، وأن يقصد بعمله القيام بفرضٍ من فروض الكفاية، فلو توقفت الصناعة والتجارة في الأمة لهلك أكثر الناس، ولا بد من أن يتعاون الناس في أعمالهم كي تستقيم أمورهم وتصلح حياتهم، ويجب أن يكون كل فردٍ في المجتمع عاملاً، لأن العضو العاطل يؤذي الجسم ويجب قطعه وبتره للتخلص منه، وأبواب الرزق مفتوحةٌ على مصراعيها بحمد الله ولا عذر لكسولٍ ولا لخاملٍ، ومهما كان نوع العمل فإنه يعتبر شرفاً للإنسان يكف به نفسه ويؤمن به قوته وقوت عياله، وإن العامل يشعر بلذة العمل، ولو بقي عاطلاً عن العمل يوماً واحداً لشعر بالضيق والوحشة.

زينةٌ وفتنةٌ

ذكر الله سبحانه في كتابه الكريم المال والبنين وجعلهما زينةً في موضعٍ وفتنةً في موضعٍ.. ورد في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿ المالُ والبنون زينةُ الحياةِ الدُّنيا ﴾ وورد في سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿ واعْلموا أنّما أموالُكُمْ وأولادُكُمْ فِتْنة ﴾ أمّا المال فهو زينةٌ إذا كان في يد الرجل الصالح يستعين به في قضاء حوائجه والإنفاق على أهله والاستغناء به عن الناس وينفق منه على المحتاجين ويساهم به في كل مشروعٍ نافع وفي كل عمل خيري، وبهذا المعنى ورد في الأثر: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» وإذا نشأ الأولاد نشأةً صالحةً وتربوا على الأخلاق الحميدة والآداب الفاضلة وسلكوا طريق العلم كانوا مفخرةً لأبيهم وعوناً صالحاً له، ولا شك أن هذا زينةٌ للمؤمن في حياته.

أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك، يصبح المال والأولاد بلاءً على المؤمن يحمله على كسب المحرم أو ما فيه شبهةٌ لتأمين معيشته ومعيشة عياله. قال بعض السلف: العيال سوس الطاعات لأن المرء يضطر إلى دخول المداخل المشبوهة لتأمين نفقاتهم فلا يبقى له وقتٌ للإقبال على الطاعات البدنية ويمنعه السعي لهم عن الاستكثار من الطاعات المالية، وقد ورد في الحديث الشريف: «يؤتى برجلٍ يوم القيامة فيقال أكل عياله حسناته».

روي أن عوف بن مالكٍ الأ شجعي كان ذا أهلٍ وولدٍ، وكان إذا أراد أن يغزو ويجاهد بكوا وقالوا: إلى من تتركنا؟ فيرق قلبه لهم فيقعد فنزل بسببه

قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إنَّ مِن أزواجِكُمْ وأولادِكُمْ عَدُوّاً لكُمْ فاحذروهم ﴾.

وورد في صحيح البخاري عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال كنّا جلوساً عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة قلت أنا «هي فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وذكر بقية الحديث.

ففي هذا الحديث وردت فتنة الرجل في أهله فإنه من أجل إرضائهم والانفاق عليهم ربما أتى من الأفعال والأقوال والتصرفات بما يحل وبما لا يحل، وفتنته في ولده بسبب محبته أولاده وشغفه بهم وشفقته عليهم ربما اكتسب المال من الشبهات وربما ترك كثيراً من الطاعات والخيرات لانشغاله بأمورهم وشؤونهم وفتنته في جاره إذ يراه غنياً وفي سعةٍ من الرزق فيتمنى في نفسه أن لو كان مثله.. فالصلاة والصوم والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكفر الصغائر من هذه الأعمال بدليل قوله ﷺ: «إن الصلاة إلى الصلاة كفارةٌ لما بينهما ما اجتنبت الكبائر». صدق رسول الله ﷺ.

الخياط والسلطان

هذه قصةٌ رمزيةٌ قرأتها تدل على شرف المهنة والعمل الحر، وعلى أن المجتمع لا يستغنى عن الصناعات والمهن بسائر أنواعها واختلاف أشكالها، وقد ألف العلماء في هذا الباب كتباً قيمةً لعل من أحسنها كتاب (صناعات الأشراف) الذي يدلنا على أن الأنبياء الكرام والصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا أصحاب صناعاتٍ فكان منهم الرعاة والنجارون والخياطون، والتجار، فالعمل الحر شرفٌ لصاحبه وعليه يقوم بناء المجتمع.

وخلاصة القصة أن بعض السلاطين علم أن ابنه الوحيد يريد أن يكون خياطاً ولا يرغب في أن يكون أميراً ولا سلطاناً، فغضب والده وقال له: إن اشتغالك بمهنة الخياطة عارٌ علينا عظيمٌ. فقال ابنه: إن الخياط يا أبي لا يقل أهميةً عن السلطان، فازداد غضب الأب وقال له: إنني أمهلك سنةً كاملة لتثبت لي أن الخياط نافعٌ كالسلطان. فرضي الابن بذلك وارتدى ثياباً قديمةً ووضع الإبرة والخيط والمقص في كيسٍ من قماشٍ وسار حتى وصل إلى دكان خياطٍ وعرض عليه أن يعمل عنده فوافق واشتغل عنده ثلاثة أيامٍ ثم أبدى رغبته بترك العمل ودعا الخياط إلى وليمةٍ كبيرةٍ يقيمها له في أحد البساتين بعد ستة أشهرٍ فوعده الخياط بتلبية الدعوة في موعدها، وانصرف الأمير من عنده وذهب إلى خياطٍ آخر وعمل عنده ودعاه إلى وليمةٍ، وما زال يتنقل بين الخياطين ويعمل عندهم ويدعوهم حتى طاف عليهم جميعاً. وفي اليوم المعين للوليمة اجتمعوا في البستان وأخذتهم الدهشة عندما رأوا العامل الذي تنقل بين حوانيتهم

يرتدي زي الأمراء وبعد أن أكلوا وشربوا دعاهم إلى نزهةٍ طويلةٍ في البحار مدتها ستة أشهرٍ فلبوا طلبه وساروا متنقلين بين البحار على ظهر باخرة الأمير.

فلما رجعوا إلى المدينة بعد هذه الغيبة الطويلة وجدوا الناس في ثيابٍ رثةٍ ممزقةٍ وهم يصيحون بهم قائلين أين كنتم؟ إننا نريد ملابس جديدةً لأن ثيابنا قد بليت وتمزقت وذهب الأمير إلى القصر فوجد السلطان مكتئباً حزيناً يشكو من ثيابه الملكية التي لم يجد من يجددها له فابتسم ابنه الأمير وقال له: أرأيت الآن كيف كانت نتيجة اختفاء الخياطين من البلد؟ فقال السلطان وهو يبتسم: لقد عرفت الآن أن الخياط لا يقل أهميةً عن السلطان.

هذه قصةٌ رمزيةٌ تدل على أن الناس في البلد الواحد كأفراد الأسرة الواحدة لا بد لكل فرد فيهم من عملٍ يؤديه في حدود معرفته واختصاصه كي تستقيم أمور معيشتهم ولا يختل شيءٌ منها.

التشـــاؤم

إن بعض الناس ينظرون إلى الحياة بمنظارٍ أسود لا يرون إلا جانبها المعتم فتراهم يكثرون من التبرم بأحوالهم والشكوى من أوضاع حياتهم، مع أن الحياة فيها الخير وفيها الشر، وفيها السرور وفيها الحزن وهي تتقلب بأهلها وتنتقل بهم من حالٍ إلى حال، فلماذا ننظر إلى وجهها العابس القاتم ونغض أبصارنا عن وجهها الضاحك المشرق؟ إن المتشائم يرى الكون مليئاً بالشقاء والتعاسة وبالضعف وبالمرض فيضيع أمله في مستقبلٍ سعيدٍ ويملأ اليأس حنايا فؤاده فيصبح عضواً أشل في المجتمع . .

وليس هذا من صفات المؤمن الذي يعتقد أن رحمة الله واسعةٌ، وأنه سبحانه لا ينسى عباده فمن سلم أمره إلى خالقه ورضي بما قضاه وقدره عليه زال من نفسه الضجر والقلق وملأ فؤاده الرضا والاطمئنان، وكم يسعد المؤمن ويهنأ حين يتلو قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ﴾ فلا حدود لها ولا نهاية، وقوله تعالى في سورة ألم نشرح: ﴿فإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَاً إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَاً﴾، فمع كل ضيقٍ فرجٌ، ومع كل شدةٍ رحمة، جاء في الحديث عن النبي ﷺ في هذه السورة أنه قال: «لن يغلب عسرٌ يسرين»، وفي الرواية الأخرى عن ابن مسعود رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لو كان العسر في جحرٍ لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ولن يغلب عسرٌ يسرين. وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما: أما بعد فإنه مهما ينزل بعبدٍ مؤمنٍ من منزلٍ شدةٌ يجعل الله بعده فرجاً.

وفي الآية وعدٌ عامٌ لجميع المسلمين بأن مع العسر في الدنيا يسراً في الآخرة ولا يستبعد أن يجتمع للمؤمن اليسر في الدنيا والآخرة، والمؤمن لا ينظر نظر رغبةٍ واشتهاءٍ إلى من يفوقه في الجاه أو يرتفع عليه في المنزلة أو يزيد عليه في المال، لأنه لا يجعل أكبر همه هذه المظاهر الخلابة ولا هذه الصفات الزائلة بل يشعر أن مقصده في الحياة أعلى من ذلك وأسمى، إن مقصده نيل رضا الله وشموله برحمته.

إن القوة الروحية في نفس المؤمن تهون عليه المشاق والمتاعب والآلام في الدنيا فيتلقاها بصدرٍ رحبٍ ويصبر عليها إطاعةً لأمر ربه وطلباً لثوابه، لأن التبرم بالحياة والضيق بها يزيد من آلامه ولا يفيده شيئاً لأن ما قدره الله واقعٌ لا محالة ولذلك قيل: لأن تصبر وأنت مأجورٌ خيرٌ من أن تصبر وأنت مأزورٌ، أي أن المصائب والآلام واقعةٌ وموجودةٌ ولا تزيلها شكواك فلماذا لا تتلقاها بنفسٍ راضيةٍ مطمئنةٍ فتنال الثواب والأجر من الله؟.

أيها المتشائم كن ذا إرادةٍ حازمةٍ، وذا إيمانٍ قويٍّ تجد الراحة والطمأنينة وسعادة الدارين إن شاء الله.

التفــاؤل

الحياة فيها الخير وفيها الشر، وفيها السرور وفيها الحزن، وهي متقلبةٌ بأهلها لا تدوم على حالٍ، فمن الناس من ينظر إلى الجانب الأسود منها فيتشاءم وتمتلىء نفسه بالهم والغم والقلق والاضطراب ومنهم من ينظر إلى جانب الخير منها فيضحك ويتفاءل ويتسع صدره لها، وقد كنا ذكرنا في الفصل السابق أن المتشائم يؤذي نفسه ويجلب الهم إليها ويبقى في حزنٍ دائمٍ وفي قلقٍ مستمرٍ، أما المتفائل فإنه يتقبل الحياة على علاتها ويرحب بما تحمله إليه من خيرٍ وشرٍ.

والإسلام يدعو المؤمن إلى التفاؤل وينفره من التشاؤم ففي الحديث القدسي «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني» وورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يقنطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلَّا الضَّالُّون﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ آلذينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً﴾ ذكر الإمام مسلمٌ في صحيحه عن ابن عباسٍ رضي الله عنه: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا النبي ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسنٌ أَوَ تخبرنا أن لنا توبةً؟ فنزلت هذه الآية. قال ابن عمر رضي الله عنه: هذه أرجى آيةٍ في القرآن، أما ابن عباسٍ رضي الله عنه فقد قال: إن أرجى آيةٍ في كتاب الله هي قوله تعالى: ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ للنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِم﴾. قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنأ أحداً عيشٌ ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتَّكل كل أحدٍ».

وما من أحدٍ من الناس إلا ويهجس في نفسه هاجسٌ من قلقٍ أو طمأنينةٍ، فالمؤمن يتفاءل ويتوكل على الله في تصـرفاتـه.. وإن التشاؤم والتفاؤل موجودان في كل نفسٍ بحكم الفطرة، ويغلب أحدهما الآخر تبعاً لقوة الإيمان وضعفه، والتفاؤل في حقيقته هو توقع الخير وترجيح أسباب النجاح في عملٍ من الأعمال، فالمؤمن يزيد أمله في الخير ويقول إنني أتوقع النجاح بعد أن توكلت على الله، وقد كان النبي ﷺ يحب الفأل الحسن، وروى البخاري عن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة»، وفي صلح الحديبية سأل عليه الصلاة والسلام عن اسم الشخص الذي جاء يفاوضه باسم المشركين فلما أخبر أنه (سهل بن عمرو) قال (سهلت). وورد في الحديث الشريف: «إنه لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له».

ونود أن نشير إلى أن التفاؤل لا بد أن يرافقه ويقارنه الأخذ بالأسباب، لأن تركها مضيعةٌ للآمال وليس الإيمان بالتمني بل بالعمل.

مفتاح الشيطان

للشيطان أساليب كثيرةٌ وطرقٌ عديدةٌ يسلكها كي يصل منها إلى قلب ابن آدم ويوسوس له ما شاء، وعنده مفاتيح متنوعة الأشكال لفتح هـذه القلوب، ومن جملة هذه المفاتيح كلمة (لو) التي قال النبي ﷺ فيهـا: «المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خيرٌ احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيءٌ فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل فإن (لو) تفتح عمل الشيطان» رواه مسلمٌ في صحيحه. وهذه الكلمة كلمة (لو) مؤلفةٌ من حرفين سهلة النطق تخرج من فم الإنسان من غير أن يبالي بها. ولكن النهي قد ورد عن التلفظ بها لأنها تؤدي أحياناً إلى نتائج سيئةٍ نحن في غنىً عنها، وهي من أدوات الشرط ويسميها علماء اللغة حرف امتناعٍ لامتناعٍ فإنك إذا قلت لي لو زرتني لأكرمتك فالمعنى أنك لم تزرني وأنا لم أكرمك فامتنع وقوع الإكرام لامتناع وقوع الزيارة وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى أن كثرة استعمال (لو) تفتح عمل الشيطان، فإذا خرجت بسيارتك إلى سفرٍ أو نزهة ووقع لك حادثٌ أصاب جسمك أو سيارتك بسوءٍ أو ضررٍ فلا تقل لو أنني لم أذهب بها لما أصابني ما أصابني، لأن مثل هذا القول يلقي في نفسك فكرة معارضة القدر، وهذه المعارضة يلقيها الشيطان في قلبك من حيث لا تشعر واعلم أن ما وقع لك من سوءٍ قد قدر الله سبحانه وقوعه منذ الأزل، وأن ما قدره الله واقعٌ لا محالة فألهمك الله سبحانه الذهاب بسيارتك تمهيداً لوقوع ما قدره عليك.

وقد نهى العلماء عن تعويد اللسان النطق بكلمة (لو) في كل الأمور، وخاصةً فيما لا فائدة فيه والأفضل لك أن تضمر في نفسك شرط مشيئة الله يعني أن تقول في قلبك إلا أن يشاء الله أما إذا قلت كلمة (لو) وأنت تنوي التأسف على ما فاتك من طاعة الله فهو جائزٌ. . . فإذا طالت سهرتك بالليل وأويت إلى فراشك بعد ذلك ثم غلبك النوم فلم تنهض لصلاة الفجر مع أنك عازمٌ على النهوض لها، فتندم على عملك ويداخل قلبك الأسى والأسف على هذا السهر الذي حال بينك وبين أداء الصلاة في وقتها فتقول حينئذ لو أنني لم أسهر لم تفتني الصلاة ولا تقصد معارضة القدر ولكنك تظهر التأسف وتنوي الندم على خطيئتك. .

وقد وردت كلمة (لو) في مواضع عديدةٍ من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وليست من باب النهي الوارد في الحديث، وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه باباً سماه (ما يجوز من اللو) فليرجع إليه من شاء.

المدح والثناء

اعتاد الناس أن يمدح بعضهم بعضاً، وأن يثني بعضهم على بعض، وقد يعمد أحدهم إلى المغالاة والمبالغة في كيل ألفاظ المديح لصاحبه، ويكثر ذلك أمام أصحاب السلطان والأمر والنهي توصلاً لنيل رضاهم أو طلباً لنفع منهم، وهذا من الأمور المذمومة لأن الإفراط في المدح يؤدي بالمادح إلى الكذب، وإلى الرياء والنفاق، قال الحسن رضي الله عنه: من دعا لظالمٍ بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله في الأرض، ويؤدي الإفراط في الوقت نفسه إلى إعجاب الممدوح بنفسه فيداخله الكبر ويظن أنه في الحقيقة بتلك المنزلة التي مدح بها فيحمله ذلك على ترك العمل والتكاسل عن الخير والصلاح. وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا أثنى عليه أحدٌ يقول: اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيراً مما يظنون.

وقد ورد في الحديث الذي أورده البخاري أن النبي ﷺ قال: «إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك وحسيبه الله ولا يزكي على الله أحداً».. وورد في الحديث الآخر: «أحثوا التراب في وجوه المداحين» والمراد به الذين يمدحون الناس في وجوههم بما ليس فيهم .. فأما إذا مدحت الرجل بما فيه من الصفات الحسنة والأفعال المحمودة لترغيب الناس في الاقتداء به فهو أمرٌ حسنٌ ولا يدخل في المدح المنهي عنه، وهذا يرجع في الحقيقة إلى النية التي لا يطلع عليها إلا الله

سبحانه وتعالى والله يعلم المفسد من المصلح.

أما أن يمدح الإنسان نفسه فهو ممنوعٌ وقد ورد النهي عنه قال تعالى: ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُم ﴾ وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّـذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُم بَلِ ٱللهِ يُزَكِّي من يشاء ﴾، وقد ورد في صحيح مسلمٍ عن محمد بن عمرو بن عطاء قال سميت ابنتي (برة) فقالت لي زينب بنت أبي سلمة إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم وقال: «لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا بم نسميها؟ فقال: «سموها زينب». قال المفسرون: كانت اليهود تقول نحن أبناء الله وأحباؤه، وتقول لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وكان يثني بعضهم على بعض فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ أَلَم تَرَ إِلَى ٱلذينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُم بَلِ ٱللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء ﴾ صدق الله العظيم.

بين اليقظة والغفلة

من صفات المؤمن أن يكون متيقظاً في أموره، متنبهاً في أعماله وتصرفاته، بعيداً عن الغفلة، وإذا أخطأ في أمر من الأمور تنبه له وتجنب الوقوع في ذلك الخطأ بعينه مرةً أخرى، وكل إنسانٍ يخطىء ويصيب، وليس الخطأ عيباً، ولكن العودة إليه عيبٌ ونقصٌ، ويذم فاعله. والأصل في ذلك ما رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يلدغ المؤمن من جحرٍ واحد مرتين». والمعنى أن المؤمن يجب أن يكون حازماً في أموره، وأن يكون حذراً لا يترك للغفلة سبيلاً إلى نفسه ولا يسمح لأحدٍ أن يخدعه مرةً بعد أخرى كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لست بخبٍ ولكن الخب لا يخدعني، والخب هو الرجل الخدَّاع صاحب المكر والخبث، والجحر هو الحفرة التي تحتفرها الحية في الأرض، فإذا مَدَّ أحدٌ يده فيها لدغته الحية فيجب أن يكون حذراً وأن لا يعود إلى مد يده كي لا تلدغه ثانيةً.

والحديث الشريف يشير إلى اليقظة وعدم الوقوع في مثل الخطأ الأول، وسبب الحديث أن شاعراً يدعى (أبا عزة) أسره النبي ﷺ في غزوة بدر، فذكر له الشاعر فقره وكثرة عياله فمنّ عليه النبي ﷺ وأطلقه من غير فداءٍ فعاهده أبو عزة أن لا يهجوه ولا يحرِّض عليه، فلحق بقومه ورجع إلى التحريض والهجاء، فأسر مرةً أخرى في غزوة أحد، فسأله أن يمن عليه ويطلقه فأبى النبي ﷺ وأمر بضرب عنقه وقال: «لا يلدغ المؤمن من جحرٍ واحدٍ مرتين»،

فليس من شيمة المؤمن الحازم أن ينخدع من مثل هذا الشاعر الغادر مرةً بعد أخرى، ولئن كان الحلم والصفح والعفو من الأمور المحمودة، لكن لها حدوداً، فإذا لم تعط ثمرتها المطلوبة والمرجوة منها في أصحاب النفوس الشريرة الفاسدة فإن الحزم حينئذٍ هو الدواء الناجع، وقد وصف الله سبحانه المؤمنين بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم.

فالمؤمن الكامل هو الذي أوقفته تجاربه على غوامض الأمور فهو دائماً يعتبر في المستقبل بحوادث الماضي ويتجنب الأخطاء التي كان قد وقع فيها من قبل، أما المغفل فمن الممكن أن يلدغ مرةً بعد مرةٍ لأن التجارب لا تعلمه.

والخلاصة أن الإيمان لا يتفق والغفلة بل إنه يوجب الحذر والحيطة، والمؤمن كيّس فطنٌ حذرٌ، وفي هذا المعنى قال يعقوب عليه السلام لأولاده حين طلبوا منه أن يأخذوا أخاهم الثاني فقال لهم: ﴿هَلْ آمَنُكُم عَلَيْهِ إلاّ كَمَا أَمِنْتُكُم عَلَى أَخِيه مِنْ قَبلُ﴾.

مِنَ العبَادَات

تجويد القرآن

قرأت في الصحف عن وجود دوراتٍ تدريبيةٍ لبعض العلوم وبعض اللغات الأجنبية، يدخل الطالب هذه الدورة ويتلقى أصول اللغة المطلوبة ويدرس قواعدها على الأساتذة المختصين بها في خلال أشهر معدوداتٍ تسمى دورةً، فإذا انقضت مدة التلقي والتعليم ونجح في الامتحان أعطى شهادةً بها تدل على أنه أتقنها إلى الحد المطلوب منه، فإذا احتاج المسؤولون بعد ذلك إلى مدرسين لتلك اللغة اختاروا الشاب الذي دخل الدورة ونال شهادة الاختصاص بها.

حين قرأت هذا أعجبتني الفكرة لأنها أسلوبٌ عمليٌّ صائبٌ، فقلت في نفسي: لماذا لا تقام دورة تدريبيةٌ لعلم التجويد؟ وقد يبدو هذا التفكير غريباً لدى بعض القراء لأن علم التجويد في نظرهم يعرفه أكثر الناس ممن يتلو القرآن الكريم أو يعلمه الطلاب، ولكنني لا أرى رأيهم لأن كثيراً من القراء في زماننا لا يؤدون القراءة حسب الأحكام الموضوعة لتجويده ولا يراعون مخارج الحروف، وعلوم القرآن كثيرةٌ، ويأتي علم التجويد في مقدمتها وهو يبحث في الإدغام والغنة والإظهار والإخفاء والإقلاب وأنواع المد والقصر، والوقف والابتداء، والفتح والإمالة والقلقلة، وقد صنف العلماء في ذلك كتباً متعددةً منها المطولة ومنها المختصرة، وإن المسلمين مطالبون بمراعاة أحكام التجويد وتطبيقها عند تلاوة آي الذكر الحكيم وهم مطالبون أيضاً بمراعاة مخارج الحروف لأن كل حرفٍ في اللغة العربية له مخرجٌ خاصٌ به في الفم يجب أن

يحاول القارئ القيام به على قدر إمكانه واستطاعته.

يقول كثيرٌ من القراء العالمين بأحكام التجويد إن التجويد حلية القرآن وهو إعطاء الحروف حقوقها ورد الحرف إلى مخرجه وأصله وتلطيف النطق به على كمال هيئته من غير تعسفٍ ولا إسرافٍ ولا إفراط، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله: «من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبدٍ» يعني عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وكان قد أعطي حظاً عظيماً في تجويد القرآن، وكان أجدادنا رحمهم الله يتلقون أصول التلاوة وأحكامها من أفواه العلماء ويضبطونها ضبطاً وافياً متقناً.

ونحن نقترح على أولي الأمر أن يشترطوا في تعيين الإمام لكل مسجدٍ أن يجتاز الدورة التدريبية، التي يتلقى فيها القراءة من أفواه المتقنين، وأن ينال شهادتها وأن يخضع للمراقبة بعد تعيينه، هذا بالإضافة إلى الشروط الأخرى التي يجب أن تتوفو فيه. وما يقال عن الأئمة يقال عن المؤذنين في حسن الصوت وحسن الأداء والوضوح وإخراج الحروف من مخارجها.

وقد تحقق هذا بحمد الله ونجح في الدورة كثير من الأئمة ونرجو أن تستمر في تخريج أمثالهم في كل عام وبالله التوفيق.

ترتيل القرآن

يستحب لمن يريد تلاوة القرآن أن يرتله ترتيلاً، أي أن يقرأه على مهل من غير عجلةٍ، ويبينه حرفاً حرفاً، والترتيل هو التنسيق وحسن النظام، وعليه أن يحاول توضيح الحروف وإخراج كل حرفٍ من مخرجه من الحلق قدر الاستطاعة، لأنه قد ورد أن النبي ﷺ كان له حزبٌ يقرؤه ولا يخل به، وكانت قراءته ترتيلاً لا هذاً ولا عجلةً، والهذ هو السرعة في القراءة، بل كانت قراءةً مفسرةً حرفاً حرفاً، وكان يقطع قراءته آيةً آيةً، وكان يمد عند حروف المد، وكان يتغنى بالقرآن ويرجع صوته به أحياناً.

والتغني بالقرآن مطلوبٌ، وليس معناه اتباع أساليب الغناء ولكن معناه تحسين القراءة وترتيبها وتحسين الصوت أثناء التلاوة وهذا هو معنى قوله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»، وقوله أيضاً: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» أي يترنم به بصوتٍ جميل، وقد استمع النبي ﷺ ليلةً إلى قراءة الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه الذي كان معروفاً بحسن الصوت، فلما أخبره بذلك قال: يا رسول الله لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيراً، يعني لحسنته وزينته بصوتي تزييناً، وقد قال ﷺ عن أبي موسى الأشعري وصوته الحسن: «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود»... ويروى أن عبد الرحمن بن الأسود كان يتتبع الصوت الحسن في المساجد في شهر رمضان.. هذا هو المستحسن أما التمطيط في القراءة والتكلف فيها وتأديتها بألحان الغناء فهو ممنوعٌ وقد أنكره العلماء ولم يأذنوا به.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد: إن تحسين الصوت بالقرآن وتزيينه والتطريب بقراءته أوقع في النفـوس وادعى إلى الاستماع والإصغاء إليه وهو بمنزلة الحلاوة التي تجعل في الدواء لتنفذه إلى موضع الداء، انتهى كلامه.

ومن الضروري عند التلاوة حضور القلب وترك حديث النفس وتعظيم القرآن وذلك يكون بالتفكر في صفات الله سبحانه وجلاله وأنه الخالق والرازق والمحيي والمميت وأن المخلوقات جميعاً في قبضته بين رحمته ونقمته فإذا أنعم فبفضله وإن عاقب فبعدله، وإن ترتيل القرآن يعين على فهمه وتدبره قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا خير في عبادةٍ لا فقه فيها، ولا في قراءةٍ لا تدبر فيها.

ويستحب للقارىء أن يتصور أنه المقصود بكل خطابٍ يرد في القرآن، فإن سمع أمراً قدر أنه المأمور به وإن سمع نهياً قدر أنه المنهي عنه، فإذا فعل ذلك شعر بالخشية تخالط شغاف قلبه وذلك لاشتراك اللسان مع القلب في التلاوة، أما مجرد تحريك اللسان من غير خشوعٍ ولا فهمٍ ولا تدبرٍ فإنه لا ينفع ولا يؤدي إلى المقصود من التلاوة والترتيل.

صلاة الضحى

إذا اتسخ الثوب احتاج إلى من يقوم بتنظيفه، وإذا ارتكبت النفس بعض السيئات احتاجت إلى شيءٍ يمحوها، وهذا الشيء هو الحسنات بدليل ما ورد في الأثر: «واتبع السيئة الحسنة تمحها».

وما أكثر المخالفات والسيئات التي تصدر عنا كل يومٍ بسبب انغماسنا في لج الحياة المادية وما أحوجنا إلى التخفف من هذا الحمل الثقيل، ومن رحمة الله بنا أنه مهد لنا طريق الحسنات ويسرها لمن يطلبها، وهي كثيرةٌ بحمد الله، ففي كل تسبيحةٍ صدقةٌ وفي كل تحميدةٍ صدقةٌ وفي كل تكبيرةٍ صدقةٌ وأمرٌ بالمعروف صدقة ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ وإماطة الأذى عن الطريق صدقةٌ وتبسمك في وجه أخيك صدقةٌ، ومن جملة الصدقات والحسنات ركعتان بعد الوضوء وصلاة الليل، وصلاة الضحى، ومن عود نفسه عليها شعر بلذتها واستطاع أن يعدل كفة الميزان الذي يزن صالح الأعمال وسيئها.

وصلاة الضحى من الأمور السهلة ذات الفائدة العظيمة ويستطيع أحدنا أن يؤديها في الصباح قبل خروجه إلى عمله وتسمى صلاة الإشراق، ووقتها في أول النهار عند ارتفاع الشمس. وعن أم هانىءٍ أن النبي ﷺ صلى صلاة الضحى وقال: «هذه صلاة الإشراق»، وعن ابن عباسٍ قال: طلبت صلاة الضحى في القرآن فوجدتها ها هنا ﴿يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾.

وقد وردت في فضلها أحاديث منها عن أبي هـريرة قال: أوصاني

خليلي ﷺ بثلاثٍ بصيام ثلاثة أيامٍ من كل شهرٍ وركعتي الضحى وأن أوتر قبل أن أنام، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أوابٌ». وورد أن النبي ﷺ كان يصلي الضحى حتى نقول لا يدعها، ويدعها حتى نقول لا يصليها، ومعنى هذا أنه لم يلتزمها دائماً كي لا تكون مثل الفرض. وهي قد تكون ركعتين أو أربعاً أو ثماني ركعاتٍ أو ثنتي عشرة ركعةً. . ويروى أن ابن عمر قال لأبي ذرٍّ رضي الله عنهما: أوصني فقال سألت رسول الله ﷺ كما سألتني فقال: «من صلى الضحى ركعتين لم يكتب من الغافلين ومن صلى أربعاً كتب من العابدين ومن صلى ستاً لم يلحقه ذلك اليوم ذنبٌ ومن صلى ثمانياً كتب من القانتين ومن صلى عشراً بنى الله له بيتاً في الجنة».

وقال العلماء إنها مستحبةٌ أو سنةٌ ويقرأ المصلي في كل ركعةٍ منها بالفاتحة وسورةٍ من القرآن والأفضل قراءة سورة (الشمس) و(الضحى) ويستحب أن يقول المصلي بعدها ما في حديث صهيبٍ أن رسول الله ﷺ كان يحرك شفتيه بعد صلاة الضحى بشيءٍ فقلت: يا رسول الله ما هذا الذي تقول؟ قال أقول: «اللهم بك أصاول وبك أحاول وبك أقاتل».

الحي والميت

الأصل في الأعمال أن كل إنسانٍ يحاسب عن أعماله التي تصدر عنه في أيام حياته من الحسنات والسيئات، فإذا انتهى أمد حياته اختتم سجل أعماله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إلاّ مَا سَعَى﴾.

هذا هو الأصل، ولكن وردت بعض الأحاديث التي يفهم منها أن الميت ينتفع أحياناً بعمل الحي نيابةً عنه، ويأتي في مقدمتها الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ ينتفع به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» ومن الواضح أن العمل ينقطع بالموت ولكن ثواب العمل لا ينقطع. فالصدقة الجارية دائمةٌ وثوابها متجددٌ وكذلك العلم يشبه الصدقة من حيث دوام الانتفاع به وتجدد الثواب عليه، والولد الصالح الذي أحسن أبوه تربيته ونشأه على طاعة الله هو أثرٌ من آثار والده. وقد أجمع العلماء على أن الدعاء للموتى بالمغفرة يصل ثوابه إليهم، وقد نقل هذا الإجماع الإمام النووي في شرح صحيح مسلم واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالّذِين جَاؤُوا مِن بَعْدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِر لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الّذين سَبَقُونَا بِالإِيمَان﴾.

والعبادات ذات الصفة البدنية والمالية كالحج، قد أجاز أكثر العلماء أن يحج الحي عن الميت، لما روي في الصحيح أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال يا

رسول الله إن فريضة الحج أدركت أبي وهو شيخٌ كبيرٌ لايثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال: «أرأيت إن كان عليه دينٌ أكنت قاضيه؟» قال: نعم قال: «فدين الله أحق أن يقضى». وسأله رجلٌ آخر قال: يا رسول الله كان لي أبٌ كنت أبره، وفي روايةٍ أخرى: كان لي والدان كنت أبرهما فكيف ببرهما بعد الممات؟ قال ﷺ: «تصلي لهما مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك».

وقد أمرنا إذا دخلنا المقابر أن نقول السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين أنتم السابقون ونحن اللاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية. وروي عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ قال يا رسول الله إنا نتصدق عن موتانا وندعو لهم ونحج لهم أفيصل ذلك إليهم؟ قال: «نعم يصل وإنهم ليفرحون بذلك كما يفرح أحدكم بالطبق يهدى إليه».

يفهم من ذلك أن الدعاء للميت مقبولٌ باتفاق العلماء وينتفع الميت به إن كان من قومٍ صالحين كما أن أداء الصدقات التي كانت واجبةً عليه صحيحٌ ومقبولٌ. أما أداء العبادات البدنية من صلاةٍ وصومٍ فهو موضع خلافٍ لأن العبادة البدنية لا تقبل النيابة والله أعلم.

الوضوء سلاح المؤمن

قال لي صاحبي: إنني عودت نفسي عادةً حسنةً أعجبتني فألزمت نفسي بها حتى ألفتها ولم أعد أتركها هي أنني وجدت أن الوضوء سلاح المؤمن كما يقولون، فصرت كلما انتقض وضوئي جددته في الحال، فأنا كما ترى أبقى دائماً على وضوء.

وفكرت في هذا الذي ذكره صاحبي فوجدته عملاً حسناً، لأن المسلم مكلفٌ بتأدية خمس صلواتٍ في اليوم، فربما حل وقت الصلاة ولم يكن متوضئاً ولم يجد ماءً فإنه يبقى في حيرةٍ من أمره وقد يكون الماء في مكانٍ آخر قريبٍ منه فإذا ذهب إليه فاته فضيلة الجماعة القائمة، والأمر سهلٌ إذ إن الماء في المدن والحواضر متوفرٌ بحمد الله، فلماذا لا يخرج أحدنا من بيته متوضئاً، ولماذا لا يبادر إلى تجديد وضوئه المنتقض إذا تيسر له ذلك؟ إن الوضوء يفيد في بقاء الوجه والأطراف نظيفةً، والنظافة من الإيمان، وهو يهب لصاحبه نشاطاً يشعر به عقب الوضوء فيحس كأنه نشط من عقالٍ ويزول عنه الخمول والكسل، ولذلك ورد أن أحدنا إذا نام عقد الشيطان في جسمه ثلاث عقدٍ فإذا نهض انحلت العقدة الأولى، فإذا توضأ انحلت العقدة الثانية فإذا صلى انحلت العقد كلها واستعاد كامل نشاطه.

وقد روى ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمنٌ» رواه ابن ماجه بإسنادٍ صحيح. وروى عبدالله بن بريدة عن أبيه رضي الله

عنهما قال: أصبح رسول الله ﷺ يوماً فدعا بلالاً فقال: «يا بلال بم سبقتني إلى الجنة إني دخلت البارحة الجنة فسمعت خشخشتك أمامي». فقال بلالٌ: يا رسول الله ما أذنت قط إلا صليت ركعتين، ولا أصابني حدثٌ قط إلا توضأت عنده، فقال رسول الله ﷺ: «لهذا». رواه ابن خزيمة في صحيحه. يستدل من هذا الحديث أن الله سبحانه رفع درجته في الجنة بسبب محافظته على الطهارة والوضوء فكلما حصل ناقضٌ لوضوئه جدده في الحال.

وقد ذكر بعض السلف أن الوضوء على الوضوء نورٌ على نور، ونختم حديثنا بما روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه دعا بماءٍ فتوضأ ثم ضحك فقال لأصحابه: ألا تسألوني ما أضحكني؟ فقالوا: ما أضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ كما توضأت ثم ضحك فقال: «ألا تسألوني ما أضحكك» فقالوا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: «إن العبد إذا دعا بوضوءٍ فغسل وجهه حط الله عنه كل خطيئةٍ أصابها بوجهه فإذا غسل ذراعيه كان كذلك وإذا طهر قدميه كان كذلك». رواه الإمام أحمد بإسنادٍ جيدٍ.

سجدة الشكر

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِن بَعدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَه﴾ . . لقد منَّ الله على عباده وأنزل الغيث عليهم ونشر فيهم رحمته وهو أرحم بعباده من الأم بولدها، ووجب على العباد أن يشكروه، لأن شكر المنعم واجبٌ، ورد في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفطَّر قدماه، أي تتشقق قدماه فقالت له عائشة رضي الله عنها أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» وذكر الله نوحاً في كتابه وقال عنه ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدَاً شَكُورَاً﴾ . . كان يشكر الله على نعمه ولا يرى الخير إلا من عنده. قال قتادة: كان إذا لبس ثوباً قال بسم الله فإذا نزعه قال الحمد لله، وروى غيره أنه كان يحمد الله على طعامه وعلى شرابه وعلى جميـع نعم الله عليه.

ونريد أن نذكر القراء بسجدةٍ تسمى (سجدة الشكر) ذكرها الفقهاء في باب النوافل، وهي مستحبةٌ للمسلم في وقت سروره بالنعمة فيكون شكرها بالسجود، فمن رزقه الله تعالى مالاً أو ولداً، أو وجد ضالته أي شيئاً كان ضائعاً منه، أو شفى الله له مريضاً أو قدم عليه غائبٌ أو دفع الله عنه بلاءً أو مصيبةً، فإنـه في هذه الأحـوال وأمثالهـا يسجد شكـراً لله وهي كسجدة التلاوة.

وقد ورد في الحديث عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أتاه أمرٌ يسره خَرَّ لله ساجداً شكراً لله تعالى، وذكر البيهقي أن علي بن أبي

طالبٍ لما كتب إلى النبي ﷺ بإسلام قبيلة همدان خر ساجداً ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان مرتين»، وعن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ سجد شكراً لما جاءه البشرى من ربه أنه من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه، وعن سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رفع يديه فسأل الله ساعةً ثم خر ساجداً ثلاث مراتٍ ثم قال إني سألت ربي وشفعت لأمتي فأعطاني ثلث أمتي فخررت ساجداً شكراً لربي ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني الثلث الثاني فخررت ساجداً شكراً لربي ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني الثلث الآخر فخررت ساجداً لربي، ذكره الإمام ابن القيم في زاد المعـاد..

وقد روي عن الصحابة الكرام سجود أبي بكرٍ لفتح اليمامـة وقتل مسيلمة، وسجود عمر عند فتح اليرموك وسجود علي بن أبي طالبٍ حين وجد ذا الثُّدَيَّة في قتلى الخوارج وسجود كعب بن مالكٍ حين جاءته البشرى بتوبة الله عليه... ونحن ندعو القراء إلى إحياء هذه السنة لا سيما وأن نعم الله علينا كثيرةٌ وآخرها نعمة المطر التي يُحيـي الله بها الناس فله الشكر والحمد والمنة.

علاج الأرق

الأرق هو عدم استطاعة النوم، يأوي الإنسان إلى فراشه لينام فيفر النوم منه فلا يجد إليه سبيلاً، ويقول الأطباء إن أسباب الأرق الاضطرابات النفسية، والإجهاد في العمل، ويصفون بعض العلاجات لتفادي الأرق منها الاغتسال قبل النوم وتجنب الأكل الكثير الذي يؤدي إلى عسر الهضم، وعدم التفكير في هموم الدنيا ومتاعبها، والنظر إلى الحياة بعين التفاؤل.

هذا ما يوصي به الأطباء للتخلص من الأرق ووطأته الشديدة على الجسم وعلى النفس، ولو نظرنا إلى الموضوع من الزاوية الإسلامية لاهتدينا إلى علاجٍ جديدٍ لا يعرفه أطباء الأبدان تسمى (قيام الليل) وهو أن ينام الإنسان من أول الليل ساعاتٍ قليلةً ثم ينهض من فراشه في جوف الليل ويتوضأ ويقف بين يدي ربه قائماً وراكعاً وساجداً، ويصلي ما دام يجد نشاطاً في بدنه فإذا كلَّ أو تعب عاد إلى النوم ساعاتٍ قليلةً حتى يسمع أذان الفجر فينهض ملبياً دعوة الله وما أحسب مثل هذا الرجل يعرف معنى كلمة الأرق لأنه ينام ملء عينيه راضي النفس مطمئن البال يتغلب يقينه على همومه لأنه قام يناجي ربه مسلماً إليه أمره متوكلاً عليه. راجياً أن يجعله الله سبحانه من عباد الرحمن الذين وصفهم بأنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً، يجعلون الصلاة بديلاً من النوم يلتذذون بمناجاة ربهم أكثر من تلذذهم بالرقاد.

وقيام الليل لا يعرفه في زماننا هذا إلا نفرٌ قليلٌ ممن وفقهم الله للصالحات فلم تفتنهم زخارف الدنيا ولم يجرفهم تيار ملذاتها، أما سلفنا

الصالحون فقد كانوا يداومون عليه فمنهم من كان يحيي الليل كله بالصلاة والعبادة والذكر وطلب العلم. ومنهم من كان يقوم ثلثيه أو ثلثه أو ما تيسر منه، قال تعالى: ﴿ يا أيّها المُزَّمِّلُ قُمِ الليلَ إلّا قليلاً، نِصْفَه أوِ انْقُصْ منه قليلاً أو زِدْ عليه ورَتِّلِ القرآنَ تَرْتيلاً ﴾. قيل للحسن ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره، وكان كثيرٌ من الصالحين يصلي الصبح بوضوء العشاء ويروى أن أربعةً ختموا القرآن في ركعةٍ هم عثمان بن عفان وتميمٌ الداري وسعيد بن جبيرٍ وأبو حنيفة رضي الله عنهم جميعاً وكان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تورمت قدماه وقد غفر الله له ذنوبه ويقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» وقال له رجلٌ ادع الله أن يجعلني رفيقك في الجنة فقال له عليه الصلاة والسلام: «أعنِّي على نفسك بكثرة السجود»... ونحن ننصح من ابتلى بالأرق وعدم النوم أن يجرب هذا العلاج ولو مرةً واحدةً فإنه سيشعر بلذته وفائدته ومن ذاق عرف.

الإيمان بالله

نشرت بعض الصحف منذ سنواتٍ خلت أن أحد رواد الفضاء في روسيا قال إنه ذهب إلى السماء وطار فيها وحاول في أثناء طوافه فيها البحث عن الله سبحانه وتعالى فلم يجده. وليس هذا الرائد هو أول من قال هذا الكلام، بل سبقه إليه كثيرون من الحمقى وأهل الزيغ والضلال ومنهم فرعون حين خاطب وزيره هامان بقوله: ﴿يَا هَامَانُ ٱبنِ لِي صَرْحَاً لَعَلِّي أَبْلُغ الأَسْبَاب أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وإني لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾. ولو كان هذا الرائد من العقلاء المنصفين لزاد إيمانه بمشاهدة هذا الفضاء الواسع مع أنه في الواقع لم ير إلا ذرةً صغيرةٍ في الكون ليست أكبر من نقطةٍ في بحرٍ أو ذرة رملٍ في الصحراء، وكيف يستطيع مخلوقٌ صغيرٌ مثله أن يرى الله سبحانه الذي يقول في كتابه العزيز ﴿ لا تُدرِكُه الأبصارُ وهو يُدرِكُ الأبصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِير ﴾ وإن هذا الرجل وأمثاله شرٌ من المشركين فقد عرف الله بعضهم في الجاهلية وهذا قس بن ساعدة الذي استدل بالمخلوفات على الخالق حين قال في خطبته المشهورة: (سماء ذات أبراج وأرضٌ ذات فجاج وبحارٌ ذات أمواج، البعرة تدل على البعير، والقدم يدل على المسير، أفلا يدل هذا الكون على اللطيف الخبير؟).

فالذين يجحدون وجود الله سبحانه بسبب عدم رؤيته يذكروننا بموقف موسى عليه السلام إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِني أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فعلمه الله أن البشر لم يهيأوا لرؤيته ولفت نظره إلى الجبل فقال: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ ٱنْظُرْ إِلَى ٱلجَبَلِ فَإِنِ ٱستَقَرَّ

مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِين﴾.

ونحن لا نرى حاجةً لتقديم الأدلة على وجود الله تعالى، لأن الدليل على وجوده قائمٌ في كل شيءٍ فكل شيءٍ نراه في السماء وفي الأرض يدلنا على وجوده تعالى، وليس كل موجودٍ يمكن أن يرى بالعين فهل نستطيع أن نرى الروح، أو حاسة الذوق في اللسان أو العقل الذي نفكر به.

إننا نعتقد أن الإيمان بالله أعظم نعمةٍ لأنها تضفي على حياتنا جواً رائعاً من الهناء والسعادة وتبعث في نفوسنا الراحة والطمأنينة، أما هؤلاء الملحدون فإنهم يعيشون في قلقٍ واضطراب وفي حيرةٍ، وهم يحسون بذلك حتى إن أحدهم قال: إنما أحسدكم أيها المؤمنون على هذه الطمأنينة التي تتحلون بها. وإن قوله هذا يذكرنا بالآية الكريمة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ في قلوب المُؤمِنين لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.. وبغير هذه السكينة لا يستطيع الإنسان أن يحيا حياةً هادئةً مطمئنةً في دعةٍ وهدوءٍ واستقرار.

حق المسجد

في الأيام التي تسبق موعد الامتحانات في المدارس، اعتاد الطلاب أن ينتشروا في الحدائق العامة والأماكن الخالية المنعزلة والمساجد يحملون كتبهم يقرؤون ويدرسون ويحفظون، ونحن لا نرضى لهم أن يتخذوا المساجد مكاناً للدراسة ونرى أنه من الأفضل لهم الابتعاد عنها لمثل هذه الغاية، لأنه قد ثبت بالتجربة أن نفراً منهم يخرج عن الحدود المفروضة عليه في احترام المساجد ولا يراعي مكانتها ولا منزلتها ولا حرمتها ومن أبى منهم إلا دخولها واتخاذها مقراً للحفظ والدرس فعليه أن يعرف لها حقها.

والمساجد كما هو معروفٌ هي بيوت الله أنشئت لعبادته وذكره قال تعالى: ﴿ وأنّ المسَاجدَ لله فلا تَدْعو معَ الله أحداً ﴾ وقال تعالى: ﴿ في بيوتٍ أذِنَ الله أنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُه ﴾، وقد أُضيفَتِ المساجدُ لله أضافةَ تشريفٍ وتكريمٍ، وإنّ قوله تعالى: ﴿ فلا تَدْعو معَ الله أحداً ﴾ معناه أفردوا المساجد لذكر الله ولا تتخذوها هزواً ومتجراً ومجلساً، ونحن مأمورون باحترام بيوت الله وصونها عن الأذى وعن الروائح الكريهة وعن الأقوال السيئة، وقد صح من حديث ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في غزوة تبوك: «من أكل من هذه الشجرة ـ يعني الثوم ـ فلا يأتين المساجد». قال العلماء: إذا كانت العلة في ذلك إيذاء الناس فيقاس عليه كل أنواع الأذى من رفع الصوت والصياح وكثرة الحركة واللعب وأشباه ذلك، وقالوا أيضاً: يجب أن تصان المساجد عن البيع والشراء وجميع الأشغال ويروى أن النبي ﷺ قال لمعاوية

ابن الحكم السلمي: «إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»، وفي رواية مسلمٍ: «إن هذه الصلاة».

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صوت رجلٍ في المسجد فقال: ما هذا الصوت؟ أتدري أين أنت؟ وكره بعض العلماء تعليم الصبيان في المساجد لأنهم لا يتحرزون عن الأقذار والوسخ فيؤدي ذلك إلى عدم نظافة المساجد مع أن النبي ﷺ أمر بتنظيفها وتطييبها.

ونحن نذكر لأبنائنا الطلاب بعض آداب المسجد، منها أن يسلم قبل الدخول، وأن يركع ركعتين قبل أن يجلس ولا يرفع فيه صوته ولا يتحدث بأحاديث الدنيا ولا يتخطى رقاب الناس ولا ينازع أحداً على مكان الجلوس ولا يمر بين يدي المصلين ولا يلقي على أرض المسجد شيئاً من الورق أو الوسخ ولا يلعب فيه ولا ينام. قال أبو إدريس الخولاني: المساجد مجالس الكرام من الناس. فكن أيها الطالب من هؤلاء الكرام واعرف لبيت الله حرمته والزم فيه الأدب والحياء والسكون ولا تؤذ أحداً من الناس فإن لم تستطع ذلك فاجعل مطالعتك ودراستك خارج المسجد يكن خيراً لك.

الأخذ بالأسباب

إن الإسلام دين السعي ودين العمل، لا يعرف البطالة ولا التكاسل ولا العجز، وهو يعتبر العمل أساس السعادة في الدارين، يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله يكره أن يكون أَحَدُكُم لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة»، وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ تدعو إلى السعي والعمل كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَه سَوْفَ يُرَى﴾، وقوله تعالى: ﴿ فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانْتَشِروا في الأرضِ وابْتَغُوا مِنْ فضل الله ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خيرٌ من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه». وإن المعنى المقصود من السعي هو اتخاذ الأسباب والوسائل المؤدية إلى الحصول على ما يحتاجه المرء في هذه الحياة شريطة أن يكون مما أباحه الله، ولا بد لنجاح السعي من يَدٍ ترشده وتدعمه وتسدده، وهذه اليد هي الثقة بالله سبحانه، والتوكل عليه، والاعتقاد بأن أمور الخلق في يده وهو الذي يوفق المرء في عمله، وهذا هو معنى الحديث الشريف: «اعقل وتوكل».

وقد فهم السلف الصالح من المسلمين أن طلب الرزق مبنيٌ على السعي ومبنيٌ على الأخذ بالأسباب فكان لكل واحدٍ من المسلمين حرفةٌ، وكان أبو بكرٍ رضي الله عنه تاجراً ولما وسدت إليه الخلافة خرج إلى السوق فقال له عمر رضي الله عنه: أين تذهب يا أمير المؤمنين؟ فأجابه قائلاً: أسعى لأطعم عيالي، قال: أنت اليوم أجير المسلمين فكل من بيت المال. وكان عمر

نفسه تاجراً وكان دلّالاً يسعى بين البائع والمشتري وكان يقول: إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللاً يروح ويغدو في غير شيءٍ ولا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يعلم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضةً، وكان كلما رأى رجلاً عاطلاً ضربه بالدرَّة حتى أرهب الناس ودفعهم إلى العمل.

وكان النبي ﷺ يعد العدة بالسلاح، ويحفر الخندق، ويجهز الجيوش، واستعان في هجرته إلى المدينة بدليلٍ مشركٍ، وكان يقول: «ما بعث نبيٌ إلا رعى الغنم» قالوا حتى أنت يا رسول الله؟ قال: «حتى أنا كنت أرعى الغنم لقريش على قراريط» وكان يقول: «ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

والفلاح يزرع الزرع ويرمي البذر ويسقيه ويتعهده بالعناية والرعاية ثم يتوكل على الله سبحانه ويطلب منه الثمرة ويعتقد أن الثمرة منه سبحانه وتعالى، والأسباب لا تقتضي حتماً الوصول إلى المطلوب، لأن ذلك بيد الله سبحانه، وإذا سعى المرء ولم يتوكل بعد ذلك على الله خذله الله ولم يهب له العون والتوفيق.

القيام بالقسط

القسط هو العدل، وقد أمرنا الله سبحانه أن نقوم به خير قيامٍ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الّذين آمَنُوا كُونُوا قَوَّامين لله شُهداءَ بالقِسْطِ ﴾، فالمؤمن مأمورٌ بالقيام بحقوق الله تعالى من صلاةٍ وزكاةٍ وسائر العبادات، والقيام بحقوق العباد بالإنصاف والعدل من غير ميلٍ ولا جور. وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُم أَو آلوَالِدَيْن وَالأَقْرَبِينَ ﴾. فالعدل مطلوبٌ في الحالات كلها ولا يكون المؤمن قائماً به إلا إذا كانت فيه ثلاث خصالٍ: أولاها أن يعدل في نفسه، وثانيها أن يكون العدل طبيعةً ملازمةً له وسجيةً لا تفارقه، وثالثها أن يعدل مع غيره وأن يعمل على منع الظلم حيث كان.

وأرشدتنا الآية الكريمة إلى وجوب مراعاة العدالة في أنفسنا وأهلنا وأولادنا وأصحابنا وكل من يتصل بنا، قال المفسرون: إن الشهادة على النفس هي الإقرار عليها بما ارتكبت من مخالفاتٍ وآثامٍ والشهادة على الوالدين والأقربين واجبةٌ ولو أدت إلى الإضرار بهم أو حرمانهم من بعض المزايا التي يطلبونها، فالمؤمن لا ينطق إلا بالحق ولو كانت العاقبة إلحاق الأذى بالوالدين والأقربين فالمحاباة على حساب الغير ظلمٌ، وصلة الرحم لا تبرر الظلم، وليس من الإحسان أن تقر والديك على الظلم، بل إن منعهما منه هو العدل وهو الإحسان إليهما.

قال قتادة في معنى هذه الآية: أقم الشهادة يا ابن آدم ولو على نفسك أو

الوالدين أو الأقربين أو على ذي قرابتك وأشراف قومك، فإنما الشهادة لله وليست للناس، وإن الله تعالى رضي بالعدل لنفسه، والإقساط والعدل ميزان الله في الأرض، به يرد الله من الشديد على الضعيف ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحق، وبالعدل يصلح الناس. انتهى كلامه.

وقد يكون سبب الانحراف في العدل أو الشهادة أن تكون الخصومة بين غنيٍّ وفقير، قال تعالى: ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾، فلا يصح أن نحكم لغنيٍّ بسبب غناه ولا أن نحرم فقيراً من حقه بسبب فقره، لأن الحاكم العادل يستوي في نظره القوي والضعيف والقريب والبعيد والغني والفقير وقد ورد أن الله مع القاضي ما لم يَجُرْ في حكمه أي ما لم يتعمد الظلم فيه فإذا جار تخلى الله عنه.

وإن الميل في الشهادة أو في الحكم يكون سببه اتباع الهوى قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ لأن الواجب على القاضي أن يتحرى الحقائق بروية وأناةٍ وبحثٍ وتدقيقٍ من غير ميلٍ مع العواطف والنزوات النفسية، لأن الهوى من الشاهد أو من القاضي يذهب بالحق ويضيعه وورد أن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمامٌ عادلٌ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمامٌ جائرٌ.

مِنْ أحكام الإسلام

الباقيات الصالحات

كل واحدٍ منا يطلب من ربه المغفرة والرحمة، ويسأله أن يجعله من أهل الجنة، ولكن الهمم أصبحت فاترةً، وأصبح انصرافنا إلى أمور الدنيا لا يترك لنا وقتاً للاستعداد للآخرة، ولكن هناك أنواعاً من العبادات قد وردت الأحاديث في فضلها وكثرة ثوابها وهي مع ذلك سهلةٌ يستطيع كل إنسانٍ أن يؤديها مهما ضاقت أوقاته وكثرت مشاغله، خذ لذلك مثلاً ركعتي الوضوء وركعتي الضحى، فإن الواحد منا لا يعجز أن يصلي ركعتين بعد الوضوء، ولا يعجز أن يصلي في الصباح قبل الخروج إلى عمله ركعتي الضحى، وإذا أراد أحدنا النوم بعد انقضاء وقت السهرة فإن من السهل عليه أن يتوضأ ثم يأوي إلى فراشه ليشعر بالنشاط ولينام على طهرٍ. . . هذه كلها على ما نعتقد أعمالٌ لا مشقة فيها ولا تأخذ كثيراً من أوقاتنا فإذا وطن أحدنا نفسه على التزامها والمداومة عليها صارت عادةً له، ونال بسببها الثواب من ربه.

ومثل ذلك أيضاً تحريك اللسان بذكر الله في ساعات الفراغ أو أثناء السير أو في السيارة مثلاً أو عند الانتظار، وأنواع الذكر وألفاظه كثيرةٌ وكلها سهلةٌ خفيفةٌ على اللسان تعطينا بعض الثواب الذي يمحو بعض سيئاتنا وهي سيئاتٌ كثيرةٌ تتراكم كل يوم.

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَالبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلا ﴾ وهذه الباقيات الصالحات هي كما قال ابن عباسٍ رضي الله عنه: إنها كل عملٍ صالحٍ من قولٍ أو فعلٍ يبقى للآخرة. قال علي بن أبي

طالبٍ رضي الله عنه: الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوامٍ. ووردت هذه الكلمة في بعض الأحاديث الشريفة كالحديث الذي أخرجه النسائي عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «الباقيات الصالحات لا إلّه إلا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله». وقد ورد في حديثٍ آخر أن المسلم إذا قالها تحاتت خطاياه كما تحط الشجرة ورقها.

أما صلاة الضحى فقد ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أوصاني خليلي ﷺ بصيام ثلاثة أيامٍ من كل شهر وركعتي الضحى وأن أوتر قبل أن أرقد.. وروى مسلم في صحيحه عن أبي ذرٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقةٌ فكل تسبيحةٍ صدقةٌ وكل تحميدةٍ صدقةٌ وكل تهليلةٍ صدقةٌ وكل تكبيرةٍ صدقةٌ وأمرٌ بالمعروف صدقةٌ ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ، ويجزيء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»، صدق رسول الله ﷺ.

الأذكـــار

رجع صاحبي من السوق وهو يحمل في يده ثوباً جديداً اشتراه، وأحب أن يستمتع به فنزع ثوبه القديم وارتدى الجديد فنصحته أن يدعو بالدعاء المأثور لمن لبس ثوباً جديداً، فقال: وما علاقة هذا بالدين؟ فقلت له: إن الميزة الكبرى التي امتاز بها الإسلام أنه يصبغ المسلم بصبغته ويرافقه في شرابه وطعامه، وفي جلوسه وقيامه، وفي يقظته ومنامه، وفي كل حالةٍ من حالاته وكل أمرٍ من أموره، لكي يشعر المسلم في كل ساعةٍ من ساعات عمره بهذه الصلة التي تصله بربه وبهذه الرابطة التي تربطه بخالقه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر الله مثل الحي والميت» رواه البخاري ومسلم. وربما قال قائلٌ إن أمور الدنيا من مأكلٍ ومشربٍ وملبسٍ مستقلةٌ عن الدين، وليس هذا صحيحاً، لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَمَا بِكُم مِن نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾، فما دام الله سبحانه قد منَّ عليك بالطيبات وأنعم عليك بها أفلا ترى نفسك مأمورةً بالشكر عليها، والمسلم لا يعيش في جوٍّ ماديٍّ خالصٍ كما يعيش الغربيون، بل إنّ الناحية الروحية تغمر قلبه لأن الإسلام قد خالط جسمه وروحه فهو لا ينفك عنه في كل أعماله وفي سائر تصرفاته..

وماذا تخسر أيها المسلم إذا قلت عند الطعام أو بعده: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوةٍ، وماذا يضيرك إذا لبست ثوباً جديداً أن تقول: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوةٍ؟ إنك إن فعلت ذلك شعرت بحلاوة الإيمان وأرضيت ربك بتنفيذ وصايا

رسوله ﷺ ويزيدك الله سبحانه من فضله لقوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُم لأَزِيدَنَّكُم ﴾. وانظر إلى هذا التوجيه النبوي الكريم روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من جلس مجلساً كثر فيه لغطه ـ أي أحاديثه المتنوعة ـ فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إلّه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»، رواه أبو داود والترمذي ولا شك أن هذا الدعاء الجميل يملأ النفس خشوعاً ويخفف من ذنوب اللغو، وما أكثره في كلامنا وأحاديثنا. .

وقد ورد أن النبي ﷺ قال: «إذا فَزِع أحدكم في النوم ـ يعني إذا استيقظ من نومه بعد أن رأى مناماً أخافه وأفزعه فليقل: أعوذ بكلمات الله التامّات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون فإنها لن تضره». رواه أبو داود والترمذي.

ستر العورة

يعرف الناس أن ستر العورة من شروط الصلاة، ولا يجهل أحد منهم أن الرجل يستر في الصلاة ما بين سرته وركبته ولا يبدي شيئاً من فخذه، وأن المرأة تستر جميع بدنها ما عدا الوجه والكفين في الصلاة ولا تكشف عن شيء من شعرها ولا بدنها.

هذا شيء يعرفه الناس وينفذونه في صلواتهم.. ولكن الشيء الذي يتساهل فيه بعضهم هو ستر العورة خارج الصلاة وخاصة في بيوتهم مع أقربائهم وأهليهم يستوي في ذلك الرجال والنساء مع أن الشريعة حدّت في هذا الأمر حدوداً منعت تجاوزها وأوجبت على المكلف من الجنسين ستر عورته خارج الصلاة عن كل من لا يحل له النظر إلى عورته، وجعل الفقهاء حدَّ العورة للرجل خارج الصلاة ما بين السرة والركبة فلا يحل له كشف شيء منها أمام أحد من الرجال والنساء إلا زوجته ونحن نرى بعض الناس اليوم يتساهلون في كشف أفخاذهم سواء في بيوتهم مع أقربائهم أو في أسواقهم أمام أصدقائهم ومعارفهم من الرجال، ويفعل ذلك نفر من أصحاب المهن الحرة وبعض العمال وبعض الطلاب ولا يخلو السوق من امرأة تمر فيه فيجب عليهم الامتناع عن ذلك، وإننا نلفت النظر إلى أن الرجل ولو كان في بيته مع أولاده أو إخوته أو أقربائه فإن من الواجب عليه أن يكون مثالاً للحشمة أمامهم لأن مراعاة قواعد الأدب والتقيد بقيود الحياء والتزام الحشمة أمور مطلوبة في كل مكان حتى في البيوت والحياء شعبة من الإيمان وهو الذي يحول بين

المرء وبين المخالفات والمعاصي وهو أصل الخير، ومن لا يستحيي من الناس لا يستحيي من الله. قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: إني لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فأحني فيه صلبي حياء من ربي.

ومن جهة أخرى فإنه من الملاحظ أن بعض النساء لا يتقيدن بالحدود المفروضة عليهن في هذه الناحية فقد ذكر الفقهاء أن حد عورة المرأة خارج الصلاة هو ما بين السرة والركبة إذا كانت مع أقاربها المحارم عليها كأبيها وابنها وأخيها وعمها، وقد نص السادة الحنابلة على أن عورتها مع هؤلاء هي جميع بدنها ما عدا الوجه والرقبة والرأس واليدين والقدم والساق وهذا هو الأصح والأفضل.

أما إذا كانت المرأة مع النساء فإنه يحرم عليها أن تكشف شيئاً مما بين السرة والركبة، وإن النساء يتساهلن في هذا الأمر في زياراتهن واجتماعاتهن ظناً منهن أن المرأة لا تستر بدنها من امرأة مثلها وهذا خطأ يجب التنبيه إليه، نسأل الله أن يلهمنا الستر والحياء.

إقامة الحدود

يقول الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه القيم عن الجريمة والعقوبة: إن المملكة العربية السعودية إذا كانت تقيم الحدود في بلادها، فإن هذه الحدود تقام بها في موسم الحج على كل حجاج بيت الله الحرام لا فرق بين باكستانيٍّ وإيرانيٍّ وأفغانيٍّ ومصريٍّ وانجليزيٍّ وأمريكيٍّ فالجميع خاضعون في هذا لمقتضى الحكم الإسلامي وهم جميعاً في ضيافة الرحمن الذي أنزل هذه الأحكام.

هذا الذي ذكره الأستاذ الجليل يشير إلى مبدأٍ إسلاميٍ معروفٍ هو أن الأرض كلها نوعان دار إسلامٍ ودار حربٍ أو ذمةٍ، وإن الإسلام يعتبر المسلمين جميعاً أمَّةً واحدةً لا فرق بين أبيض وأسود ولا بين عربيٍّ وغير عربي، والدولة الإسلامية في الأصل هي دولةٌ واحدةٌ وهي ذات ولايةٍ على المسلمين أينما كانوا وحيثما حلوا، والمسلم الذي يرتكب جريمةً كالقتل والسرقة والزنا وشرب الخمر، فإن حكم الإسلام في عنقه يتبعه ولا يفارقه لأنه ملتزم به.

واليوم وقد تفرقت كلمة المسلمين وأصبحوا دولاً متعددةً وممالك متفرقةً، ظهرت في كثيرٍ منها قوانين جديدةٌ في العقوبات وغيرها تخالف ما شرعه الله، ولكن هذا لا يغير من الحقيقة الإسلامية شيئاً، لأن المسلم مرتبطٌ بالحكم الإسلامي ومقيدٌ به في كل حالاته، ويجب أن ينفذ عليه في أي مكانٍ وجد فيه، لأن العقاب جزاءٌ يطبق على شخص الجاني جزاء ما ارتكبه

من مخالفة أحكام دينه الذي التزم به، لأن دم المسلم وماله وعرضه لا يمكن أن تذهب كلها هدراً، ولا بد من إقامة الحدود التي شرعها الله، ولا يحق لأي مسلمٍ أن يجتهد في موضوعها ولا أن يفكر في تعديلها أو إلغائها، لأن الله سبحانه هو الذي شرعها وأمر بها وهو أعلم بمصالح عباده، ويجب أن تنفذ على المسلم سواءً أكان في بلده أم في أي بلدٍ آخر من بلاد الإسلام، لأن الإسلام لا وطن له كما ذكرنا. .

وإننا نعتبر تطبيق الحدود في المملكة نعمةً من الله نرجو لها الدوام والبقاء. ولا نقول هذا لغايةٍ في النفس ولا من باب التزلف، ولكننا نقوله إقراراً للحق واعترافاً بالفضل ونسأل الله دوام التوفيق والسداد.

الإذن بالقتال

يقولون إن الحق يعلو ولا يعلى عليه، ونحن نقول إن الحق لا يعلو إلا إذا دافع عنه صاحبه بالقوة، فلا بد لبقاء الحق من قوةٍ تؤيده وتحافظ عليه وتدفع عنه اعتداء المعتدين وكيد الظالمين، وكم من حقٍ تناوشته الأيدي وذهب ضياعاً لعدم القيام بواجب حفظه وتأييده.

وإن النبي ﷺ عند بعثته أمر بالدعوة إلى الله عن طريق الشرح والبيان باللسان من غير استعمال القوة قال تعالى: ﴿ أدْعُ إلى سبيلِ رَبِّك بالحِكْمَةِ والمَوْعِظةِ الحَسَنة وجادِلْهمْ بالَّتي هِيَ أحْسَنُ ﴾، فكان النبي ﷺ يصبر على كفار قريشٍ صبر الحليم الحكيم الذي يريد لأمته الهداية والصلاح والسعادة والفلاح والرفعة والسؤدد، نصحهم فوبخوه، وأرشدهم فسخروا منه ووعظهم فاستهزؤوا به، وأنذرهم فآذوه. قال لهم: «اتقوا الله» فقالوا مجنونٌ، وقال: «اعبدوا الله» فقالوا أتجعل الآلهة إلّهاً واحداً؟ أتاهم بالمعجزات فقالوا ساحرٌ، وقرأ عليهم القرآن فقالوا شاعرٌ، ومع ذلك لم يؤمر باستعمال القوة بل قيل له ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُم﴾، فقابلوه بالعنف والشدة وآذوا أصحابه وأهانوهم حتى اضطروهم للهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة.

واستمرت الحال على ذلك ثلاث عشرة سنة، ولما أبى المشركون أن يستجيبوا للحق رغم وضوحه لم يكن بدٌ من إرغامهم عليه كما يجبر الطفل القاصر على التربية والتعلم حفاظاً على مصلحته التي لا يستطيع أن يدركها

بعقله الصغير المحدود، فجاء الإذن بالجهاد في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلذينَ يُقاتَلون بأنهمْ ظُلِموا وإنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِم لَقَدِير﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الذين يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وكان الغَرَض مِن ذلك تَثْبيتَ دعائم الإسلام، وإعْلاء شأنِ المسلمين، ومَحْقَ الكُفرِ والشِرْكِ والضَلال، وإذلالِ الطُغاةِ المُعْتدين. والإنسانُ إذا كان ضعيفاً تجرأ عليه أصحاب الشر بشرورهم، فإذا أصبح قوياً هابوه وتجنبوه. وبعض النفوس الضعيفة الماكرة لا يصلحها إلا السيف والعبد يقرع بالعصا ولا تكفيه الإشارة.

فأخذ رسول الله ﷺ في إعداد العدة وتنظيم الجيوش وبعث البعوث وإرسال السريا، ثم أخذ يخرج بنفسه لملاقاة النفوس التي جبلت على الشر وطبعت على المكر والكيد والعضو الفاسد في الجسم إذا لم يؤثر فيه العلاج ولم ينفع فيه الدواء فإن المصلحة تقضي بقطعه وبتره وتخليص الجسم منه كي لا يسري الداء إلى الأعضاء الأخرى.

تهمةٌ باطلةٌ

يصرح كثيرٌ من الكتاب الغربيين بأن السبب في تأخر أهل الشرق عامةً والمسلمين خاصةً هو إيمانهم بالقضاء والقدر، فقد دفعهم ذلك إلى الكسل والتواكل وحملهم على الخمول والانصراف عن الجد والسعي والعمل، ويدعي هؤلاء الغربيون أن المسلمين تصيبهم الأمراض والأوجاع ولا يعالجونها اتكالاً منهم واستسلاماً، وأنهم يهملون طلب الرزق قائلين إن ذلك قضاء الله وقدره.

وهذه فريةٌ كاذبةٌ وتهمةٌ باطلةٌ لا يقول بها إلاّ كل عدوٍّ لله ولا يروجها إلا كل جاهلٍ بروح الإسلام والغربيون يحاربون الإسلام وأهله بهذا السلاح الذي يخدع بعض ضعاف العقول من المنتمين للإسلام.

ونحن نقول لهم إن الإسلام دين جدٍّ وسعيٍ وعملٍ وليس دين تواكلٍ وخمولٍ وكسلٍ، قال تعالى: ﴿ فامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾. ويقول النبي ﷺ: «إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا». ومن نظر في كتب التاريخ وقرأ أخبار الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب لعرف أن أبطال المسلمين وشجعانهم هم الذين فتحوا الممالك وثلوا العروش وأدالوا دول الشرك والبغي والطغيان وأقاموا على أنقاضها دولة الإسلام الكبرى على دعائم متينةٍ من الحق والخير والإحسان، وازدهرت في أيامهم العلوم والمخترعات وقد كانت دمشق وبغداد والقاهرة والبصرة والكوفة والقيروان وقرطبة ومكة والمدينة مدارس للعلم

والمعرفة انتشر منهـا النور فعم أرجاء الأرض وشمل أقطار الدنيا، فهل وصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه من هذا المجد الباذخ بـالخمول والكسـل وبالاستسلام إلى الراحة والدعة والنوم؟.

وعقيدة القضاء والقدر توجب على المسلم أن يبذل جهده في السعي والعمل واتخاذ الأسباب الممكنة التي تدخل في نطاق قدرته، ثم يفوض أمره إلى الله من بعد ذلك كالزارع الذي يحرث الأرض ويلقي فيها البذور ويسقيها ويتعهدها بالعناية والرعاية ثم ينتظر ما قدره الله من الثمرات. ومثل ذلك التاجر والعامل وأصحاب المهن والطلاب وغيرهم يأخذ كل واحدٍ منهم بالأسباب كلها مما يقدر عليه، ويرجو من ربه التوفيق والنجاح في النتائج التي لا يقدر عليها.

والغربيون يعرفون أن الإيمان بالقضاء والقدر هو الذي مكن للمسلمين في الأرض وهو الذي علمهم الصبر واحتمال الشدائد، فهم يريدون الطعن في هذه العقيدة لإضعاف النفوس المؤمنة الصابرة المجاهدة، ولو نظرنا إلى حوادث الانتحار لوجدناها كثيرةً بين الغربيين البعيدين عن روح الإسلام لأن أحدهم يصيبه القنوط واليأس فينتحر، فيكون بذلك قد خسر الدنيا والآخرة.

الأبيض والأسود

ما تزال مسألة اضطهاد الزنوج في إفريقية تشغل بال هيئة الأمم، وما يزال موضوع التفرقة بين الأبيض والأسود موضع الشكوى في بعض بلاد الغرب حيث يقدم البيض على اضطهاد السود لا لذنبٍ اقترفوه ولا لخطأٍ ارتكبوه بل لمجرد سواد بشرتهم فهم يضطهدونهم في المطاعم والفنادق وفي القطارات والسيارات العامة، ويطاردونهم في الشوارع ويركلونهم بالأقدام ويمنعونهم من دخول المدارس الثانوية والجامعات، حتى بلغ بهم الأمر إلى عدم المساواة بين الفريقين أمام القانون، فقد سمعنا أن زنجياً سرق دولارين ونصف الدولار من سيدةٍ بيضاء فحكم عليه بالإعدام مع أن القانون هناك لا يقضي بمثل هذا الحكم عندهم، ووصل الاضطهاد إلى بيوت العبادة فالسود في بعض البلاد ممنوعون من دخول كنائس البيض كأن لهؤلاء رباً ولأولئك رباً وقد قرأنا في إحدى الصحف أن قسيساً زنجياً ذهب يصلي في الكنيسة فاعتدت عليه امرأةٌ بيضاء وقتلته.

وهذه الأخبار تذكرنا بقصةٍ تاريخيةٍ حين فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدينة القدس وأقام الصلاة في المسجد الأقصى، واشترك في الصلاة أربعة آلاف صحابيٍّ، فلما أذن للصلاة وكان المؤذن بلالاً رضي الله عنه بكى المسلمون لأنهم لم يسمعوا أذانه منذ وفاة النبي ﷺ وبهذه المناسبة قال عمر رضي الله عنه: (بلالٌ سيدنا وأعتقه سيدنا) فلم يمنعه سواد لونه من أن يقول عنه إنه سيدنا.

ولم يعرف الإسلام هذه التفرقة العنصرية بين الألوان والأجناس فقد جمع تحت رايته بلالاً الحبشي وصهيباً الرومي وسلمان الفارسي وغيرهم، ونبغ في المسلمين كثيرون من هؤلاء السود. وهذا عطاء بن أبي رباحٍ سيد التابعين علماً وعملاً ومفتي مكة وفقيهها وخليفة ابن عباسٍ في الإفتاء والذي كان يقال عنه لأهل مكة كيف كان عطاءٌ فيكم؟ فيجيبون كان مثل العافية لا يعرف فضلها حتى تفقد، هل تعرفون كيف كان عطاءٌ هذا؟ كان أسود، أعرج، أفطس، أشل، مفلفل الشعر ثم كف بصره وكانت أمه أمة سوداء تسمى (بركة).

ولا ننسى أبا ذرٍ الغفاري حين تغاضب مع بلالٍ الحبشي وعيره أبو ذرٍ بقوله: (يا ابن السوداء) فشكا بلالٌ إلى رسول الله ﷺ فغضب عليه الصلاة والسلام غضباً شديداً وقال له: «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهليةٌ ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضلٌ إلا بالتقوى والعمل الصالح».. أيها القرّاء قارنوا واحكموا.

تخفيف الصلاة

إذا كنت قائماً تصلي وحدك فمن الخير لك أن تطيل صلاتك في سائر مراحلها من قيامٍ وقراءةٍ وركوعٍ وسجودٍ وأن تستشعر في قلبك الخشوع، خاصةً إذا كنت بعيداً عن أعين الناس فإن ذلك أبعد عن الرياء، ولكنك إذا كنت في الصلاة إماماً للناس وهم قائمون خلفك مقتدون بك، فإن التطويل في هذه الحال غير مستحسنٍ لأنك لا تدري عنهم ولا تعرف شيئاً من أحوالهم وقد يكون في التطويل إلحاق الضرر بواحدٍ منهم، وإلى هذا أشار النبي ﷺ فيما روى عنه أبو هريرة رضي الله عنه بقوله: «إذا أمَّ أحدكم الناس فليخفف، فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء». رواه مسلمٌ في صحيحه والمقصود منه مراعاة حال المقتدين إذ لا يخلو أحدهم عن ضعفٍ أو عجزٍ أو عجلةٍ من أمره لحاجةٍ ضروريةٍ يود قضاءها، فليس من الرحمة ولا من العدل أن نؤذيهم بتطويل الصلاة.

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: ما صليت وراء إمامٍ قط أخف صلاةً ولا أتم من النبي ﷺ وإن كان ليسمع بكاء الصبي فيخفف مخافة أن تفتن أمه. ويفهم من هذا أن تخفيف الصلاة من أجل بكاء الصبي فيه مراعاة لحقوق الغير، وتخفيفها في هذه الحال كمالٌ لها، وسدٌ لباب الفتنة، ودعوة القوي إلى مراعاة حال الضعيف إذا اجتمع معه على أمرٍ وذلك كما ورد في الأثر: سيروا بسير أضعفكم، فليس من السنة أن يطيل الإمام في صلاته بالناس ولا سيما في هذا العصر الذي

يسمى عصر السرعة والذي كثرت فيه الشواغل والذي ضعفت فيه الهمم، وكثيرٌ من الناس لا يستطيع أن يمسك على وضوئه مدةً طويلة.

جاء عن أبي مسعودٍ الأنصاري رضي الله عنه قال جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلانٍ مما يطيل بنا، فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظةٍ قط أشد مما غضب يومئذٍ فقال: «يا أيها الناس إن منكم منفرين فأيكم أمَّ الناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة». ولهذا السبب كره العلماء للإمام أن يطيل في صلاته، حتى إن السادة الحنفية قالوا إنه يكره للإمام تحريماً التطويل فيها.

وأخيراً نريد أن نلفت أنظار القراء إلى أن للتخفيف في الصلاة حدوداً لا ينبغي تجاوزها، إذ لا بد من إقامة الأركان من قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ وقعودٍ ولا بد من الاطمئنان في كل واحدٍ منها وعدم الإخلال بها، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن نقر الغراب، ورأى رجلاً يصلي فلم يتم ركوعه فقال له: «ارجع فصل فإنك لم تصل».

نصف العلم لا أدري

يقول العلماء: إن نصف العلم لا أدري، يريدون من ذلك أن يتريث الإنسان في الحكم على الأشياء ولا يتكلم فيها إلا إذا عرفها على حقيقتها وأحاط بها علماً كي يكون قوله صائباً بعيداً عن الخطأ والزلل والعلم بحرٌ واسعٌ بعيد الغور متلاطم الأمواج وكلما ازداد الإنسان علماً ازداد جهلاً لأنه يرى ما تعلمه بالنسبة إلى كثرة المعارف والعلوم قليلاً كقطرةٍ من البحر.

ولهذا السبب فليس من العيب أن يقول أحدنا كلمة (لا أدري) لما لا يعلمه، وهذا أفضل من أن يتكلم بغير علمٍ فيفضح نفسه ويضل غيره. وإذا كان هذا واجباً على الناس كافةً فإنه على المرشدين والمعلمين أكثر وجوباً لأن الطالب عادةً يتلقى قول معلمه بالقبول لانقياده إليه واعتقاده بعلمه وفضله، فعلى المعلم أن يخلص النصح لطلابه ولا يلقنهم إلا المعلومات التي ثبتت صحتها، وإذا سئل عما لا يعلم فليقل لا أعلم، وقد يظن في نفسه أن تصريحه بذلك يذهب بشيءٍ من احترام السائلين ولكنه إذا أدى واجب الأمانة العلمية واستمهل في الإجابة نال الثقة والاحترام.

وقد كان الواحد من علمائنا الأجلاء لا يجد في صدره حرجاً أن يقول لا أعلم، فإذا سأله أحدٌ عن مسألة في العلم ولم يحضره الجواب أطلق لسانه بكلمة (لا أدري) بقوةٍ واطمئنانٍ لا يبالي بما يكون لها من أثرٍ في نفس السائل، ويفضل التصريح بها على أن يقع في الخطأ، ولو نظرنا إلى المسائل التي أجاب عنها سلفنا الصالح بكلمة (لا أدري) لوجدناها كثيرةً لا يستطاع

حصرها. من ذلك أن رجلاً سأل إمام دار الهجرة مالك بن أنسٍ رضي الله عنه عن مسألةٍ وذكر له أنه أتاه من مسافةٍ بعيدة فقال له الإمام أخبر الذي أرسلك أنه لا علم لي بها، قال الرجل ومن يعلمها؟ قال هي من علم الله. وسأله رجلٌ آخر عن مسألةٍ استودعه إياها أهل المغرب فقال الإمام مالكٌ: (لا أدري ما هي) فقال الرجل يا أبا عبدالله تركت خلفي من يقول: ليس على وجه الأرض أعلم منك فقال الإمام مالكٌ بصراحةٍ وبساطةٍ: إذا رجعت فأخبرهم أني لا أحسن.

ومن أمانة العالم أن لا يفتي بما يراه باطلاً أو يقضي برأي غيره وهو يعرف بطلانه، أما في المسائل الاجتهادية فعليه أن يبذل جهده في الاستنباط والنظر في الأدلة، ولا ريب أن لكل مجتهدٍ من اجتهاده نصيباً، والأئمة الأربعة كلهم على حقٍ.. وقد رجع كثيرٌ من العلماء عن آراء علميةٍ أعلنوها بعد أن تبيَّن لهم أن قولهم فيها لم يكن سديداً، وهي مذكورة في كتب الأحكام، ويعتبر هذا من مفاخر رجال العلم في الإسلام.

متى تُبَـاح الغيبة؟

قال رجلٌ لصديقه: إن فلاناً تقدم إليّ خاطباً ابنتي يرغب في الزواج بها، ولك به معرفةٌ فأرجو أن تذكر لي ما تعرفه عنه، وأن تبين لي حدود خلقه ومدى تمسكه بأمور دينه، فكان جواب الصديق موجزاً مبهماً لم يوضح الأمر فيه على حقيقته، وظنَّ في نفسه أنه إذا كشف الخاطب على حقيقته، وصرح بما يعرفه من سوء خلقه وضعف دينه، يكون قد اغتابه، وقد حرم الله الغيبة على عباده.

وبقليلٍ من التأمل والبحث نجد أن الرجل المسؤول كان مخطئاً في تلميحه عوضاً عن توضيحه وأن ما تخوف منه ليس على حقيقته، فالغيبة وإن كانت ممنوعةً في الأصل ومنهياً عنها، ولكن هناك بعض الحالات لا بد فيها من كشف الناس وبيان عيوبهم ونقائصهم، ومثال ذلك الاستشارة في الزواج، والمستشار مؤتمنٌ وهو هنا بمنزلة الشاهد أو المزكي، ومن واجبه أن يذكر ما يعرفه بتفصيلٍ وإيضاح ووصفٍ للواقع من غير نقصٍ ولا غمغمةٍ ولا تلويحٍ، وإذا لم يصرح بما يعلمه عنه يكون قد غشه، وخاصةً في أمور الزواج وهو حياةٌ مديدةٌ يقضيها الزوجان معاً، فيجب أن يعرف كلٌ منهما الآخر معرفةً تامةً كي يتاح لهما التفاهم وتتحقق لهما المودة والحياة الهانئة الرغدة السعيدة.

ومثل ذلك التظلم أمام القاضي في طلب حقٍ أو دفعٍ مظلمةٍ، فإنك تستطيع أن تقول أمام القاضي أن فلاناً قد اعتدى عليَّ أو ظلمني أو أخذ مالي أو خانني أو منعني حقي وتذكر قصتك أمامه بتفصيل لأن القاضي أو السلطان

أو الأمير أو الوزير قادرون على رفع المظلمة عنك وإعادة حقك إليك وقد قال النبي ﷺ: «إن لصاحب الحق مقالاً»، وقد روي عن هندٍ بنت عتبة أنها قالت للنبيّ ﷺ: إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي فآخذ من غير علمه؟ فقال لها: «نعم فخذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»، يفهم من هذا الحديث أنها وصفت زوجها بالبخل والشح والظلم ولم يزجرها ﷺ ولم يقل لها إن هذا الكلام من باب الغيبة لأن قصدها هو الاستفتاء.

ومثل ذلك غيبة الفاسق المجاهر بفسقه فقد ورد في الأثر من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له، ويروى أن النبي ﷺ قال: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس». قال الحسن: ثلاثةٌ ليست لهم حرمةٌ صاحب الهوى والفاسق المعلن والإمام الجائر، وقال أيضاً ليس لأهل البدع غيبةٌ وهناك رجالٌ قد عرفوا بين الناس بألقابٍ فيها ذكر عيوبهم كالأعرج والأعمش، فإذا ذكرتهم بألقابهم لم يكن ذلك من الغيبة والله أعلم.

الخدمات الاجتماعية (١)

إن نظام الوقف نظامٌ فريدٌ في بابه اختص به الإسلام ولم تعرفه التشريعات الوضعية في الأمم الأخرى وهو بابٌ واسعٌ من أعمال البر، ومظهرٌ رائعٌ من مظاهر الخير، ووسيلةٌ بارعةٌ من الوسائل التي يتقرب بها المسلم إلى ربه طالباً رضاه ونيل المثوبة والأجر من الله سبحانه وتعالى، فهو يندرج في كثيرٍ من الآيات والأحاديث التي حثت على أعمال الخير والتزود بها لحياة الآخرة التي هي دار الجزاء كقوله تعالى: ﴿ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾.

والوقف هو حبس العين والتصدق بالمنفعة، فالأرض الموقوفة والبناء الموقوف، كل واحدٍ منهما لا يباع ولا يملكه أحدٌ، وتصرف أجرته وغلته على جهات الخير وأبواب البر كالمساجد والمدارس والمستشفيات ودور الكتب وطلبة العلم والفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات، فالوقف نظامٌ خيريٌّ نبيلٌ يتمثل به مبدأ التعاون بأجلى مظاهره ينتفع به الواقف عند الله سبحانه بالثواب الجزيل وينتفع به أفراد الأمة بتأمين الخدمات الاجتماعية لهم في شتى نواحيها.

وقد أجمع المسلمون منذ القديم على مشروعيته وعلى فائدته الكبيرة ومنفعته الجُلَّى، قال زيد بن ثابتٍ رضي الله عنه: لم أر خيراً للميت ولا للحي من تلكم الحبوس الموقوفة. يعني أن منفعة الوقف دائمةٌ، لأن غلته تتجدد كل سنةٍ وتنفق على جهات الخير فهو منفعةٌ دائمةٌ.

وقد انتبه أجدادنا الصالحون إلى هذا الباب الواسع من أبواب الخير، فصاروا يتسابقون إلى تخصيص جزءٍ من أملاكهم من أراضٍ وبيوتٍ ودكاكين وحوانيت للمنفعة العامة حتى كثرت الأوقاف وانتشرت في كل بقعةٍ من بقاع العالم الإسلامي واستفاد منها أفراد الأمة أكبر الفائدة، وقد ضاع أكثرها بمرور الزمن وبكثرة التعديات عليها من ذوي النفوس الضعيفة، ومع ذلك فلا تزال الأوقاف في زماننا كثيرةً وهي في حاجةٍ إلى من يقوم بإحيائها وتسجيلها وتنظيم الانتفاع بها.

وفي عصور الإسلام الزاهية أعطت الأوقاف للأمة كثيراً من الخدمات فأنشئت المدارس ومعاهد العلم والمساجد والمشافي ودور الكتب ودورٌ لعلاج المجانين والمجذومين ودور الضيافة ومنها ما يوزع الخبز كل يوم وأنواع الطعام، وأشياء كثيرةً لا تكاد تخطر على البال، ونذكر على سبيل المثال وقفاً في دمشق اسمه وقف (الزيادي) فكل طفلٍ أو خادمٍ سقط من يده طبقٌ صينيٌ أو وعاءٌ زجاجيٌ وانكسر، ذهب إلى ذلك المكان ووضع الوعاء المكسور وأخذ بدلاً عنه وعاءً سليماً وللكلام بقية.

الخدمات الاجتماعية (٢)

ذكرنا أن الوقف بابٌ واسعٌ من أبواب الخير التي حض عليها الإسلام، وقلنا إن أجدادنا الأولين رحمهم الله تركوا أوقافاً كثيرةً تصرف غلتها على الفقراء والمساكين والمساجد والمدارس والمشافي وعلى جهاتٍ أخرى كثيرةٍ من البر لا تكاد تخطر بالبال.

ذكر المؤرخون أنه يوجد في مدينة (فاسٍ) في بلاد المغرب وقفٌ للثياب، فمن كان ماراً في شارعٍ وتمزق ثوبه أو أصابه شيءٌ لوثه بحيث أصبح متعذراً عليه لبسه، استطاع أن يذهب إلى ذلك الوقف ليأخذ منه ثوباً جديداً مكان ثوبه الذي فسد.

وفي مدينة (تونس) وقفٌ للحمامات، فمن كان يريد دخول الحمام وليس في يده مالٌ يدفع منه أجرة الاستحمام، استطاع أن يذهب إلى ذلك الوقف ويأخذ منه صرةً صغيرةً توجد في داخلها الأجرة المطلوبة.

وفي (مراكش) وقفٌ كبيرٌ للنساء اللواتي يقع خلافٌ بينهن وبين أزواجهن، فإذا اختلفت امرأةٌ مع زوجها ووقع الشقاق والخلاف بينهما، استطاعت أن تذهب إلى هذا الوقف وتبقى فيه ما تشاء وتعيش فيه دون أن تتحمل منة أحدٍ من أهلها إلى أن ينتهي الخلاف بينها وبين زوجها بالوفاق أو الفراق.

وفي (فاسٍ) وقفٌ اسمه (مؤنس العليل) تؤخذ منه إعانةٌ للمؤذنين

أصحاب الأصوات الحلوة الشجية كي يبكروا في الصعود إلى المنارة للأذان.

وفي بلاد الشام أوقافٌ كثيرةٌ تقدم الإعانات للأئمة والمؤذنين وتعليم الأيتام وتقدم لهم أنواع الحلوى واللحوم والثياب القطنية والصوفية وعلى حفظ القرآن وقراءة صحيح البخاري وكتب الحديث والسيرة، وكانت مدارس الحنابلة ومساجدهم منتشرةً في الصالحية شمالي دمشق، وكانت حلقات العلم والتدريس تعقد كل يوم، وتخرَّج منها كبار العلماء والفقهاء والقراء، وكانت فيها الخزائن الكبيرة التي تحوي أنفس الكتب في سائر العلوم وكان طلاب العلم يدأبون على مطالعتها وحفظها، وكانت تقدم لهم أنواع الطعام والشراب والحلوى وأنواع الثياب مع غرفٍ للنوم ومعوناتٌ ماليةٌ تقدم لهم في كل شهرٍ، وحمامات للاغتسال، وكانت تخصص وظائف للخدم والطباخين والقيام بأمور المساجد والمدارس، ولا تزال آثارها موجودةً حتى اليوم تدل على ما كان لها من عزٍّ ومجدٍ في مجال العبادة والتعليم والطب والخدمات المختلفة الكثيرة.

قطع اليد

يعاقب السارق بقطع يده، سواءً أكان المال الذي سرقه كثيراً أم قليلاً يزيد على عشرة دراهم، وقد تبدو هذه العقوبة للجاهل قصير البصر قاسيةً، ولكننا إذا دققنا النظر وجدناها عادلةً لأن السرقة هي أخذ مال الغير خفيةً، ولا ريب في أن هذا العمل جريمةٌ نكراء وهي من أشد الجرائم خطورةً على المجتمع، والسارق لا يبالي في سبيل الوصول إلى غايته بارتكاب أي جريمةٍ فهو يكسر القفل وينقب الدار ولا يتأخر عن قتل من يقف في سبيله أو جرحه، فهو يهدد الناس في حياتهم وأموالهم وأعراضهم، فإذا لم نضرب على يده بشدةٍ وحزمٍ كان شره عظيماً وخطره شديداً، وإذا فشت السرقة في الناس عاشوا حياةً مريرةً يسودها الخوف والفزع والاضطراب، لأن السارق كالحيوان المفترس يجب أن نمنع شره عن الناس، وبالنظر لفظاعة الجريمة، وهول الأثر الذي تتركه في المجتمع نرى أن قطع يده غايةٌ في العدل، لأن هذه اليد التي تمتد خفيةً وفي قسوةٍ ووحشية إلى أخذ أموال الناس يجب أن تزول من الوجود كي لا تعود إلى مثل جريمتها النكراء وليستريح الناس من شرها وليطمئنوا على أموالهم بعد قطعها.

وأنت تستطيع أن تقابل الغاصب أو المعتدي إذا وقف أمامك وجهاً لوجهٍ، فتدفعه عنك بالقوة أو بالاستعانة برجال الأمن فيضربون على يده قبل أن يستفحل شره، ولكنك لا تستطيع أن تدفع عنك جريمةً حدثت في الخفاء في جبنٍ وخسةٍ ودناءةٍ.

والعقوبات إنما شرعت في الأصل لزجر الذين فسدت أخلاقهم وماتت نوازع الخير في نفوسهم وهؤلاء لا يفيد زجرهم باللين والرفق، فإذا لم تتمثل لهم شدة العقوبة وقسوتها لم ينزجروا ولم يرتدعوا، فالعقوبة هي في الحقيقة رحمةٌ بهم وبالمجتمع..

وها هي التشريعات الحديثة في بلاد الغرب وبعض البلاد العربية المقلدة لهم، قد جعلت السجن عقوبةً للسارقين فهل أدت هذه العقوبة إلى النتيجة المرجوة منها من منع السرقة وإشاعة الأمن والاطمئنان في نفوس الناس؟ وهل أفاد السجن في ردع السارق أم إنه تعلم من زملائه المجرمين ما يجهله من أساليب الإجرام؟.

إننا نحمد الله سبحانه على هذا الأمن الذي انتشرت ألويته في البلاد المقدسة، في المملكة العربية السعودية وقضي فيها على هذه الجريمة المنكرة قضاءً تاماً بفضل تطبيق الحدود التي شرعها الله سبحانه لعباده وهو أحكم الحاكمين وهو أعلم بمصالح عباده.

الرضى بحكم الشرع

ذكر الله سبحانه مظاهر الإيمان وعلاماته في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قضيت ويسلموا تسليماً﴾... فأول دليلٍ على وجود الإيمان في القلب هو الرضى بحكم الشرع عند اختلاط الحق بالباطل وتشعب الأهواء والنزعات، وكثرة الأنظمة والمذاهب والاتجاهات، فإذا كثرت الأقوال في موضوع من الموضوعات وتعدد الباحثون وأدلى كل واحدٍ منهم بدلوه فيه وصرح برأيه الذي استمده من مبادىء حزبه أو الجماعة التي ينتمي إليها عندئذ تختلط الأمور وتتعدد الأحكام في المسألة الواحدة ويختلط الحق بالباطل، ويخفي على كثيرٍ من الناس وجه الحق فيها.

ومن هنا يعرف المؤمن الصادق الذي يرفض الآراء المنحرفة المبنيَّة على الهوى وعلى المبادىء الضالة، ويسأل أهل الذكر عن حكم الشرع في المسألة، ويرضى به أولاً، ثم يكون رضاه به عن طيب نفسٍ وانشراح صدرٍ واطمئنان قلبٍ من غير حرجٍ ولا ضيقٍ ولا تململٍ ولا تأففٍ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ﴾ أي إنهم إذا سمعوا الحكم الشرعي لم يشكوا في صحته ولم يرتابوا في صوابه، ولا يتبرمون ولا يضيقون به ذرعاً بل يتقبلونه أحسن تقبلٍ ويرحبون به بنفوسٍ راضيةٍ لأنه حكمٌ صادرٌ عن الله سبحانه الذي خلق الخلق، وهو سبحانه أعلم بما يصلح لهم وما يفيدهم في أمور معاشهم ومعادهم.

أما الوصف الثالث للمؤمنين فهو التسليم لأمر الله وللأحكام التي جاءت من عنده قال تعالى: ﴿ ويسلموا تسليماً ﴾ والتسليم هو الانقياد والإذعان في الظاهر وفي الباطن، إذعاناً مطلقاً من كل قيدٍ وشرطٍ، وانقياداً كاملاً لا يداخله شكٌّ ولا يمازجه ريبٌ، وتسليماً حقيقياً لا مدخل فيه للرياء. والتسليم في الأصل هو تقديم النفس تقديماً خالصاً لمن سلمت إليه.

ويلاحظ أن الآية الكريمة مستهلةٌ بقوله تعالى: ﴿ فلا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ ﴾ فقد نفى الإيمان عنهم بهذا القسم العظيم الذي هو قسمٌ بالربوبية تكريماً لذات النبي ﷺ وتنويهاً بسمو منزلته وارتفاع شأنه، فقد أقسم سبحانه أن من لا يحكم الشرع في أموره، ولا يرضى به عن قناعةٍ واطمئنانٍ لا يعد من المؤمنين، وفي هذا زجرٌ عظيمٌ لكل من يرفض الأحكام التي جاءت بها الشريعة ويقبل بأحكامٍ أخرى استوردها من أمم الغرب ورضي بها لظنه أنها أحكامٌ تلائم الناس في هذا العصر الحديث فيكون مثله كمن استعار من غيره ثوباً قصيراً ضيقاً غريب الشكل لبسه وارتداه فأصبح أضحوكة بين الناس، ولو كان ذا عقلٍ وتفكيرٍ سليمٍ لما رضي بثوبه بديلاً.

الجهر بالسوء

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿لا يُحِبُّ الله الجَهْرَ بالسوءِ مِن القَوْل إلاّ مَنْ ظُلِمَ وكان الله سميعاً عليماً﴾ والجهر بالسوء له صورٌ وألوانٌ لها أثرها السيء في الناس في أخلاقهم وفي علاقاتهم بعضهم ببعضٍ فمن ذلك الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء والتحدث بما يقبح من المنكرات كالخمر والسرقة والاحتيال ومجالس الفساق ونشر صور النساء شبه العارية في المجلات والصحف، فإن ذلك كله يعتبر من الجهر بالسوء الذي لا يحل الخوض فيه ولا تجوز إذاعته. والأفعال والأقوال التي تدخل تحت هذا العنوان لا يمكن حصرها لكثرتها، وتدخل فيها الخصومة بالباطل فإن كل واحدٍ من الطرفين المتخاصمين يمزج خصومته بكلماتٍ مؤذيةٍ وألفاظٍ بذيئةٍ وطعنٍ في الأخلاق والأعراض مما يترفع عنه العفيف المهذب يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش» وقوله أيضاً: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء».

والمقصود من ذلك هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، ولأهل الفساد عباراتٌ صريحةٌ فاحشةٌ تشمئز منها النفوس السليمة، ويستعمل كثيرٌ من تلك العبارات البذيئة في الخصومات والشتائم وقد تسمعها المرأة أو الطفل فيؤدي ذلك إلى نشر الفساد مع أن سباب المؤمن فسوقٌ وقتاله كفرٌ. وإن الجهر بالسوء بهذه الصور التي ذكرناها يؤدي إلى تفريق الكلمة وإلى غرس العداوة والبغضاء في نفوس الأفراد، ويغري باقتحام الشرور

والمفاسد ويشجع على ارتكابها واعتيادها، وإن ضرره عظيمٌ على الأطفال والأحـداث الذين تنطبع في نفوسهم صور ما يسمعون وكثيراً ما نشأت عنه الجرائم.

وقد منعت الآية الكريمة الجهر بالسوء في سائر حالاته إلا حالةً واحدةً هي حالة الظلم يقع على الإنسان ولا يجد منقذاً له من هذا الظلم سوى الجهر به للحاكم أو لمن يرجو على يديه الخلاص منه وقد أجاز الشرع للمظلوم أن ينتصر من ظالمه في حدودٍ مُعيَّنـةٍ إن كان ظالمه مؤمناً، أما إن كان كافراً فله أن يدعو عليه بما شاء كما فعل النبي ﷺ حيث قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «اللهم عليك بفلانٍ وفلان ويذكرهم بأسمائهم»..

ثم جاءت الآية بعدها تقول: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فإِنَّ اللهَ كان عَفوًّاً قَدِيراً﴾ فدلت على أن العفو عن السوء بمثابة فعل الخير في ربط القلوب وصفاء النفوس والله أعلم.

تلاوة القرآن واستماعه

أنزل الله سبحانه القرآن هادياً يخرج الناس من الظلمات إلى النور أوضح فيه لعباده المنهج القويم وفصل فيه الأحكام. وفرق بين الحلال والحرام، وجعله نظاماً يحق الحق ويبطل الباطل.

وأنزله كي نتدبر في معاني آياته ونعمل على امتثال أوامره واجتناب نواهيه ونعتبر بما فيه من عظاتٍ بالغةٍ ونستمسك بآدابه.

ولكن كثيراً من المسلمين اليوم يتلون كتاب الله دون فهمٍ، ويقرؤونه دون تدبرٍ، تجد أحدهم منكباً عليه يتلو الآية بعد الآية، والصفحة تلو الصفحة، فإذا انتهى من قراءته وحاولت أن تسأله عن بعض ما علق في ذهنه منها لم تجد عنده علماً بشيءٍ من ذلك، وهذه حال أكثر المسلمين اليوم لا يقتصر الأمر على العامة ولكنه يشمل كثيراً من المتعلمين، وقد يتلو الواحد منا بعض آيات الله وذهنه منصرفٌ عنها يفكر في أمور الدنيا ومشاغل العيش.

ومثل هذا يقال في الاستماع: ترى الناس يستمعون إلى القرآن من الإذاعة ولا يريدون أن يفهموا شيئاً من معاني الآيات التي يستمعون إليها، وربما يحدثوا أثناء ذلك أو اشتغلوا بأعمالهم، واعتادت فئةٌ منهم إغلاق الجهاز عند تلاوة القرآن.

وقد كان أجدادنا المؤمنون إذا تليت عليهم آياته تفيض من الدمع

عيونهم وتمتلىء بالخوف من الله قلوبهم فيزدادون إيماناً ويقيناً ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً.

وهذا القرآن الكريم سمعه نفرٌ من الجن فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرآنَاً عَجَبَاً يَهدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾، وسمعه بعض المشركين فخروا لبلاغته سجداً. والله سبحانه وتعالى يقول لنا: ﴿أفَلَا يتـدَبَّرون القـرآن أَمْ على قلوبٍ أقفالُها؟﴾ والرسول ﷺ يقول فيما رواه أنس رضي الله عنه: «رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه»، ويقول فيما رواه ابن مسعود رضي الله عنه: «أنزل القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل به». . فليس المطلوب أن يكثر من التلاوة من غير فهمٍ، فلو قرأ أحدنا آياتٍ قليلة العدد وتدبر فيها، ورجع إلى بعض كتب التفسير للاطلاع على ما قيل فيها لكان خيراً له لأن القرآن دستور المسلمين وقد أنزل للعمل به، ولا يمكن العمل به إلا بعد الفهم.

قال محمد القرظي: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله، فليقرأه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه.

التــأميــن

يسمع الناس في هذه الأيام عن شركاتٍ غربيةٍ وعربيةٍ تسمي نفسها (شركات التأمين) وهي منتشرةٌ ومبثوثةٌ في أكثر بلاد العالم، وهي تجمع الأموال من الناس لقاء تأمينهم على الحياة أو الحريق أو الغرق وأمثالها من الكوارث أو الحوادث التي يحتمل وقوعها.

والناس الذين يدفعون لها الأموال يسمون (مساهمين) فأنت تستطيع مثلاً أن تكتب إلى الشركة تطلب منها التأمين على حياتك أو على حريقٍ يمكن أن يحدث في منزلك أو متجرك أو التأمين على سيارتك من ضررٍ يصيبها إثر حادثٍ من الحوادث التي تقع للسيارات عادةً فتقوم الشركة بدراسة أحوالك وأوضاعك في بيتك وعملك ودراسة قدرتك المالية وعمرك وصحتك فإذا أجابتك من بعد ذلك بالموافقة على طلبك أصبحت من جملة المساهمين فيها وصرت ملزماً بأن تدفع لها أقساطاً ماليةً سنويةً أو شهريةً فإذا وقع الحادث الذي تخوفت منه أو حدثت الوفاة أصبحت الشركة ملزمةً بأن تدفع لك أو لورثتك تعويضاً مناسباً.

فهذا المال الذي تدفعه أنت في كل سنةٍ أو في كل شهرٍ يسمى رسم التأمين، وهو ليس ثمناً لأسهمٍ في شركةٍ تعاونيةٍ كي يبقى ملكاً لك، ولكنه يعتبر من نوع المقامرة على أمرٍ مجهولٍ مغيبٍ في يد الله، وتملكه الشركة بمجرد استلامه، فإن وقع الشيء الذي قامرت عليه خسرت الشركة، وإن لم يقع خسرت أنت، والمقامرة محرمةٌ في الإسلام، لأن الإسلام دين سعيٍ

وعملٍ وليس دين خمولٍ وكسلٍ ، والتأمين عقدٌ غير صحيح لأن الموضوع الذي تم الاتفاق عليه مجهولٌ ولا يزال في ضمير الغيب، والعقد على مجهولٍ غير صحيح.

ومن الممكن أن تقوم شركاتٌ تعاونيةٌ مقام شركات التأمين، فيجتمع أهل حرفةٍ من الحرف كالتجار أو أصحاب المكتبات أو المغاسل فيفرض كل واحدٍ منهم على نفسه مبلغاً معيناً من المال يعتبره إعانةً وإحساناً، وتجمع هذه الأموال في صندوقٍ يمكن تسميته (صندوق التعاون) ينفقون منه على مساعدة كل من ينكب من أعضائه بحريقٍ أو غيره، وهذا التعاون هو ولا شك عملٌ نبيلٌ من أعمال الخير، لأن المال الموجود في صندوق هذه الجماعة من الناس ليس ملكاً لأحدٍ، وليس مثل صندوق شركة التأمين الذي يعتبر المال فيه ملكاً لأعضائها وللمساهمين فيها، وليس ملكاً لدافعي الرسوم لأنهم يدفعون الرسوم للشركة ولا يدفعونها لله، وفرقٌ كبيرٌ بين من يدفع الرسوم للشركة ومن يدفعها لله ابتغاء الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى.

ميزان الدنيا وميزان الآخرة

الناس في الدنيا مختلفون في أوضاعهم ومعايشهم ومظاهرهم ودرجاتهم، فمنهم الغني ومنهم الفقير ومنهم الوجهاء أصحاب الدرجات الرفيعة في المجتمع، ومنهم الطبقات الدنيا، وبين هؤلاء وأولئك أوساط الناس، وهناك الموظفون والعمال وهناك التجار والزراع وأصحاب الصناعات المختلفة، والناس في الدنيا مختلفون أيضاً في منازلهم الاجتماعية، ويكون التفضيل بينهم على أساس الجاه والمال، فترى صاحب الجاه محترماً لجاهه، وذا المال مقدماً لماله، وإن أصحاب المناصب لهم التفضيل على غيرهم في المجالس والمجتمعات، وكم من عالم فاضل مستور الحال لا يلتفت إليه أحد لأنه مغمور ليس بذي شهرة، وفقير ليس بصاحب مال.. هذا هو الميزان الذي يعتمده أهل الدنيا للتفضيل بين الأفراد ويتخذونه مقياساً للمدح والذم وللتعظيم والاحتقار.

أما ميزان الآخرة فهو من نوع آخر يختلف عن هذا الميزان اختلافاً بيناً لأنه لا يقيم وزناً للمظاهر الخداعة والألقاب البراقة، وهو يتغلغل إلى أعماق النفوس وخفايا القلوب ويرجح عنده أكثرها صفاءً وأشدها نقاءً ويفاضل بينها بنسبة ما يرى فيها من إيمانٍ وتقوى وأدب وخلق وعلم ومعرفة. وقد ورد في الأثر: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأسواق لو أقسم على الله لأبره»، فهذا رجل زري الهيئة خشن الثياب يحتقره الناس بسبب هذا المظهر ولكن منزلته عند الله وفي ميزان الآخرة منزلة عظيمة لكثرة تقواه وورعه وخوفه من الله.

وورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ مرّ عليه رجل فقال: «ما تقولون في هذا؟» فقالوا: حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يسمع. قال الراوي ثم سكت النبي ﷺ فمر رجل من فقراء المسلمين فقال ما تقولون في هذا؟ قالوا حري إن خطب ألّا ينكح وإن شفع ألّا يشفع وإن قال أن لا يسمع، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا..» وروي أن أبا ذر رضي الله عنه وهو من فضلاء الصحابة قال قاولت رجلاً عند النبي ﷺ - يعني أنه وقع بيني وبينه كلام - فقلت له يا ابن السوداء فغضب النبي ﷺ وقال: «يا أبا ذر ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل» قال أبو ذر فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي..

يتبين من هذا أن الجنس واللون والنسب والوظيفة والمال والجاه وأمثالها أمور ليس لها في ميزان الآخرة حظ ولا نصيب، ولا تزن عند الله جناح بعوضةٍ إلا إذا اقترنت بالإيمان والعقيدة الصالحة والتقوى والورع والخوف من الله جل جلاله.

كتابة الدين

حضرت مجلساً بين صديقين طلب أحدهما من الآخر أن يقرضه مبلغاً من المال كان في حاجةٍ إليه فأجاب الأول طلبه وقدم إليه المبلغ وأحب أن يسجل هذا الدين في ورقةٍ كانت معه وأن يحدد فيها موعداً للوفاء، فقال الآخر: لماذا تكتبه؟ ألست واثقاً مني والصحبة بيني وبينك وثيقةٌ وقويةٌ؟ فقال له الدائن: إنني لا أشك في أمانتك ولكنني أرى التسجيل أضمن للحق..

وهذا الذي ذكره الدائن صحيح، وهو لم يخرج في طلبه عن أدب الشرع لأن الله سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلذينَ آمَنُوا إِذَا تَدَاينتُم بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، لأن المرء قد ينسى وقد يأتي أجله فيموت فلكي لا تضيع الحقوق المالية بين الناس أمر الله سبحانه بالكتابة، وقد قال بعض العلماء: إنها واجبةٌ ولكن الجمهور قالوا إنها مستحبةٌ ومندوبةٌ لحفظ الأموال والحيلولة دون وقوع الخلاف بين الطرفين.

والأصل أن يقوم المديون بالكتابة لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلذي عَلَيْهِ ٱلحَقُّ﴾ ثُم يوقع الدائن والشهود، ولكن إذا كان يجهل الكتابة أو إنه لا يحسنها فإن كان عاقلاً وكل غيره، وإن كان ضعيف العقل قام وليه مقامه، ومثله السفيه وهو الذي يبذر المال ولا يحسن التصرف فيه بالأخذ والعطاء ويخدع بسهولة فإن وليه يوقع عنه لأنه صار مثل الصبي الذي لا يميز بين الضار والنافع.

ولا بد من حضور شاهدين لأنه سبحانه يقول: ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ

من رِجالَكُمْ فإنْ لم يَكوُنا رجَلْين فرجلٌ وامرأتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْن مِن الشهداء ﴾.
والشهادة مطلوبةٌ في الحقوق المالية والبدنية لأنها توثقها، ويجب أن يكون الشاهد عدلاً وهو كل مسلمٍ ظاهر السلام لم تعرف عنه مخالفةٌ تكون مطعناً في دينه وخلقه، مجتنبٌ الكبائر محافظٌ على مروءته معروفٌ بالأمانة والعقل.. وتقوم شهادة امرأتين مقام شهادة رجل واحد، لأن إحداهما إذا نسيت ذكرتها الأخرى.

وقد ورد في الحديث أن النساء ناقصات عقلٍ ودينٍ وأشار ﷺ إلى نقصان عقلهن بأن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجلٍ. قال الإمام ابن القيم رحمه الله في الطرق الحكمية: إن شهادة الرجل الواحد أقوى من شهادة المرأتين لأن النساء يتعذر غالباً حضورهن مجالس الحكام، وحفظهن وضبطهن دون حفظ الرجال وضبطهم انتهى كلامه. ثم قال تعالى: ﴿ ولا تَسْأموا أنْ تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أَجَلِه ﴾، أي سواءٌ أكان المبلغ قليلاً أو كثيراً فمن الأفضل تسجيله، فلا يقل أحدٌ إن المبلغ قليلٌ أو زهيدٌ، لأن الكتابة أوثق في كل الأحوال وليس فيها تعبٌ ولا مشقةٌ، وتجعل قلب الدائن مطمئناً إلى حقه وتدوم الصداقة والأخوة بين الطرفين.

العلماء والجهاد

إننا حين نتحدث عن علماء المسلمين أو نستمع إلى أقوالهم نتصور الواحد منهم قابعاً في حجرةٍ من حجرات داره، جالساً بين الكتب التي تحيط به من كل جانبٍ، منكباً على المطالعة والتأليف لا يدري مما يجري حوله إلا الشيء اليسير، هذه هي الصورة التي نتمثلها في نفوسنا لهم، ولكننا لو قرأنا طرفاً من سيرهم وأخبارهم المبثوثة في كتب التاريخ والتراجم لرأينا أن أكثرهم كانوا جنوداً مجاهدين، وأبطالاً محاربين، وكان الواحد منهم يمضي جزءاً من حياته في تعلم فنون الرمي وأساليب القتال ويرابط في الثغور لحفظها من كيد العدو وبغتاته.

قال عمرو بن سوادٍ قال لي الشافعي رحمه الله: ولدت بعسقلان فلما أتى عليَّ سنتان حملتني أمي إلى مكة، وكانت نهمتي في شيئين في الرمي وطلب العلم فنلت من الرمي حتى كنت أصيب من عشرة عشرةً، وسكت عن العلم. فقلت له: أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي.

فانظر إلى هذا الإمام الجليل لم يمنعه اشتغاله بالعلم عن التمرن على الرمي حتى أتقنه وبرز فيه لأنه يعتقد أن وجوب تعلمه لا يقل ضرورةً عن طلب العلم والاشتغال فيه.

ورأيت في ترجمة الإمام البخاري الذي جمع أصح كتابٍ بعد كتاب الله، عن محمد بن أبي حاتمٍ الوراق وهو أحد طلابه قال: رأيته استلقى على

قفاه يوماً ونحن في بلدةٍ تسمى (فربر) وكان يشتغل في تصنيف كتاب التفسير، وكان قد أتعب نفسه في ذلك اليوم من كثرة إخراج الحديث فقلت له يا أبا عبدالله ما الحكمة في هذا الاستلقاء فقال: أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم وهذا ثغرٌ من الثغور خشيت أن يحدث حدثٌ من أمر العدو فأحببت أن أستريح وآخذ أهبة ذلك، فإن عافصنا العدو كان بنا حراكٌ، يعني أن العدو إذا هاجمنا كان بنا نشاطٌ لقتاله ودفعه عنا.

وقرأت في ترجمة أمير المؤمنين أبي يعقوبٍ يوسف بن عبد المؤمن في المغـرب أنه لما تجهز لغزو الروم أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تملى على جنوده الموحدين ليدرسوها وهكذا جرت عادتهم، وكان كل واحدٍ من الموحدين يجيء بلوحٍ يكتب فيه الأحاديث وكان العلماء في مقدمتهم.

ومن هذا يتبين مقدار عناية علمائنا رضي الله عنهم بالجهاد والرباط والاستعداد لهما يروى عن عثمان بن عفانٍ رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يومٍ في سبيل الله خيرٌ من ألف يوم فيما سواه من المنازل» رواه النسائي والترمذي. وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار عينٌ بكت من خشية الله وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله»، أي تظل طول الليل تحرس المجاهدين من أعدائهم.

بين الشفاعة والوساطة

اعتاد الناس في القديم والحديث أن يطلبوا من أصحاب النفوذ من أهل الخير أن يمدوا إليهم يد العون ويساعدوهم في قضاء حاجاتهم لدى الحاكمين وكبار المسؤولين في جلب نفعٍ أو دفع ضرٍّ فإذا طلب أحد الناس تعيينه في وظيفةٍ من وظائف الدولة، وإذا خاف الموظف المذنب فرض العقوبة عليه، أو أحب أحدٌ شراء بضاعةٍ من أحد التجار، عمد الواحد منهم للالتجاء إلى رجلٍ من أصحاب النفوذ أو ممن تربطه بالرئيس رابطة الصداقة والمحبة، يرجوه أن يتوسط له في أمره وهذه عادةٌ شائعةٌ بين كثيرٍ من الناس لا يكاد يخلو منها عصرٌ أو مصرٌ، وتسمى في عرف الناس (وساطةً) وفي لغة العلم (شفاعةً) وهي على حالين فقد تكون مقبولةً ومحمودةً وقد تكون مذمومةً ممنوعةً ويجمع النوعين قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شفاعةً حَسنةً يكُنْ له نصيبٌ منها، ومَنْ يَشْفَعْ شفاعةً سَيِّئةً يكُنْ له كِفْلٌ منها﴾.. والمعنى أن الذي يشفع لأحدٍ في الخير يكون له نصيبٌ من الأجر، ومن يشفع لأحدٍ بالباطل يكون له نصيبٌ من الوزر، فهناك إذن شفاعةٌ حسنةٌ وأخرى سيئةٌ، والحسنة تكون في أمور الخير من غير مخالفةٍ لأحكام الشرع ومن غير تجاوز لحدوده، فهي في هذا مقبولةٌ وجائزةٌ إلا في الحدود الشرعية مثل حد السرقة وحد الزنا وحد القذف لأنه لا شفاعة في حدٍ من حدود الله.

فإذا أردت التوسط لأحدٍ في قضيةٍ طلب إليك أن تتوسط له فيها فيجب عليك أن تنصر الحق وتؤيده سواءً أكان الحق في جانب صاحبك أو ضده،

فإذا فعلت ذلك نلت الشرف في الدنيا وكنت من أهل الخير ونلت الثواب في الآخرة بنصرك الحق على الباطل من غير مبالاةٍ بالأشخاص.

وانطلاقاً من هذا المبدأ فإن الشفاعة محمودةٌ في كشف كربة المكروب ونصر الضعيف المظلوم وإزالة الضرر وإعادة المنفعة إلى من يستحقها. قال الإمام الزمخشري في تفسيره: [إن الشفاعة الحسنة هي التي روعي بها حق مسلمٍ ودفع بها عنه شرٌ أو جلب إليه خيرٌ وابتغي بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوةٌ وكانت في أمرٍ جائزٍ لا في حدٍّ من حدود الله وفي حقٍّ من الحقوق الواجبة عليه] وليحذر الشافع أن يأخذ على شفاعته رشوةً أو أجرةً أو هديةً فقد روى أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ قال: «من شفع لأخيه بشفاعةٍ فأهدى له هديةً عليها فقبلها فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الكبائر»، وفي هذا الحديث تخويفٌ وتحذيرٌ وزجرٌ لما يفعله كثيرٌ من الناس اليوم فإن أحدهم إذا رأى أن الوساطة قد نجحت قدم هديةً لمن توسط له فيها، ويظن أنها حلالٌ لأنه قدمها بعد انتهاء القضية، مع أن الحديث صريحٌ في تحريمها، والشرع يريد أن يعود الناس فعل الخير دون ابتغاء أجرٍ أو منفعةٍ.

العدل المطلق

العدل هو إعطاء كل ذي حقٍ حقه، وهو ميزان الله سبحانه في الأرض وهو شريعته التي دعا إليها على لسان أنبيائه ورسله، وهو نوعان نسبيٌ ومطلقٌ، فالنسبي يكون بين العباد، وهو قابلٌ للزيادة والنقص والخطأ، لأن العبد غير معصومٍ، والقاضي يبذل جهده في تحري الحق ويحكم به حسب ما يتبين له من أقوال الخصوم وشهادات الشهود، فإذا اجتهد وأخطأ فله أجرٌ وإن أصاب فله أجران.

أما العدل المطلق فهو خاصٌ بالله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، أي إنه لا يظلم قليلاً ولا كثيراً، والذرة هي النملة الحمراء وهي أصغر أنواع النمل وأخفها وزناً، وقد زعم بعضهم أن هذه النملة ليس لها وزنٌ، وهذا خطأٌ بدليل قوله تعالى: ﴿ وإنْ كانَ مِثقال حَبَّةٍ مِنْ خردلٍ أتَيْنا بها﴾. والمثقال هو الوزن، يعني أن الله سبحانه يجازي الناس بأعمالهم الحسن منها والسيء وذلك مهما بلغت في الصغر قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرةٍ شرّاً يَرَه﴾. قال بعض العلماء: لأن تفضل حسناتي سيئاتي بمثقال ذرةٍ أحب إلي من الدنيا وما فيها، وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقتص للخلق بعضهم من بعضٍ حتى الجماء - يعني التي ليس لها قرنٌ - من القرناء وحتى الذرة من الذرة». ومما جاء في الذرة ما رواه الإمام مسلمٌ في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه

مثقال ذرةٍ من كبرٍ» . . فقال رجلٌ: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنةً فقال: «إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»، أي إن من ظلم الناس ومنعهم حقوقهم مهما كانت صغيرةً لم يدخل الجنة.

ولم تبلغ أمةٌ من الأمم ما بلغته الأمة الإسلامية في العدل والإنصاف وإيصال الحقوق إلى أصحابها، وقد ضرب المسلمون أروع الأمثلة في ذلك، وقد قال الخليفة الأول قولته المشهورة: الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.

وجاء في الرسالة التي بعث بها الإمام الجليل الحسن البصري إلى الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز قوله: أعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائلٍ ومصدر كل حائرٍ وصلاح كل فاسدٍ وقوة كل ضعيفٍ ونصفة كل مظلومٍ ومفزع كل ملهوفٍ. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحفي على ولده يسعى لهم ويعلمهم كباراً يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرحيمة بولدها حملته كرهاً وربته طفلاً تسهر لسهره وتسكن بسكونه ترضعه تارة وتفطمه تارةً وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته.

النهي عن الجزع

لا تخلو الحياة من المتاعب والمصاعب، ولا من النوازل والمصائب، ومن طبيعة النفس البشرية أنها تشعر بالألم وتحس بالجزع عند وقوع المصيبة، فمن الناس من يفقد السيطرة على نفسه فيشتد جزعه وتسود الدنيا في عينيه ويأخذ منه الهم والحزن كل مأخذٍ، ومنهم من يتغلب على نفسه ويسيطر على أعصابه ولا يترك للجزع إليها سبيلاً، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الحال بقوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إذا مَسَّهُ الشَرُّ جَزُوعاً، وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعاً، إلاّ المُصَلّين ﴾. لأن المصلين يجدون في أعماق نفوسهم من قوة الإيمان وبرد اليقين ما يخفف من وقع المصيبة عليها فيصبرون ابتغاء الأجر والثواب لعلمهم أن الخير والشر من الله تعالى ويعرفون أن الجزع الشديد عند نزول الكوارث وحلول المصائب غير جائزٍ لما يتضمنه من عدم الرضا بقضاء الله وقدره.

روى الإمام مالكٌ في الموطأ عن عطاء بن يسارٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مرض العبد بعث الله تبارك وتعالى إليه ملكين، فقال: أنظرا ماذا يقول لعواده فإن هو إذا جاؤوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله عزّ وجلّ وهو أعلم فيقول: لعبدي عليّ إن توفيته أن أدخله الجنة وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه وأن أكفر عنه سيئاته».

فالجزع داءٌ والصبر دواءٌ، وهذا الدواء يحتاج إلى الإيمان واليقين، وقد أمرنا سبحانه أن نستعين بالصبر والصلاة. وقد أرسلت زينب بنت النبي ﷺ

إليه أن ابنهـا قد احتضر، يعني حضرته مقدمات الموت فأرسل يقرىء السلام ويقول لها: «إن لله مـا أخذ وله ما أعطى، وكل شيءٍ عنده لأجلٍ مسمى فلتصبر ولتحتسبه»، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه رجالٌ من الصحابة منهم سعد بن عبادة، فرفع الولد إلى رسول الله ﷺ فأقعده في حجره ونفسه تقعقع يعني تتحرك وتضطرب ففاضت عيناه فقال سعدٌ: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمةٌ جعلها الله تعالى في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

ونحن نرى في بعض البلاد الإسلامية كثيراً من العادات السيئة عند الموت مثل لبس السواد ووضع الستائر، والصياح والنواح واللطم مع أن ذلك من عادات الجاهلية وقد ورد النهي عن لطم الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية.

إخفاء الصدقة

أمر الإسلام بالصدقة ورغب فيها وحث عليها، ووردت في ذلك آثارٌ كثيرةٌ معروفةٌ منها قوله ﷺ: «تصدقوا ولو بتمرة»، وقوله: «كل امرىءٍ في ظل صدقته حتى يُقضىٰ بين الناس»، وسئل أي الصدقة أفضل؟ فقال: «أن تصدق وأنت صحيحٌ شحيحٌ تأمل الغنى وتخشى الفاقة ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا وقد كان لفلان».

والمسلم مخيرٌ بين إظهار الصدقة وإخفائها قال تعالى: ﴿ إنْ تُبدوا الصَدَقاتِ فنِعِمّا هي، وإنْ تُخفوها وتُؤتوها الفقراءَ فهو خيرٌ لكمْ ﴾. قال الحسن: إن إظهار الزكاة المفروضة أفضل وإخفاء صدقة التطوع أفضل لئلا يدخلها الرياء، وقال بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره وإن صنعه إليك أحدٌ فأذعه وانشره، وقال العباس رضي الله عنه: لا يتم المعروف إلا بثلاث خصالٍ تعجيله وتصغيره وستره، وحديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله معروفٌ وقد ورد فيه: «ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»، وهو تصويرٌ جميلٌ للمحسن الذي تصدق بصدقةٍ خفيةٍ عن أعين الناس ابتغاء مرضاة الله حتى إن يده اليمنى لو تصدقت بشيءٍ لما شعرت بذلك يده اليسرى.

ولا شك أن الإخفاء فيه سترٌ على الفقير فلا ينهتك ستره أمام الناس، ولا يتعرض للذل والمهانة ومن طبع المسلم أن يكون عزيز النفس ولو كان فقيراً، وقد وصف الله سبحانه هؤلاء بقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ

تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُم لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ يعني أنهم ينقبضون عن سؤال الناس ولا يذلون نفوسهم بل يتعففون ويصبرون. وقد ورد في الحديث: «صدقة السر تطفىء غضب الرب». قال ابن عباسٍ: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً.

قال الإمام النخعي: كان الرجل يضع الصدقة في يد الفقير ويتمثل قائماً بين يديه ويسأله قبولها، ويروى أن النبي ﷺ قال: «الصدقة تسد سبعين باباً من الشر». وقال عبد العزيز بن عمير: الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه.. ويحكى أن رجلاً أرسل ابنه في تجارةٍ فمضت أشهرٌ ولم يقع له على خبرٍ، فتصدق برغيفين سراً ولم يخبر أحداً وكتب تاريخ ذلك اليوم في ورقةٍ فلما كان بعد سنةٍ رجع ابنه سالماً رابحاً، فسأله أبوه: هل أصابك في سفرك بلاءٌ؟ قال: نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر وغرقت أنا في جملة الناس وإذا بشابيّن أخذاني فطرحاني على الشط وقالا لي قل لوالدك: هذا بالرغيفين.

مقاطعة أهل الأهواء

يصاب أحدنا بعلةٍ في بدنه فيذهب إلى الطبيب طالباً منه مداواته، فيعطيه العلاج الذي يراه صالحاً له ويدله على الطعام الذي يصلح له، ويمنعه عن تناول بعض الأطعمة التي تضره في بدنه وتؤذيه في جسمه فإذا أطاعه واجتنبها كان ذلك خيراً له، وإن عصاه وتناولها فربما آذته وألحقت به مضرةً.

هذا مثلٌ ضربناه لنعلم كيف نحدد موقفنا مع أهل الأهواء الضالة والمذاهب المنحرفة، ولئن كان تناول الطعام الضار يؤذينا في أبداننا، فإن الأذى الذي يلحقنا من أمثال هؤلاء يمس عقولنا وأرواحنا وشتان بين مرض الجسم ومرض الروح.

وقد دلنا الشرع على الطريقة التي يجب أن نتبعها في علاقاتنا مع هؤلاء الملحدين والمنحرفين والداعين إلى المذاهب الجديدة التي تحارب الإسلام وتعمل على الكيد للمسلمين كي يفتنوهم عن دينهم قال تعالى: ﴿وقد نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أنْ إذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بهَا وَيُسْتَهزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُم حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيرِه إِنَّكُم إذاً مِثْلُهُم﴾. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذين يَخُوضُون في آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غيرِه﴾... وهذا هو مبدأ المقاطعة، لأن الابتعاد عن هؤلاء واجبٌ كوجوب الابتعاد عن الوباءِ الشامل والمرض المعدي.. فإنك إذا رأيت الرجل المنحرف نصحته ووعظته ودعوته إلى ترك الآراء المنحرفة والأفكار الشائنة فإن لم يسمع منك وبقي مصراً على رأيه وجب عليك أن تعرض عنه وأن تتركه

وتقاطعه حتى يثوب إلى رشده، وإنك إن لم تفعل ذلك تحقق فيك قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُم ﴾. وإذا كنت في مجلسٍ وجرى فيه حديثٌ من هذا النوع ولم تستطع أن ترد على القائل بما يرده عن خطئه، أو لم يقتنع منك بخطل قوله فقد وجب عليك ترك المجلس والانسحاب منه بجرأةٍ ولو كان ذلك مخالفاً لآداب المجاملة المتعارف عليها اليوم بين الناس، لأن المجاملة في مثل هذه الأمور لا معنى لها وليست إلا ضعفاً في الإيمان وجبناً وخيانةً للمبدأ والعقيدة.

قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي: اسمع مني كلمةً فأعرض عنه وقال: ولا نصف كلمةٍ. وقال الفضيل بن عياضٍ: من أحب صاحب بدعةٍ أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه، ومن زوج كريمته من مبتدعٍ فقد قطع رحمها ومن جلس مع صاحب بدعةٍ لم يعط الحكمة.

ويروى أن عمرو بن العاص بعث إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما برجلٍ يسأل عن متشابه القرآن فأوجعه ضرباً وأمر أن لا يجالسه أحدٌ من المسلمين فكان كلما جلس في حلقةٍ تفرق الناس عنه إطاعةً لأمر عمر حتى اشتد الأمر على الرجل وجاء إليه وتاب من بدعته.

الاستخـــارة

إذا أراد المؤمن أن يقـوم بعملٍ من الأعمال، أو ينفذ مشروعاً استعد له ودرسه من سائر جوانبه ثم توكل على الله سبحانه عند المباشرة به، فهو يجمع بين الطريقين يبذل جهده ويطلب التوفيق من ربه، وهذه الناحية الروحية هي التي تميز المسلم عن غيره من الناس الذين يعيشون حياةً ماديةً صرفةً قوامها المال وحده، لا أثر فيها للروح ولا تعلق فيها بالخالق، وهذا المعنى هو الذي جاء به الحديث الشريف الذي يقول: «اعقل وتوكل»، فالمسلم مأمورٌ باتخاذ الأسباب اللازمة والاحتياطات الضروريـة ثم يطلب العـون من ربه على التنفيذ. .

وقد أمرنا الشارع الحكيم بالتفكير والبحث والنظر وتقليب الأمر على وجوهه ومشاورة العقلاء من الأصحاب والأصدقاء، ثم تكون الاستخارة من بعد ذلك فكأن العبد المسلم يقول: يا رب إني بذلت جهدي واستفرغت طاقتي وأنعمت النظر في أمري ولكنني لا أعلم النتيجة، لأن باب الغيب مقفلٌ لا أرى ما وراءه، وأنت وحدك يا رب مطلعٌ عليه، فإن كان هذا الأمر خيراً، وكنت مصيباً في تقديري وحكمي فاكتب لي التوفيق والتيسير.

هذه هي الاستخارة الشرعية ليس فيها اتكالٌ على المصادفات، ولا تعطيلٌ للعقل من أن يدقق النظر وأن ينظر ويبحث، ولكن فيها رجوعاً إلى الله وطلباً للتوفيق منه.

والاستخارة الشرعية هي أن تتوضأ وتصلي ركعتين، ثم تتوجه بعدهما

إلى الله تعالى وتدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ودنياي ومعاشي ومعادي فيسره لي وهونه عليّ، وإن كنت تعلم أنه شرٌ لي في ديني ودنياي ومعاشي ومعادي فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به.

هذا هو دعاء الاستخارة فمن أراد الزواج مثلاً أو السفر في طلب الرزق أو إنشاء شركة أو تنفيذ مشروع فليدرس الموضوع من جوانبه كلها وليوازن بين المنافع والمضار وليتخذ للأمر أهبته من السعي والجهد والمال، فإذا فرغ من الاستعداد صلى ركعتين وتوجه إلى ربه بنفسٍ خاشعةٍ وقلبٍ مطمئنٍ ودعا بهذا الدعاء فإذا شرح الله صدره مضى في عمله متوكلاً على الله.

وقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان يعلم أصحابه الاستخارة كما يعلمهم القرآن. اللهم اختر لنا ما فيه الخير.

الإيمان بالقدر

أوجب الشرع على المسلم أن يؤمن بالقدر خيره وشره من الله سبحانه وتعالى، وهذا الإيمان بالقدر يدل المؤمن على أن لهذا الكون نظاماً محكماً أبدعه خالق السماوات والأرض، وسنناً مطردةً ارتبطت فيها الأسباب بالمسببات، ويحثه على العمل والسعي دائماً طلباً للأسباب.

وهذا الإيمان يخفف من جزع المؤمن إذا نزلت به النوائب، ويثبت قلبه عند ملاقاة المصاعب، فلا تذهب نفسه حسراتٍ إذا أصابه الشر ولا يفقد رشده من الفرح إذا ناله الخير، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إلاّ في كتاب مِن قَبل أنْ نَبْرأها إنّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِير لِكَيْلاَ تَأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكمْ وَلاَ تَفْرحُوا بما آتاكمْ﴾. أي حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الخير والرزق ولا تفرحوا بما نالكم من العافية والخير والرخاء.

ورد في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه» ثم قرأ: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُم﴾، لأن ما فاته لم يقدر له ولو أنه قدر له فإنه يأتيه ولا يفوته. قال ابن عباس: ليس من أحدٍ إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً وغنيمته شكراً..

قال الشاعر:

هون على نفسك من سعيها فـــليس مـــا قُدِّرَ مـــردود
وأرضَ بحكم الله في خلقه كـــل قضـــاء الله محـــمـــود

فما دام الذي قدره الله سبحانه واقعاً لا محالة شئنا أم أبينا، فلماذا نسمح للهموم أن تخالط نفوسنا وللأحزان أن تملأ قلوبنا؟ وما الذي نستطيع أن نفعله أمام القدر؟ إن الإنسان خلق ضعيفاً عاجزاً عن الخروج من دائرة القضاء والقدر فمن الخير له أن يروض نفسه على تقبل ما كتب عليه من غير تذمر ولا تضجر، فإذا رضي مطمئن القلب، وإذا صبر ثابت العزم نال من الله سبحانه كمال الثواب والأجر، وقد قيل: لأن تصبر وأنت مأجورٌ خيرٌ من أن تصبر وأنت مأزورٌ.

ومع ذلك فعلى المسلم أن يبذل جهده في السعي والعمل متوكلاً على الله طالباً منه التوفيق والمعونة، وعليه أن يعلم أن الإسلام يثبت للعبد الاختيار والكسب، والعبد يفعل بإرادته ما يريد الله أن يفعله قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكرٌ لِلعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاؤُونَ إلاّ أنْ يَشَاءَ اللهُ ربُّ العَالَمِين ﴾.

وليمة العرس

إذا تزوج الرجل، أعد طعاماً لأهله وأصحابه وأصدقائه، ودعاهم إليه احتفالاً بزواجه، وهذه الوليمة من السنن المستحبة التي حث عليها الشارع الحكيم، وورد أن النبي ﷺ لم يتركها في سفرٍ ولا حضرٍ، وأنه قال لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «أولم ولو بشاةٍ»، وهذا هو الحد الأدنى ولا حد لأكثرها، ولكن الزيادة فيها مكروهةٌ لأنها من الإسراف المنهي عنه ولأنها من باب تضييع المال وهو غير جائزٍ، ولما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحشٍ ذبح شاةً وصنع وليمةً وقال لأنس بن مالكٍ رضي الله عنه: «اذهب فادع لي من لقيت من المسلمين» فدعوت له من لقيت فجعلوا يدخلون عليه فيأكلون ويخرجون، ووضع النبي ﷺ يده على الطعام فدعا فيه وقال فيه ما شاء الله أن يقول ولم أدع أحداً لقيته إلا دعوته فأكلوا حتى شبعوا وخرجوا وبقي طائفةٌ منهم فأطالوا عليه الحديث جعل النبي ﷺ يستحيي منهم أن يقول لهم شيئاً فخرج وتركهم في البيت فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طعامٍ غَيْرَ ناظِرينَ إناهُ﴾... إلى آخر الآية.

ويستحب لأصحاب الزوج وجيرانه مساعدته في وليمته بطعامٍ يقدمونه من عندهم، وقد ورد أن النبي ﷺ لما تزوج صفية بنت حييٍ قال: «من كان عنده شيءٌ فليجيء به وبسط نطعاً» ـ يعني بساطاً من جلد ـ فجعل الرجل يجيء بالأقط وجعل الرجل يأتي بالتمر وجعل يجيء بالسمن فحاسوا حيساً أي

إنهم خلطوا التمر مع السمن وعجنوه وأكلوا بعد وضعه على النار.

وإجابة الدعوة واجبةٌ لأن النبي ﷺ قال: «إذا دعي أحدكم إلى الوليمة فليجب»، ولكنها تكون في بعض الأحيان غير واجبةٍ وذلك مثل تخصيص الأغنياء دون الفقراء لأنه قد ورد أن شر الطعام طعام الوليمة يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء، ومثل أن يكون في الطعام شبهةٌ، أما إذا كان يعلم أن الطعام من مالٍ حرامٍ فلا يجوز الحضور، ومثل أن يكون في مكان الدعوة منكرٌ ظاهرٌ مثل ستائر الحرير أو فرش الحرير أو أن تكون الآنية من ذهبٍ أو فضةٍ، أو يكون هناك خمرٌ أو لهوٌ أو غناءٌ وطربٌ أو اختلاط الجنسين أو يكون هناك من تجلب مجالسته الضيق والإزعاج كالأراذل والماجنين والفاسقين فهذه كلها تعتبر أعذاراً للمدعو في عدم الحضور، أما في حال عدم وجودها فإن الحضور إلى الوليمة واجبٌ، وكان ابن عمر رضي الله عنه يأتي الدعوة في العرس وفي غيره ويأتي أحياناً وهو صائمٌ.

وأخيراً فإننا نلفت النظر إلى ما اعتاده بعض الناس من المباهاة والمفاخرة في ولائم العرس وإنفاق الأموال الكثيرة فيها، والإسراف والتبذير والبذخ، كلها أمورٌ قبيحةٌ مستنكرةٌ ومن الواجب تركها لأن فيها إرهاقاً للأزواج والظلم لا يجوز.

من هو الشهيد

في هذه الأزمنة الأخيرة كثر استعمال كلمة (الشهيد) وتوسع الناس في إطلاقها توسعاً أخرجها عن حدود معناها الذي وضع لها في أصل الشريعة، وصار الناس الآن يكثرون من ذكر شهيد الوطن وشهيد البلاد وشهيد الواجب، ثم لم يقفوا عند هذا الحد بل قالوا أيضاً شهيد العلم وشهيد الفن والفن في معناه المعروف الآن هو التصوير والرسم والتمثيل والغناء والموسيقى، فإذا اعتدى أحدٌ على واحدٍ من المغنين والمطربين وقتله صار القتيل في عرفهم شهيداً لأنه مات في سبيل الفن..

ونحن نحب أن نشير إلى أن هذا اللفظ ذو معنىً اصطلاحي شرعي معروفٍ لدى أهل العلم بأحكام الشريعة، ولا يجوز التوسع فيه وإخراجه عن حدوده الموضوعة له.

والأصل في هذا، قول الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلوا في سَبيل اللهِ أَمْوَاتَاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقون﴾.. قال المفسرون: إن هذه الآية نزلت في شهداء غزوة أحدٍ أو في شهداء بئر معونة، وهؤلاء الذين قال الله فيهم إنهم أحياء عند ربهم في الجنة يُرزقون، هم الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله تكون أرواحهم في أجواف طيرٍ خضرٍ يرزقون في الجنة ويأكلون ويشربون ويتنعمون، فأجسادهم في التراب وأرواحهم في الجنة.

روى الإمام مسلمٌ في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

أن رجلاً أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله».. ففي هذا الحديث الشريف حدد لنا النبي ﷺ الشهادة تحديداً واضحاً وحصرها في قتال الأعداء بنية إعلاء كلمة الله ونصر دين الله وفي سبيل الله لا في سبيل وطنٍ ولا أرضٍ ولا أهلٍ ولا مذهبٍ باطلٍ ولا طلباً للشهرة والسمعة والغنيمة والمال، وليس لأحدٍ الحق في الخروج عن هذا الحد الواضح، وإن الآية الكريمة والحديث الشريف يدلان على المنزلة العالية للقتال في سبيل الله والموت في سبيل الله. وعلى الثواب العظيم الذي يكتب للشهيد ويشمل هذا الثواب تكفير ذنوبه، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر كل شيءٍ إلا الدَّيْن كذلك قال لي جبريل عليه السلام آنفاً».

وأخيراً فإننا ننصح إخواننا الفدائيين وكل من يقاتل معهم بأن ينووا في قلوبهم القتال لإعلاء كلمة الله وأن يوجهوا همهم إلى هذا الهدف السامي ويحصروه فيه فقط لينالوا المنزلة الرفيعة عند ربهم إن شاء الله فيكونوا شهداء بحق.

اللغو في الأيمان

اعتاد كثيرٌ من الناس أن يحلفوا بالله في كثيرٍ من أحاديثهم وأقوالهم، في مجالسهم وأسواقهم وبيعهم وشرائهم فإذا سألته هل رأيت فلاناً؟ قال لك والله ما رأيته.. وإذا قلت له لماذا أخلفت موعدك معي؟ قال والله نسيت لا تؤاخذني. ويقول البائع للمشتري والله وأن السعر الذي طلبته منك معتدلٌ، وأمثال هذا كثيرٌ، فقد اعتادت ألسنتنا هذه الأيمان نقولها عفواً من غير قصد، ومن رحمة الله بنا أنه سبحانه لا يؤاخذنا بها لأنها لغو أي زيادةٌ في الكلام لا يحتاج إليها. قال تعالى: ﴿لا يُؤاخِذُكمُ الله بِاللَّغْوِ في أَيْمانِكمْ﴾ قال ابن عباس: هو مثل قولك في المحاورة، لا والله بلى والله دون أن تقصد اليمين. وقال أبو هريرة: إذا حلف الرجل على الشيء ثم تبين أنه شيءٌ آخر فهو اللغو إذا كان يعتقد أنه هو بعينه. وقال الإمام مالكٌ مثل ذلك، ومن اللغو أيضاً أن تحلف وأنت غضبان، روى ابن عباسٍ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمين في غضبٍ» أخرجه مسلمٌ في صحيحه. وقال مجاهدٌ: هما الرجلان يتبايعان يعني البائع والمشتري فيقول البائع والله لا أبيعك بهذا السعر ويقول الآخر والله لا أشتري بهذا السعر. واليمين مع النسيان تعتبر لغواً فإذا حلف أنه لا يخرج ثم نسي فخرج فلا شيء عليه.. ومن ذلك أيضاً يمين المعصية فإذا اختلف الرجل مع أخيه فحلف أن لا يزوره ثم زاره بعد ذلك فلا شيء عليه لأن صلة الرحم واجبةٌ وقطعها معصيةٌ وقد ورد أن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمينٍ فرأى غيرها خيراً منها فليتركها فإن تركها كفارتها» أخرجه ابن ماجه في سننه.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول الآية أن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه كان عنده أيتامٌ يعولهم وجاءه ضيفٌ، وكان مشغولاً فلما رجع من شغله بعد ساعةٍ من الليل قال لأهله هل عشيتم ضيفي؟ فقالوا كنا ننتظرك فغضب وقال: والله لا آكله الليلة، فلما رأى الضيف ذلك قال: وأنا لا آكل، وقال الأيتام: ونحن لا نأكل. فلما رأى ابن رواحة ذلك ندم وأكل وأكلوا معه، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال له ﷺ: «أطعت الرحمن وعصيت الشيطان». فنزلت الآية: ﴿لا يُؤاخِذُكمُ الله بِاللَّغْوِ في أيْمانِكُمْ﴾.

وعلى كل حالٍ فإننا ننصح القارىء الكريم أن لا يكثر من اليمين بالله وأن لا يعود لسانه عليها لأن الله تعالى يقول: ﴿ولا تَجْعَلوا الله عُرْضةً لأيْمانِكمْ﴾، ويقول أيضاً: ﴿واحْفظوا أيْمانَكُمْ﴾، فليس مِن المُسْتَحْسَنِ أنْ نجْعَلَ اليمينَ مُبْتَذلَةً في كل حقٍ وباطلٍ وفي كل صغيرةٍ وكبيرةٍ وبالله التوفيق.

بين الإيمان والإسلام (١)

سأل سائلٌ: ما الفرق بين الإيمان والإسلام؟ إنكم تذكـرون كلمة المسلمين مرةً وكلمة المؤمنين مرةً فهل هما شيءٌ واحد أم إنهما يفترقان في المعنى؟ والجواب أن الإيمان غير الإسلام، لأن الإيمان هو التصديق وهو أقوى من الإسلام فقد يكون المرء مسلماً في الظاهر غير مؤمن في الباطن فإذا نطق الإنسان بالشهادتين، وأدى الفرائض المطلوبة منه ولكنه لم يكن مصدقاً بها في قلبه ولا معتقداً بها في قرارة فؤاده، لا يفهم من العبادة إلا شكلها الظاهر دون روحها فهو في الظاهر مسلمٌ ونحن لنا الظاهر ولا نستطيع أن نشق عن قلوب الناس لنعرف سرائرهم. قال تعالى في سورة الحجرات حكايةً عن بعض الأعراب: ﴿ قالتِ الأعرابُ آمَنّا، قلْ لم تُؤمنوا ولكنْ قولوا أسْلَمْنا ولمّا يَدخُلِ الإيمانُ في قلوبِكمْ ﴾ وهؤلاء الأعرابُ مِن قبيلةِ بني أسَدٍ قَدِمُوا على رسولِ الله ﷺ وأظهروا الشهادتَيْن ولم يكونوا مؤمنين في أعماق نفوسهم لأن حقيقة الإيمان هي التصديق بالقلب وأما الإسلام فهو التصديق في الظاهر بما جاء به الشرع، وهو يحقن الدم، وهؤلاء الأعراب قالوا آمنا كي يأمنوا على نفوسهم وأموالهم، وقد ورد في الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

قال الإمام النووي رحمه الله: إن المسلم قد يكون مؤمناً في بعض الأحوال ولا يكون مؤمناً في بعضها أما المؤمن فهو مسلمٌ في جميع الأحوال

فكل مؤمنٍ مسلمٌ وليس كل مسلم مؤمناً. . . نفهم من هذا الكلام أن الإسلام دائرةٌ كبيرةٌ وأن الإيمان دائرةٌ أصغر منها موجودةٌ في داخلها. . فإذا نطق المرء بالشهادتين وأدى الفرائض من صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وحج مصدقاً بها معتقداً وجوبها في أعماق قلبه فهو المؤمن المسلم. قال الزجاج: صفة المؤمن أن يكون راجياً ثواب الله خاشياً عقابه.

وقال الزمخشري في تفسيره الكشاف في تعريف المسلم المؤمن الكامل: هو من اعتقد الحق وأعرب عنه بلسانه وصدقه بعمله، فمن أخل بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافقٌ، ومن أخلَّ بالشهادة فهو كافرٌ، ومن أخل بالعمل أي بالعبادة من صلاةٍ وصيام وحج فهو فاسقٌ.

يتبين لنا من هذا الذي ذكرناه أن الرجل إذا عمل الصالحات، واشترك في الأعمال الخيرية ولم يكن مع ذلك مؤمناً في قلبه لم يكن له ثوابٌ في الآخرة وقد يبدو هذا غريباً للوهلة الأولى ولكنه منتهى العدل، لأنه طلب الشهرة في الدنيا ولم يطلب المكافأة في الآخرة فأعطاه الله ما طلب قال تعالى في هذا وأمثاله: ﴿فَمِنَ الناسِ مَن يقولُ ربَّنا آتِنا في الدنيا وماله في الآخرةِ مِن خَلاقٍ﴾. وللحديث بقيةٌ.

بين الإيمان والإسلام (٢)

تحدثنا عن الإيمان والإسلام، والفرق بينهما هو أن الإسلام محله اللسان، والإيمان محله القلب، فمن تصور أن الله سبحانه مطلعٌ عليه، ناظرٌ إليه، وأدى الطاعات عن تصديقٍ وجزمٍ واعتقادٍ راسخٍ كان مؤمناً، إذا عرضت له المعصية منعه من إتيانها خوف الله والحياء منه ورد في الحديث: «إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلة فإذا أقلع ـ أي تاب توبةً صادقةً ـ رجع إليه»، ويؤيده الحديث الآخر وهو قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ» لأنه إذا كان صادق الإيمان متصوراً أن الله سبحانه ناظرٌ إليه لم يستطع أن يقدم على هذه المعصية.

وقد أوضح النبي ﷺ حدود الإسلام وحدود الإيمان بشكل واضح بالحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحدٌ حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً» قال: صدقت قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» قال: صدقت قال: فأخبرني عن الإحسان قال: «أن تعبد الله

كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال: فأخبرني عن الساعة قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» قال: فأخبرني عن أماراتها قال: «أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»، قال: ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال لي يا عمر: «أتدري من السائل» قلت: الله ورسوله أعلم قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»..

وهذا الحديث أصلٌ عظيمٌ من أصول الدين، يدل على أن الإيمان والإسلام والإحسان تسمى كلها ديناً والإيمان هو السعادة الحقيقية للإنسان، لأن الحياة مملوءة بالآلام والمصائب، مغمورةٌ بالمكاره والمصاعب، فإذا لم يكن للمرء وزرٌ من إيمانه يلجأ إليه كلما حاقت به الشدائد كانت حياته جحيماً وعبئاً ثقيلاً لا يستطيع احتماله، ومن مصلحة المجتمع أن يكون الناس كلهم مؤمنين لا يتجنبون المخالفات خوفاً من الشرطي ولا من النظام، بل يتركونها إطاعةً لأمر الله ورغبةً في ثوابه وخوفاً من عقابه الأخروي، وبهذا ساد أجدادنا ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

إفشاء السلام

إن الإسلام دعا إلى تقوية الرابطة بين أبنائه بعد أن جعلهم إخوةً متوادين متحابين متعاونين وجعل المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، فكل عملٍ أدى إلى تقوية هذا الارتباط فهو حسنٌ ومطلوبٌ ومن حق أخيك المسلم عليك أن تسلم عليه إذا لقيته وتشمته إذا عطس وتعوده إذا مرض وتبر قسمه إذا أقسم عليك وتنصح له إذا استنصحك وأن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك وهذا كله وأمثاله يزيد المودة بينكما، وبعضها أسهل من بعضٍ، ولا شك أن السلام من الأمور الهينة السهلة التي لا تحتاج إلى تعبٍ ولا إلى بذل جهدٍ، بل هي كلمةٌ تقولها بلسانك تسر بها أخاك، ولذلك قال بعض الحكماء: إن أبخل الناس من بخل بالسلام.

وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ قوله: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» رواه مسلمٌ في صحيحه وجاء في الحديث الآخر: «إذا انتهى أحدكم إلى مجلسٍ فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة، وروي أن من تمام التحية المصافحة قال الحسن: المصافحة تزيد في الود.

وتحية الإسلام هي كلمة (السلام عليكم) ويقول في الرد (وعليكم السلام) وإذا زاد قوله ورحمة الله وبركاته كان أفضل وأحسن قال تعالى: ﴿وإذا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، وقال تعالى في الآية

الأخرى مخبراً عن البيت الكريم: ﴿ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيت ﴾.

قال العلماء: إن الابتداء بالسلام سنةٌ ورده فريضةٌ وإذا رد واحدٌ من جماعة كان كافياً، فإذا لم يرد أحدٌ منهم كانوا كلهم آثمين، واتفقوا على أن الراكب يسلم على الماشي، وأن النفر القليل يسلم على الكثير، وأن الصغير يسلم على الكبير، وأن القائم يسلم على القاعد، وأما التسليم على الصبيان فقد اختلفوا فيه، وقد جاء في الصحيحين عن سيارٍ قال: كنت أمشي مع ثابتٍ فمر بصبيانٍ فسلم عليهم وذكر أنه كان يمشي مع أنس فمر بصبيانٍ فسلم عليهم وحدث أنه كان يمشي مع رسول الله ﷺ فمر بصبيان فسلم عليهم وهذا من خلقه العظيم ﷺ وفيه تعليمٌ للصغار وتدريبٌ لهم على آداب الشريعة.

وقالوا إن السنة في السلام وفي رده أن تجهر بلسانك بلفظ السلام ولا تكفي الإشارة بالإصبع والكف عند الإمام الشافعي، وتكفي عند الإمام مالكٍ إذا كنت على بعدٍ من صاحبك. قال ابن مسعودٍ: السلام اسمٌ من أسماء الله عزّ وجلّ وضعه في الأرض فأفشوه بينكم فإن الرجل إذا سلم على القوم فردوا عليه كان له عليه فضل درجةٍ لأنه ذكرهم فإن لم يردوا عليه رد عليه من هو خيرٌ منهم وأطيب.

حكم القيام

ورد أن النبي ﷺ أمر الأنصار حين أقبل نحوهم سعد بن معاذٍ راكباً دابته أن يقوموا إليه تكريماً له وقال لهم: قوموا لسيدكم، واستدل العلماء بهذا على مشروعية إكرام الصالحين والعلماء في المناسبات التي تدعو إلى ذلك.

يقول الإمام النووي في شرح مسلمٍ تعليقاً على الحديث: إن فيه إكرام أهل الفضل وتلقيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا، هكذا احتج به جماهير العلماء لاستحباب القيام. قال القاضي وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك في من يقومون عليه وهو جالسٌ ويمثلون قياماً طول جلوسه، والقيام للقادم من أهل الفضل مستحبٌ.. انتهى ما ذكره الإمام النووي.

ورأيت في كتاب (تاريخ قضاة الأندلس) كلاماً حسناً في الموضوع يقول فيه إن مسألة القيام فيها تفصيلٌ وحاصل ما قاله أبو الوليد في بيانه أن القيام للرجال على أربعة أنواعٍ: وجهٌ يكون القيام فيه محظوراً، ووجهٌ يكون فيه مكروهاً، ووجهٌ يكون فيه جائزاً، ووجه يكون فيه حسناً.

وبعد هذه المقدمة أوضح أن القيام يكون محظوراً إذا قام الرجل تعظيماً وإكباراً لمن يحب أن يقوم الناس له تكبراً وتجبراً على الناس. فالقيام لمثل هذا الشخص حرامٌ لا يجوز لأن المسلم عزيزٌ في نفسه لا يذل إلا لخالقه، والتكبر على الناس حرامٌ فقيامك له إعانةٌ له على التجبر.

ثم أوضح القيام المكروه حين يقوم الناس تعظيماً لرجلٍ لا يحب أن

يقوموا له ولا ينكر عليهم إن قاموا، وهو مكروهٌ لأنه يخشى أن تتغير نفس الذي قاموا إليه، وأن يداخله شعور الإعجاب بالنفس.

ثم بين القيام الجائز وهو أن تقوم احتراماً وإعظاماً لمن لا يريد أن يقوم الناس له ولا تتغير نفسه بعدم القيام، وهذه صفةٌ معدومةٌ في الناس ما عدا الأنبياء المعصومين لأن كل واحدٍ منا إذا دخل على قومٍ ولم يقم له أحدٌ، لا بد أن يشعر في نفسه بشيءٍ من الغضاضة، ويعتبره إهانةً له، وهذه هي طبيعة النفس إلا من عصم الله.

أما الحالة الأخيرة التي يكون فيها القيام حسناً ومقبولاً، فهي القيام للقادم من سفرٍ فإنك إذا رأيته قادماً من السفر قمت له فرحاً بقدومه، وأقبلت إليه سروراً بلقائه ومثل ذلك إذا أنعم الله على صاحبك بنعمةٍ، مثل ترفيعٍ في وظيفته أو توفيقٍ في تجارةٍ أو صناعةٍ أو كشف غمةٍ عنه فإنك تقوم له وتتلقاه مبدياً سرورك بما أنعم الله عليه، ويقال مثل ذلك في القادم عليك للتعزية والله أعلم.

الدفاع عن العرض والمال

جاء في الخطبة التي خطبها النبي ﷺ بمنى في حجة الوداع قوله: «ألا وإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فليبلغ أدناكم أقصاكم ألا هل بلغت». وقد حرم الله سبحانه التعدي بسائر أنواعه فقال: ﴿ ولا تَعْتدوا إنّ الله لا يُحِبُ المُعتدين ﴾، وأعطى سبحانه حق دفع الاعتداء بمثله فقال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾، وقال أيضاً: ﴿ وإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾.

وهذا هو مبدأ المماثلة في القصاص فالقاتل يقتل بمثل الشيء الذي قتل به، والاعتداء هو التجاوز، فمن ظلمك فخذ حقك منه بقدر مظلمتك.

وقد أجاز العلماء للرجل أن يدافع عن ماله إذا أراد أحدٌ أن يأخذه منه بغير حقٍ، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال جاء رجلٌ فقال يا رسول الله أرأيت إن جاء رجلٌ يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تعطه مالك». قال أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتله». قال أرأيت إن قتلني قال: «فأنت شهيدٌ قال أرأيت إن قتلته قال: «هو في النار». . رواه مسلمٌ في صحيحه.

أما الدفاع عن العرض فهو واجبٌ، لذا فإنه يجب على الرجل إذا رأى غيره يحاول الاعتداء على امرأةٍ أن يدفعه عنها بكل وسيلةٍ ممكنةٍ ولو بالقتل، ويجب على المرأة إذا أراد فاسقٌ الاعتداء على شرفها أن تدافع عن نفسها

بكل ما تملك من طاقةٍ واستطاعةٍ، ولو قتلته كان دمه هدراً. روى الإمام أحمد من حديث الزهري أن رجلاً أضاف ناساً من هذيلٍ، يعني إنهم أنزلوه ضيفاً عندهم فأراد امرأةً على نفسها فرمته المرأة بحجرٍ فقتلته فقال عمر: والله لا يودى أبداً أي ليست له ديةٌ وذلك لأن الأعراض حرمات الله في الأرض تجب صيانتها وتحرم إباحتها.

ومثل ذلك ما لو اطلع إنسانٌ بدون إذنٍ على بيت غيره من ثقبٍ في الجدار، أو من شقٍّ في الباب أو من سطحٍ فرماه صاحب البيت بحصاةٍ أو طعنه بعودٍ فقلع عينه فلا مسؤولية عليه ولا قصاص لقوله ﷺ: «لو أن رجلاً اطلع عليك بغير إذن فحذفته، (أي رميته) بحصاةٍ ففقأت عينه ما كان عليك جناحٌ» رواه الشيخان البخاري ومسلم، هذا إذا رماه بشيءٍ خفيفٍ كالحصاة، أما إن رماه بما يؤدي إلى القتل عادةً كالحجر والحديدة فعليه القصاص لأنه تجاوز الحد، وقد بين النبي ﷺ الحكمة من منع الاطلاع على البيوت فقال: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» أو كما قال.

بين السلم والحرب

لم يأت الإسلام لأمةٍ من الأمم ولا لشعبٍ من الشعوب ولكنه جاء للدنيـا كلها أبيضها وأسودها، شرقها وغربها، جاء للعالم كله ليربط بين شعوب الأرض برباط الوحدة الإنسانية الشاملة التي لا فضل فيها لعربيٍّ على عجميٍ ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، فالرابطة بين الناس هي عبادة الله واتباع شريعته.

وكلمة الإسلام ليست بعيدةً عن لفظ السلام فهما من أصلٍ واحدٍ، ومن أسماء الله في القرآن السلام: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾. والتحية بين المسلمين هي السلام عليكم، وأحد أبواب المسجد الحرام هو باب السلام، والجنة التي أعدها الله لعباده المتقين هي دار السلام.

ومن المعروف أن المسلمين لم يؤذن لهم في القتال قبل الهجرة برغم ما ذاقوا من الأذى وكابدوا من الأسى لأن همتهم منصرفةٌ إلى نشر الدعوة فلما اشتد عداء قريش وأذاهم هاجروا من مكة ثم نزلت آية القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِين يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِموا وإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِير﴾.

وليست الغاية من القتال عندهم الغزو والفتح والسيطرة لكنهم مكلفون بنشر دعوة الإسلام، وهذه الدعوة لا بد لها من حمايةٍ كي تستمر، فمن عاندها ووقف في طريقها وقاومها بالعنف فقد وجب دفعه بالعنف قال تعالى:

﴿ وقـاتِلوا في سبيلِ الله الـذين يُقـاتِلونكمْ ولا تَعْتـدوا إنّ الله لا يُحبُّ المعتدين ﴾.

فالحـرب في الإسلام حرب دفاعية، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحدٍ ولا يقاتلون إلا إذا وقف الأعداء في طريقهم وأكرهوهم على القتال.

نحن ندعو الناس إلى الإسلام الذي يصلح نفوسهم ويهذب أخلاقهم ويمهد لهم طرق الحياة الكريمة الهانئة ويحمل إليهم الخير والسعادة والهناء، فإذا استجابوا لدعوتنا كانوا إخواناً لنا، لهم مالنا وعليهم ما علينا وإن أبوا طلبنا منهم دفع الجزية وهي ليست ضريبةً ولا عوضاً مالياً، بل هي لحمايتهم في أموالهم وأعراضهم وكرامتهم وعقائدهم، جاء في صيغة العهد االذي كتبه خالد بن الوليد رضي الله عنه لصاحب قس الناطف: إني عاهدتكم على الجزية والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا نمنعكم. فإن أبوا دفع الجزية وأصـرّوا على القتال فقد وجب قتالهم لنشر الإسلام بينهم.

والإسلام يحث المسلمين على إعداد القوة بسائر أنواعها المعروفة وجميع آلات الحرب ووسائل القتال ليرهبوا به عدو الله وعدوهم. والجهاد في الأصل من فروض الكفاية ولكنه في حالات النفير العام أي عندما يعتدي العدو على بلاد المسلمين يصبح فرض عينٍ على جميع القادرين على حمل السلاح من سائر الطبقات كي تبقى للإسلام عزته ومنعته، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

حقيقة الزهد

تحدثنا كتب التاريخ عن محاورةٍ دارت بين اثنين من كبار الصالحين هما الفضيل بن عياضٍ وعبدالله بن المبارك، قال له الفضيل: أنت تأمرنا بالزهد ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام فكيف تأمرنا بشيءٍ وتفعل بخلافه؟ فكان جواب ابن المبارك قوله: يا أبا عليٍّ أنا أفعل هذا لأصون به وجهي وأكرم به عرضي وأستعين به على طاعة ربي لا أدرى لله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به.

بهذا الكلام شرح لنا عبدالله بن المبارك رضي الله عنه المعنى الحقيقي لكلمة الزهد التي يفهمها الناس فهماً خاطئاً ويظنون أنها ترك الدنيا والخروج عن المال، مع أن الإسلام لا يكره للمسلم أن يكون غنياً شريطة أن يلتمس الغنى من الوجه الحلال وأن يؤدي حق الله فيه، وإن الزهد في معناه العام هو أن يقبض المرء يده عما لا يحق له.

وكان الصحابة الكرام والتابعون يجدون في العمل ما استطاعوا ويزهدون في الدنيا زهد من لا يتناول منها إلا حلالاً طيباً، وزهد من لا تلهيه تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله، واشتهر كثيرٌ منهم بالجد في العبادة والزهد، وكان منهم أبو ذرٍ رضي الله عنه كان يرى عمال الخليفة عثمان رضي الله عنه يتسعون في المراكب والملابس فكان يقرعهم ويدعوهم إلى إنفاق ما زاد عن حاجتهم، وهذا الأمر لا يطيقه أكثر الناس فكتب معاوية إلى الخليفة بذلك فاستقدمه الخليفة إلى المدينة فراح يصنع فيها ما صنعه بالشام فقال له عثمان

لو اعتزلت أي إن من كان مثلك في هذه الدرجة من الزهد اقتضت حاله أن ينفرد عن الناس، لأن الرجل الصالح الذي يخالط الناس يحسن به أن يسكت عنهم إذا أدوا الحقوق الواجبة عليهم في أموالهم.

وإن عبدالله بن المبارك الذي نتحدث عنه كان محدثاً من أكبر المحدثين، وكان مجاهداً من أشجع المجاهدين، وكان إلى جانب ذلك تاجراً غنياً من أكرم التجار الأغنياء الموسرين، وكان مع ذلك كله زاهداً في الدنيا لا يحرص عليها، ولم يكن يجمع المال ليخبأه في الصناديق، ولكن لينفقه في سبيل الله، وكان قد خصص مئة ألف دينارٍ في كل سنةٍ يوزعها على العلماء والمجاهدين، وكان يبذل المال الوفير للفقراء والمحتاجين وأبناء السبيل، ويقضي عن أصحاب الديون ديونهم.

وهذا هو الزهد، ورب غنيٍّ يملك المال الكثير أزهد في الدنيا ممن يلبس المرقعات من الثياب ويكتفي بالخبز والملح وينام على التراب.

عذرٌ غير مقبول

إذا اعتذر المسلم في بلاد الإسلام بالجهل فإن عذره غير مقبولٍ، لأنه مكلفٌ بتعلم أحكام دينه مهما كانت مهنته ومهما كان عمله، ولأن الجاهل كالمتعمد لا يجوز له أن يقدم على فعل حتى يعلم حكم الله فيه، قال تعالى: ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لكَ بِهِ عِلْمٌ﴾. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: العلم علمان علم عامةٍ لا يسع بالغاً جهله مثل الصلوات الخمس، وأن لله على الناس صوم شهر رمضان وحج البيت إذا استطاعوه وزكاةً في أموالهم وأنه حرم عليهم الزنا والقتل والسرقة والخمر وأمثال ذلك وعلم الخاصة وهو ما ينوب العباد من فروع الفرائض مما ليس فيه نص كتابٍ ولا في أكثره نص سنةٍ وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياساً.

ويدل قول الإمام على أن الأحكام الضرورية للحلال والحرام يعتبر كل مسلمٍ عالماً بها، وأنه إذا كان يجهلها فعليه أن يتعلمها لأنه لا يعذر بالجهل بها. وليس في الإسلام طبقةٌ اسمها (رجال الدين) كالذي نسمعه عن بلاد الغرب، فالمسلم مكلفٌ بمعرفة الضروري من أحكام دينه.

روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما سلك عبدٌ طريقاً يقتبس فيه علماً إلا سلك به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً عنه، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر».

وقال معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشيةٌ وطلبه عبادةٌ ومدارسته تسبيحٌ والبحث عنه جهادٌ وتعليمه لمن لا يعلم صدقةٌ وبذله لأهله قربةٌ لأنه معالم الحلال والحرام والأنيس في الوحشة والصاحب في الخلوة والدليل على السراء والضراء والزيـن عند الأخلاء والقرب عند الغرباء يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخلق قادةً يقتدى بهم وأئمةً في الخلق تقتص آثارهم وينتهى إلى رأيهم وترغب الملائكة في حبهم، بـأجنحتها تمسحهم، حتى كل رطبٍ ويابسٍ لهم مستغفرٌ، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضـعـف. يبلغ به العبد منازل الأحرار ومجالسة الملوك وبه يطاع الله عزّ وجلّ.

دعاء جامع

عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال دخل رسول الله ﷺ ذات يومٍ المسجد فإذا هو برجلٍ من الأنصار يقال له أبو أمامة جالساً فيه فقال: «يا أبا أمامة مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت صلاة؟» قال: همومٌ لزمتني وديونٌ يا رسول الله فقال: «ألا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله عزّ وجلّ همك وقضى عنك دينك؟» فقال: بلى يا رسول الله قال: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من البخل والجبن وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» قال: فقلت ذلك فأذهب الله همي وقضى عني ديني؛ رواه أبو داود.

يأمرنا النبي ﷺ أن ندعو بهذا الدعاء الجميل الجليل في ساعات الهم، ومن منا لا تتناوله الهموم ولا تتناوشه الأحزان؟ إن أكثر الناس يصيبهم الهم والقلق ويستولي الضجر على نفوسهم بسبب مرضٍ أصابهم أو فقرٍ نزل بهم أو حزنٍ لعدم نيل ما كانوا يأملون الوصول إليه من مالٍ أو منصبٍ أو منافع دنيويةٍ فيصرفون أوقاتهم في الهموم والهواجس، والهم مضيعةٌ للوقت وداعيةٌ إلى التقصير في الواجبات، كما أن الحزن لا يرد فائتاً ولا يدفع أمراً واقعاً وفيه معنى السخط على القضاء وهو يحمل صاحبه على التكاسل عن عملٍ يخفف ألم المصيبة.

أما العجز فهو عدم القدرة على الشيء، وأما الكسل فهو القعود عن العمل مع القدرة عليه وهما من الأمراض الوبيلة التي تقتل النفس وتميت

القلب، والتخلص منهما يكون بتجنب أسبابهما وتقوية الإرادة، والمؤمن لا يعرف القنوط ولا اليأس، وهو يبذل جهده في السعي والعمل كما أمره الله ويعلم أن نجاحه أو فشله بيد الله.

أما الجبن والبخل فإن الأول هو شحٌّ بالنفس والثاني شحٌ بالمال، والمسلم لا يبخل بنفسه، بل يبذلها في سبيل الله للدفاع عن الحق ودفع المعتدين عليه، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ﴾. وهو لا يبخل بماله في الزكاة والصدقات والنفقات وإعانة الفقراء والمحتاجين وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرَاً لَهُم بَلْ هُوَ شَرٌ لَهُم سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةَ﴾.

فلنتعوذ بالله من هذه الآفات التي علمها النبي ﷺ لأبي أبا أمامة كي تطمئن قلوبنا بهذا الدعاء، ولنكثر من ذكر الله سبحانه قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾.

رجال من التاريخ

الليث بن سعد

هل سمعتم بعالمٍ من كبار العلماء وهو في الوقت نفسه غنيٌّ من كبار الأغنياء وكريمٌ من أعيان الكرماء؟ إنه فقيه مصر وعالمها الليث بن سعدٍ الذي عاش في العصر العباسي وعاصر الخليفة هارون الرشيد كان مرجعاً في العلم وحجةً في الفقه وعلماً من أعلام الإسلام الذين يشار إليهم بالبنان.

عكف منذ نشأته على تعلم العلم والاشتغال بالتجارة فنشأ عالماً تاجراً غنياً كريماً، وطلب العلم لا يمنع من طلب المال، وقد عرف التاريخ كثيراً من العلماء التجار لم يمنعهم الاشتغال بالتجارة عن طلب العلم، وخيرٌ للعالم أن يكون من أصحاب الميسرة كي لا يحتاج إلى أحدٍ من الناس.

يروى أن الخليفة هارون الرشيد بعث إلى الإمام الجليل مالك بن أنسٍ بخمسمئة دينارٍ فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينارٍ فغضب الرشيد وقال له كيف تعطيه ذلك وأنت من رعيتي؟ قال يا أمير المؤمنين إن لي من غلتي كل يومٍ ألف دينارٍ فاستحييت أن أعطي مثل هذا الإمام أقل من دخل يومٍ. وهذه القصة تعطينا فكرةً عن الثروة الطائلة التي كان يملكها عالمنا الكبير، وكان يشكر الله عليها بالبذل والعطاء، وقد ذكر العلماء الثقاة أن دخله كان في كل عامٍ ثمانين ألف دينارٍ ومع ذلك فلم تجب عليه زكاةٌ قط لأنه كان يفرقها جميعاً على الفقراء والمحتاجين، قال منصور بن عمارٍ: أتيت الليث فأعطاني ألف دينار، ولا يتسع المقام لتفصيل أخبار كرمه وبره وزهده في الدنيا، ولكن نقول إن الإمام الشافعي رضي الله عنه حين وصل إلى مصر زار

قبر الليث وقال: لله درك يا إمام لقد حزت أربع خصالٍ لم يكملن لعالمٍ: العلم والعمل والزهد والورع. وكانت له أربعة مجالس في كل يومٍ مجلسٌ لحوائج السلطان ومجلسٌ لأصحاب الحديث ومجلسٌ لأصحاب المسائل ومجلسٌ لحوائج الناس لا يسأله أحدٌ فيرده. وكان إذا رحل رحل بثلاث سفنٍ سفينةٍ له ولأضيافه وتلاميذه، وسفينةٌ لعياله وسفينةٌ لمطبخه وخدمه.

قال كاتبه: صحبت الليث عشرين سنةً فكان لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس، وكان كل من جاءه من التلاميذ يأكل وينام وينفق على حسابه لا يكلفه من ماله شيئاً وإذا أراد السفر أعطاه نفقته وزاده. وكان يتخذ الحلـوى لأصحابه ويضع في داخلها الدنانير ليرغبهم في الأكل.

وكان يعطي العلماء رواتب دائمةً. ولما حج أهدى إليه الإمام مالكٌ طبقاً فيه رطبٌ، فأخذه ورد إليه الطبق وفيه ألف دينار.. إنه مثالٌ فريدٌ للعالم العامل الزاهد الشاكر.

ركعتان ودعاء

قال الحسن بن سفيان الشيباني: ارتحلت في شبابي عن وطني لطلب العلم، ووصلت إلى مصر، وكان معي تسعة من زملائي الطلبة، وأخذنا نطلب العلم على أحد الشيوخ ندخل عليه كل يومٍ ويملي علينا بعض الأحاديث النبوية، وكان معنا شيءٌ من المال، فلما طالت المدة أنفقناه ولم يبق معنا منه شيءٌ، فصبرنا، وبقينا جائعين ثلاثة أيامٍ لم نذق فيها طعاماً حتى ضعفت قوانا، وأصبحنا في اليوم الرابع على هذه الحال، ولم ندر ما نصنع، ثم قلنا إننا في حاجةٍ إلى سؤال الناس وإلى أن نطلب منهم شيئاً نسد به رمقنا كي لا نموت جوعاً، ولم نتفق على واحدٍ يقوم بهذا العمل.

قال الحسن: ثم أجرينا القرعة بيننا، فوقعت القرعة عليّ، وفكرت في نفسي فلم تطاوعني على السؤال ووجدت في ذلك صعوبةً شديدةً وتحيرت ماذا أصنع، ثم ذهبت إلى ناحيةٍ في المسجد وصليت ركعتين طويلتين في خشوعٍ وتذللٍ، ثم دعوت الله سبحانه في ضراعةٍ وابتهالٍ أن يكشف عنا ما نحن فيه من الضر والكرب، فلم أكد أرفع رأسي حتى وجدت إلى جانبي شاباً حسن الوجه نظيف الثياب، فسلم علي ثم قال: أنت الحسن بن سفيان؟ قلت: نعم ماذا تريد مني؟ قال: إن الأمير أحمد بن طولون يقرئكم السلام ويعتذر إليكم عن التقصير في حقكم وقد أرسل إليكم بنفقةٍ، ثم أعطاني صرةً فيها مئة دينارٍ وأعطى كل واحدٍ من أصحابي مثلها. فسألته ما هي القصة؟ فقال: إن الأمير ابن طولون قال لي: خلوت بنفسي لأستريح فأخذني النوم فنمت ورأيت

في منامي فارساً يحمل بيده رمحاً فلما وصل إليّ نزل عن فرسه ووضع رمحه على خاصرتي وقال لي قم فأدرك الحسن بن سفيان وأصحابه فإنهم جياعٌ منذ ثلاثة أيامٍ، فانتبهت من نومي وأنا أحس بوجعٍ في خاصرتي، وعجلت بإرسال المال إليهم.

قال الحسن: فتعجبنا من ذلك وحمدنا الله سبحانه وتعالى وأخذنا المال وأصلحنا به أمورنا،وكان الأمير قد وعد بأن يزورنا فلم تطب نفوسنا بذلك لأننا لا نريد الشهرة ولا الجاه، فأسرعنا بالخروج من البلد دون أن يشعر بنا أحدٌ، وصرنا نطوف في البلاد لطلب العلم النافع والازدياد منه، إلى أن أصبح كل واحدٍ منا واحد عصره وإمام زمانه في العلم.

قال الحسن: ولما أصبح الأمير ابن طولون وسأل عنا وعلم بخروجنا أمر بشراء تلك المحلة التي كنا نام فيها ووقفها على ذلك المسجد، وعلى كل من ينزل فيه من الغرباء من أهل الفضل والعلم. ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

قبل الخلافة

يسمع الناس الكثير من أخبار الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، وقوة إيمانه وعدله في الرعية وزهده وتقشفه، ويعده كثيرٌ من العلماء خامس الخلفاء الراشدين، وقد طغت قوة شخصيته في الخلافة على حياته الخاصة قبلها، فقد نشأ عمر بن عبد العزيز في قصورٍ فخمةٍ ونعمةٍ وارفةٍ وعاش حياة بذخٍ وترفٍ، أقبل على نفسه يؤدبها ويهذبها وتلقى العلم والأدب عن أربابهما وتعلم الفقه والحديث والعربية والأدب والشعر حتى برع فيها.

وكان مع تفوقه في أنواع العلم مغرماً بالثياب والعطور وكان يلبس الثياب النفيسة وكان التاجر يأتيه بالثوب من الخز أو الديباج فيعيبه بخشونة في ملمسه ويرغب في أن يكون أكثر نعومةً، وكان يكثر من استعمال الطيب والعطور حتى تعرف رائحته من بعيدٍ قبل أن يراه الناس، وكان الناس يذهبون إلى صاحب المغسلة التي يغسل ثيابه فيها كي تنال ثيابهم من عطر ثيابه، وكان ينظم الشعر ليكون أنشودةً من أناشيد الغناء، ويغني أحياناً وكان عذب الصوت حلو الغناء، وكان يحب إنشاد الشعر بين يديه.

ثم تاقت نفسه إلى الزواج من ابنة عمه فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ربيبة القصور التي عاشت في الترف والنعيم. ولما دخل بها صنع وليمةً فخمةً تفنن بها وقدم فيها أنفس الطعام والشراب وكان الشمع الذي أسرجه في الليل من الغالية، والغالية من أثمن أنواع الطيب مركبةٌ من المسك والعنبر ممزوجاً بالدهن على هيئة الشموع، وقضى مع زوجته فاطمة أياماً سعيدةً قبل الخلافة،

وكان في أيام خلافته يتذكر تلك الساعات الحلوة التي قضاها إلى جانبها وكان يذكرها بها من حينٍ إلى حين.

وتاقت نفسه في شبابه إلى الإمارة ولاحظ فيه الخليفة عبد الملك علماً وذكاءً فولاه (خناصرة) وهي بلدةٌ من أعمال حلب ثم ولي إمارة المدينة المنورة وكان في الخامسة والعشرين من عمره، ودخلها في موكبٍ فخم يضم ثلاثين جملاً، ثم صار خليفةً للمسلمين وانتقل من هذه الحياة المترفة إلى حياة الزهد والتقشف، والعدل، يقول عن نفسه: كانت لي نفسٌ تواقةٌ، فكنت لا أنال شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أعظم منه، فلما بلغت نفسي الغاية تاقت إلى الآخرة.

وكان عالماً غزير العلم، اتسعت معرفته حتى أثنى عليه كبار العلماء وأصحاب الحديث، قال ميمون بن مهران: أتينا عمر بن عبد العزيز ظننا أنه يحتاج إلينا فإذا نحن عنده تلاميذ.

تاج العروس

اللغة العربية لغةٌ واسعةٌ كثيرة المفردات، وهي بحرٌ لا ساحل له، تستطيع أن تجد فيها اللفظ لكل معنىً تطلبه، وكل من اطلع على المراجع فيها علم صدق هذا الكلام، وفيها باب الاشتقاق والنحت يجعلها صالحةً لكل زمانٍ، وقد ظهرت في هذا الزمان مؤلفاتٌ قيمةٌ تعرض المصطلحات العلمية التي أمكن اشتقاقها في المجالات المختلفة في الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء أثبت مؤلفوها قيمة هذه الثروة وسعة اللغة العربية.

ولم يقصر علماؤنا السابقون في خدمة لغة القرآن، إذ قدموا لنا كتباً كثيرةً في اللغة، ومن أشهرها القاموس المحيط للإمام الفيروزبادي في أربع مجلداتٍ، وقام عالمٌ آخر بشرحه سماه (تاج العروس في شرح القاموس) ويقع في عشر مجلداتٍ، جمع فيه ألفاظ اللغة العربية وعرضها عرضاً شافياً وافياً مع تفرعاتها وشواهدها، وهذا العالم الجليل هو (محمد الزبيدي) نسبةً إلى مدينة زبيد في اليمن التي نشأ فيها، ولما أكمل كتابه أقام حفلةً عظيمةً حضرها العلماء والسلاطين والأمراء والعظماء وكان يوماً مشهوداً، وله كتبٌ قيمةٌ أخرى قام بتأليفها تزيد على خمسين مؤلفاً.

كان الزبيدي نسيج وحده في هيئته وكلامه وأسلوب تدريسه ووعظه وكان يفتح بيته للناس في الديار المصرية التي أقام بها ويولم الولائم فكثر إقبال الناس عليه، وكان عالماً بكل ما تحتمله الكلمة من معنىً فهو اللغوي والأديب والشاعر والمؤرخ، وهو مع ذلك من علماء الحديث والفقه، وكان له في

الوعظ أسلوبٌ قويٌ يترك أثره الكبير في نفوس المستمعين إليه.

وكان مهيباً وقوراً، وهو إلى جانب ذلك خفيف الروح باش الوجه حلو النكتة صاحب نوادر وكان حسن المجالسة يؤنس مجالسيه بلطف حديثه وعذوبة لفظه، يخاطب كل إنسانٍ بما يفهم وكانت له منزلةٌ كبيرةٌ عند السلاطين والأمراء في سائر البلاد، توفي سنة ألفٍ ومائتين وخمس سنين بعد عودته من تأدية صلاة الجمعة حيث أصيب بالطاعون.

أما كتابه (تاج العروس) فإنه يعتبر بحقٍّ دائرة معارف في اللغة لأنه جمع ألفاظ اللغة العربية ولم يترك منها شاردةً ولا واردةً إلا وأثبتها وأشار إلى أصلها وذكر سائر الألفاظ التي تتفرع عنها، وأكثر من ذكر الشواهد النثرية والشعرية، ومن اطلع عليه عرف مقدار الجهد الذي بذله فيه مؤلفه، وقد كان أجدادنا رحمهم الله أصحاب صبرٍ وجلدٍ على البحث والتنقيب، ونحن نرى اليوم كثيراً من شبابنا لا يصبرون على قراءة صفحاتٍ قليلةٍ من هذه المؤلفات الجليلة، فقد ضاعت العزائم وضعفت الهمم.

الجنة بركعتين

هذه قصة عظيمٍ من عظماء الروم، وقائدٍ من كبار قوادهم يوم اليرموك، كان حظه عند الله عظيماً لأنه دخل الجنة بركعتين صلاهما قبل أن يموت ولم يعمل شيئاً من الصالحات غيرهما مع أن الجنة غالية الثمن وليس الطريق إليها بالطريق السهل المعبد ولكنه طريقٌ شاقٌ متعبٌ وقد يتحمل الإنسان مشاق العبادة رغبةً في دخول الجنة فلا يدخلها كما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قدم الشام فمر في طريقه بديرٍ فيه راهبٌ انقطع للعبادة فيه أكثر من خمسين سنةً، فلما رآه عمر تلا قوله تعالى: ﴿ عامِلَةٌ ناصِبةٌ تَصْلىٰ ناراً حامِيةً ﴾ فهذا الراهب يعتبر من أهل النار لأن عبادته لم تكن على أساس الإيمان الصحيح ولا على مبدأ التوحيد الخالص.

ونعود إلى قصة القائد الرومي التي ذكرها المؤرخ ابن كثيرٍ عن الواقدي وغيره ويمكن تلخيصها بأن هذا الرجل يسمى (جورج) أو (جرجه) كما يلفظها المؤرخون، كان قائد جيش الروم يوم اليرموك، ولما رأى انتصارات المسلمين المتتالية برغم قلة عددهم فكر في نفسه وراح يبحث عن السبب في هذا الأمر الغريب فلم يستطع أن يهتدي إليه فما كان منه إلا أن طلب مقابلة خالد بن الوليد في ساحة القتال قبل تجدد المعركة، فلما اجتمع به وكلٌّ واحدٍ منهما راكبٌ فرسه سأله عن هذا الدين الجديد قائلاً: إلى أي شيءٍ تدعون؟ فأجابه خالدٌ رضي الله عنه: إننا ندعو إلى شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله والإقرار بما جاء به من عند الله عزّ وجلّ. قال إذا لم نقبل هذا،

فماذا تفعلون؟ قال: نأخذ منكم الجزية وندافع عنكم ونمنعكم من اعتداء أحدٍ عليكم. قال: فإذا لم ندفع الجزية؟ قال: نؤذنكم بالحرب ثم نقاتلكم. قال: فإذا دخل واحدٌ منا في دينكم فماذا تكون منزلته عندكم؟ قال خالدٌ: تصبح منزلتنا واحدةً فيما افترض الله علينا. قال: فهل يكون له مثل ما هو لكم من الأجر والذخر؟ قال نعم ويكون أفضل منا، لأننا رأينا نبينا وهو قد آمن به ولم يره فهو أفضل منا.

فسكت (جورج) مفكراً متعجباً من هذا الذي سمعه وقال لخالدٍ رضي الله عنه: إنك قد صدقتني ولم تخادعني ثم قلب ترسه وقال له علمني الإسلام. فمال به خالدٌ إلى مقر القيادة وأعطاه ماءً فاغتسل به ثم علمه الإسلام في دقائق معدوداتٍ ثم صلى به ركعتين، ولما انتهت الصلاة هجم الروم فتجددت المعركة بين الفريقين وانضم (جورج) إلى جيش المسلمين واشترك معهم في القتال ببسالةٍ وشجاعةٍ من وقت الضحى إلى غروب الشمس وأصيب بجروحٍ مات على أثرها، ولم يُصلِّ لله إلا تلك الركعتين رحمه الله.

عبد الرحمن بن عوف

إن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، لأن الفقير لا يصبر بإرادته ولكنه مضطرٌ للصبر، ولو استطاع أن يتخلص منه لما قصر في ذلك، أما الغني فهو يرى المال الوفير بين يديه والنفس مفطورةٌ على حب المال وعلى الاستزادة منه، ولكن الغني المؤمن يعلم أن هذا المال هو مال الله في يده وهو أمانةٌ عنده رزقه الله سبحانه إياه لينفق منه بالمعروف بعد أن يعرف أن للسائل والمحروم حقاً فيه فيؤدي إلى كلٍ منهما حقه.

وقد كان الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف من كبار الأغنياء، ومع ذلك فقد كان يشاطر الفقراء ماله، وينفق كثيراً منه في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ورفع راية الإسلام، وهو أحد الستة الذين أخبر عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ أنه مات وهو عنهم راضٍ. وعبد الرحمن هو أمين رسول الله ﷺ على نسائه، وهو الأمين في السماء والأمين في الأرض.

قضى فترةً من حياته في الجاهلية، ومع ذلك فقد ابتعد عن كثيرٍ من المآثم الشائعة في زمانه فقد روي أنه حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، وأسلم قبل أن يدخل النبي ﷺ دار الأرقم التي اتخذها للدعوة سراً إلى الإسلام، ولما علمت أمه بإسلامه قالت له: والله لايظلني سقفٌ من الحر والبرد، وإن الطعام والشراب عليَّ حرامٌ حتى تكفر بمحمدٍ، ولكنه بقي ثابتاً على إسلامه لم يتزحزح عنه، وهاجر إلى الحبشة مع الذين هاجروا إليها تاركاً تجارته التي أصابها الكساد ويعتبر عمله هذا تضحيةً منه في سبيل العقيدة، ثم

عاد إلى مكة وهاجر إلى المدينة وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، ونال منزلةً رفيعةً حتى إنه ﷺ صلى خلفه في إحدى سفراته ركعةً من صلاة الصبح ثم ائتمنه على أهل بيته فكان عبد الرحمن بن عوف يخرج بهن ويحج معهن. واشترك في الغزوات فشهد غزوة بدرٍ وغزوة أحدٍ وأبلى فيها البلاء الحسن.

وكان أبيض اللون واسع العينين حسن الوجه.. جمع من تجارته الواسعة مالاً كثيراً وبنى داراً كبيرة وكان عنده مئة فرسٍ وألف بعيرٍ وعشرة آلافٍ من الغنم، ومع ذلك فقد اشتهر بالسخاء والكرم وكان يوزع المال على الفقراء وأبناء السبيل فكان مثالاً رائعاً للغني الشاكر، وتصدق مرةً بأربعين ألف دينارٍ، وحمل على خمسمئة فرسٍ في سبيل الله، وكان يعتق الرقاب، وكان مسلماً تقياً ورعاً متفقهاً في الدين وكان يفتي بين الناس، عاش أربعاً وسبعين سنةً ومات سنة إحدى وثلاثين ودفن بالبقيع رحمه الله ورضي عنه.

التاجر الورع

كان كثيرٌ من العلماء والصالحين يشتغل بالتجارة ويعدها من أفضل طرق الكسب، ولم يمنعهم واشتغالهم بها عن طلب العلم ومتابعة الدراسة والبحث ولم تكن أمور البيع والشراء آنئذٍ معقدةً ولا صعبةً كما هي في أيامنا هذه، لأن التاجر الصادق الأمين ينصحك في البيع فيطمئن قلبك إليه وتشعر بالراحة واليسر في معاملته، وما أحوجنا في زماننا هذا إلى أمثال هؤلاء من التجار الذين يسهلون لنا أمور الشراء ويريحوننا من متاعبه ومصاعبه.

قرأت في ترجمة يونس بن عبد الجليل وهو من كبار العلماء في عصره أنه كان صاحب متجرٍ لبيع الأقمشة والثياب، وكانت عنده أثوابٌ مختلفة الأجناس متفاوتة الأثمان بعضها بمئتي درهمٍ وبعضها بأربعمئةٍ وبعضها بأكثر من ذلك، وحدث يوماً أنه ذهب إلى االمسجد وترك ابن أخيه في الدكان فجاء زبونٌ يريد شراء ثوبٍ فعرض عليه الأثواب فاختار منها ثوباً قيمته مئتا درهمٍ أعجبه واستحسنه واستلم منه البائع أربعمئة درهمٍ بدلاً من مئتين، ورجع يونس من المسجد والتقى بالمشتري، وسأله عن الثمن الذي دفعه فأخبره به، فأفهمه يونس أن ثمن الثوب مئتان فقط فقال المشتري: إنني دفعت الثمن راضياً مختاراً لأن الثوب في بلدنا يساوي خمسمئةٍ وليس لي اعتراضٌ ولا أعتقد أني مغبونٌ بالسعر. وكان من الممكن أن يتركه البائع لأنه دفع الثمن راضياً مطمئناً ولكن يونس لم يتركه بل رجع به إلى الدكان وقال له: إن النصح في الدين والأمانة في الربح خيرٌ من الدنيا وما فيها وأعاد إليه مئتي درهمٍ وزجر ابن أخيه

وقال له: أما تتقي الله في بيعك تربح ضعف الثمن؟ فأجابه: إن المشتري دفع الثمن برضاه واختياره فأجابه قائلاً: إذا رضي المشتري فإننا لا نرضى لغيرنا إلا بما نرضاه لأنفسنا.

ولا شك أن هذا الموقف هو النهاية في الورع، ومثلٌ رائعٌ للإخلاص في البيع الخالي عن الظلم وتذكرنا هذه القصة بالإمام أبي حنيفة النعمان الذي كان تاجر أقمشةٍ وكان له شريكٌ اسمه حفصٌ فباع شريكه لأحد الزبائن ثوباً فيه عيبٌ ولم يخبره بعيبه ولم ينقص له الثمن، بل استوفى منه الثمن كاملاً، فلما علم أبو حنيفة بذلك، راح يبحث عن المشتري ويفتش عنه، وساعده شريكه في البحث والتفتيش فلم يقفا له على أثرٍ ولم يعثرا عليه، فعندئذٍ رفض أبو حنيفة أن يقبل ثمن الثوب ولم يضمه إلى ماله بل تصدق به كله وفسخ الشركة مع شريكه احتياطاً لدينه.

فهل نرى مثل هؤلاء التجار في زماننا هذا؟.

القاضي الفارس

نحن نتصور القاضي رجلاً ذا هيئةٍ وسمةٍ ووقارٍ، هادئاً ساكناً قليل الحركة، ولكنّ كثيراً من أجدادنا كانوا إلى جانب فضلهم وعلمهم أقوياء الأجسام ذوي عزيمةٍ وجرأةٍ وأصحاب حميّةٍ وشجاعة، وكانوا يعتبرون الفروسية والتمرن والتدرب على فنون القتال باباً من أبواب العلم الشرعي لأنه من متطلبات الجهاد، والجهاد من أسمىٰ أنواع العبادة.

وقد ذكر صاحب كتاب (تاريخ قضاة الأندلس) أن (الفرج بن كنانة) وهو من الفقهاء المعروفين ومن كبار القضاة في (قرطبة) كان فارساً شجاعاً يقود الخيل، وعيّنه الأمير قائداً للجيش، فخرج إلى الغزو، وقاتل النصارىٰ وقتلهم قتلاً ذريعاً ثم رجع إلى عمله في القضاء، ثم خرج ثانياً إلى الثغر، أي إلى حدود الأندلس، وغزا مع الغزاة وجاهد مع المجاهدين، وكانت له منزلة رفيعة.

وكان أسد بن الفرات من كبار القضاة في إفريقية، وكان مع ذلك أحد الشجعان المعروفين وأحد الفرسان الذين يشار إليهم بالبنان وكان أسداً مثل اسمه، كلّفه الأمير بغزو جزيرة صقلية، فخرج في عشرة آلاف رجل، فيهم ألف فارس، ولما خرج من بلده خرج معه وجوه أهل العلم يشيعونه وقد صهلت الخيول وضُربت الطبول وخفقت الأعلام والبنود، فوقف وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يا معشر الناس ما بلغت هذه المنزلة التي ترونها إلا بالأقلام فاجهدوا أنفسكم فيها وثابروا على تدوين العلم تنالوا به الدنيا

والآخرة. ثم خرج مع الجيش والتقى بملك صقلية الذي كان في جيشٍ يبلغ عدده مئة ألفٍ وخمسين ألفاً، وكان جيش المسلمين لا يزيد على عشرة آلاف أي بنسبة جندي واحد إلى خمسة عشر جندياً. قال الراوي: وشجَّعهم ثم حمل وحملوا معه على العدو، وقاتلوا النصارى حتى هزموهم وشتتوا جموعهم وكان أمير الجيش وقاضي المسلمين وتوفي عام (٢١٣) للهجرة رحمه الله.

وما أجدرنا نحن اليوم بأن نقرأ مثل هذه الأمثلة الرائعة من تاريخنا لنستثير النفوس الراكدة ونهز القلوب الخاملة ونوقظ فيها روح الإيمان وشعلة الجهاد، فالمؤمن الصادق لا يعرف الخنوع ولا يصبر على الذل، ولا يركن إلى الراحة والنوم، وهو مأمور بالجهاد والغزو وقتال أعداء الله ومحاربتهم دون هوادةٍ ولا تردد، وقد وصف الله سبحانه عباده المؤمنين بأنهم أشداء على الكفار، وأمرهم في الآية الأخرى بقوله: ﴿ولْيَجِدوا فيكمْ غِلْظةً﴾ صدق الله العظيم.

سعد بن عبادة

كانت قبيلتا الأوس والخزرج تتنازعان الرياسة في يثرب، وكان سعد بن عبادة سيد الخزرج فلما أقبل جماعة من الخزرج إلى مكة في موسم الحج لقيهم رسول الله ﷺ عند العقبة، وهي في طريق مكة على مقربة من منى، ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا دعوته، ولما عادوا إلى يثرب دعوا قومهم إلى الإسلام فأسلموا ولم تبق دارٌ من دور الأنصار إلّا وفيها ذكر رسول الله ﷺ.

وكان سعد بن عبادة من أشد أهل يثرب تمسكاً بدعوة الإسلام وأكثرهم استعداداً لنصرة النبي ﷺ والترحيب بمقدمه، بل حرص على أن يكون له شرف استقباله فلقيه مع رجالٍ من قومه فقالوا: يا رسول الله، هلم إلينا، إلى العدد والعدة والمنعة. فقال: «خلوا سبيلها - يعني ناقته - فإنها مأمورة» فانطلقت حتى بركت ونزل عليه السلام في دار أبي أيوب الأنصاري.

فحرص سعد على إكرام وفادة النبي ﷺ والتعبير عن ولائِهِ ومحبَّتِهِ فكان يحمل إليه كل يوم جفنة مملوءة ثريداً أو لحماً يبعث بها إليه في المكان الذي يسير إليه، وقد بلغ من تقدير الرسول ﷺ لسعد بن عبادة وآله أن قال: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة».

روى ابن سيرين أن أهل الصُفّة وهم الفقراء كانوا إذا أمسوا انطلق الرجل بالواحد منهم والرجل بالإثنين منهم والرجل بالجماعة منهم لإطعامهم وكان سعد ينطلق بثمانين رجلاً منهم يطعمهم ويشبعهم. وكان يحمل راية

الأنصار في الغزوات والحروب وأبلى البلاء الحسن في الجهاد لإعلاء كلمة الله وشهد بدراً كما ذكر بعض المؤرخين، واشترك في غزوة الأحزاب، وفي غزوة الفتح وأعطاه رسول الله ﷺ رايته فمر بها على أبي سفيان وكان قد أسلم فقال له سعد: اليوم يوم الملحمة.

وكان غيوراً شديد الغيرة على الإسلام والضرب على أيدي المشركين. وكانت له مواقف مشهورة تدل على صدق إيمانه وشدة إخلاصه، واحتل منزلةً رفيعة في قلب الرسول ﷺ الذي كان يزوره في داره بسبب سبقه إلى الدعوة، وروى عنه بعض الأحاديث كبار الصحابة كابن عباس وغيره.

ومن الأحاديث التي رواها سعد بن عبادة عن رسول الله ﷺ قوله: «ما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقي ربه وهو أجذم وما من أميرٍ إلا أتى يوم القيامة مغلولاً حتى يطلقه العدل».

ومات في السنة الخامسة عشرة في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في منطقة حوران في الشام ويقال إن قبره في قرية (المليحة) في غوطة دمشق والله أعلم.

يونس عليه السلام

يونس بن متى عليه السلام نبي مرسل ورد ذكره في سورة الأنبياء والصافات ونون دعا قومه إلى الإيمان بالله فأبوا عليه وتمادوا في كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، وهو يظن أن الله سبحانه لن يضيق عليه في بطن الحوت، وكان قد أوعد قومه بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا ذلك منه وهم يعلمون أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ثم تضرعوا إلى الله تعالى وجأروا إليه فكشف الله عنهم العذاب ومتعهم إلى أن فارقوا الدنيا راضين مرضيين.

وأما يونس عليه السلام فإنه بعد أن غاضب قومه ذهب فركب مع قومٍ في سفينةٍ فلجَّت بهم وخافوا الغرق فاقترعوا مراراً على شخصٍ يلقونه في الماء يتخففون منه فلم تقع القرعة إلا عليه. فتجرد عليه السلام من ثيابه وألقى نفسه في البحر فالتقمه حوت عظيم أوحى الله إليه: لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً. فإنه ليس رزقاً لك وإنما بطنك له سجن. فمكث في بطنه ما شاء الله له أن يمكث ثم أوحى الله إليه أن يلقيه بالعراء وهو سقيم، فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون. كان في بطن الحوت يذكر الله سبحانه ويقول: لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين، ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ يعني ألقيناه من بطنه بوجه الأرض، والعراء هي الأرض الواسعة التي لا نبات فيها ولا شيء يسترها، وهو سقيم عليل كالفرخ الذي تساقط شعره. وآمن قومه فمتعهم الله إلى حين.

ذكر أصحاب السِّيَر أن النبي ﷺ لما اشتد عليه أذىٰ قريش عمد إلى بستان واستظل بظل شجرة عنب، وكان البستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة فتحركت له عاطفتهما ورحمهما فبعثا له مع غلامهما (عدَّاس) بقطف من عنب. فلما تناوله سمَّى الله تعالى قبل أن يأكل، فقال عداس والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أي البلاد أنت يا عداس وما دينك؟» قال: نصراني من أهل نينوى (ونينوى تقع في أرض الموصل شماليَّ العراق) فقال ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى. فقال ﷺ: «ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي». فأكب عداس على النبي ﷺ يقبله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أبيه. رواه البخاري ومسلم والله أعلم.

نور الدين الشهيد

إذا ذكر الرجال الصالحون، والزعماءُ المخلصون، والملوكُ العادلون، جاء في مقدمتهم الملك العادل نور الدين الشهيد، ولئن عرف الناس صلاح الدين الأيوبي وذاع اسمه على ألسنتهم فقد سبقه نور الدين في خدمة الإسلام ومحاربة الصليبيين، وقد اعترف صلاح الدين بذلك حين قال: إننا تعلمنا العدل من نور الدين.

قال عنه المؤرخ المعروف ابن الأثير: طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا - يعني أواخر القرن السادس الهجري - فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرةً من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه، قصر ليله ونهاره على عدلٍ ينشره وجهادٍ يتجهز له ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه وإنعامٍ يسديه... ولم يكن ابن الأثير مبالغاً في قوله هذا لأن من قرأ سيرة نور الدين عرف منزلته السامية.

وقد روى المؤرخون أن الصليبيين الذين كانوا قد احتلوا مدينة القدس وجزءاً كبيراً من فلسطين قالوا: إنه ما ظفر علينا بكثرة جنوده ولا بوفرة عسكره وسلاحه، وإنما كان يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل فإنه كان يدعو بالليل ويستجيب الله دعاءه.

وكان نور الدين مشهوراً بشجاعته الخارقة التي أدهشت أعداءَه وملأت قلوبهم رعباً وفزعاً منه، وكان رحيماً برعيته تفيض نفسه بالعطف والحنان على

أفراد شعبه وكان يبذل الأموال للعلماء والفقهاء والمتعبدين ويقول: إني والله لا أرجو النصر على الأعداء إلّا بهؤلاء، وكان كثير المطالعة لكتب العلم يحب العلماء ويكرمهم ويحترمهم ويحسن إليهم. وقام بكثير من الإصلاحات فقد منع شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده وهي بلاد الشام وكان يحد شاربها الحد الشرعي وكان لا يُمَكِّن أحداً من إظهار ما يخالف السنة ويؤدبه. وقال كلمته المشهورة: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق أفلا نحفظ الدين وندافع عنه؟

وقد أكثر من بناء المدارس ووقف عليها وقوفاً كثيرةً وهو أول من بنى داراً للحديث بناها في دمشق ورتب لها المدرسين ولا تزال هي وكثير من المدارس قائمة الآن في دمشق، وكان يتحرى الحلال في مطعمه وملبسه. وأحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه به وما تعداه إلى غيره وكان يصلي فيطيل الصلاة ويصلي بالليل وله أوراد كثيرة يدعو بها، هذا كله إلى جانب حروبه وجهاده المتواصل ولولا ثباته وشجاعته وإخلاصه لامتدت أيدي الصليبيين إلى بلاد الشام كلها. وكان يباشر القتال بنفسه وما رأى الناس مجاهداً على ظهر فرس أشجع ولا أقوى ولا أثبت منه رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

عروة بن الزبير

عروة بن الزبير هو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، أبوه الزبير بن العوّام أحد الصحابة العشرة المشهود لهم بالجنة، وأمه أسماء بنت أبي بكر وهي ذات النطاقين، كان عالماً عابداً صالحاً وهو صاحب بئر عروة في المدينة وماؤها عذب، وكان عروة من الصابرين.

ذكر المؤرخون أنه خرج من المدينة قاصداً الوليد بن عبد الملك في دمشق، وفي الطريق أصابه مرض في رجله تألم منه كثيراً، فلما وصل دمشق جمع له الوليد الأطباء فلم يجدوا له دواء وأجمع رأيهم على قطع رجله كي لا يسري المرض إلى جسمه، ولما جاء الجزار ليقطعها قالوا له: نسقيك الخمر أو المخدر حتى لا تجد لها ألماً، فقال: لا أستعين بالحرام وما أحب أن أُسلب عضواً من أعضائي من غير أن أجد ألماً، ودخل عليه جماعة ليمسكوه عند القطع فأبى، فقطعت كعبه بالسكين حتى إذا بلغوا العظم وضعوا عليها المنشار ونشروها حتى قطعت وهو يهلل ويكبر، ثم أغلي له الزيت في مغارف الحديد وصبوه عليها لقطع الدم فغشي عليه، ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ولما رأى رجله المقطوعة أخذها بيده فقلَّبها ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى معصية، ثم قال: الحمد للّه لئن كنت ابتليت في عضو فقد عوفيت في أعضاء فبينما هو كذلك دخل ابنه الإصطبل فوقع بين أرجل الدواب فمات فلما جاءه الخبر قال: الحمد للّه على كل حال.

وفي تلك السنة قدم على الوليد بن عبد الملك وفد من قبيلة عبس فيهم رجل ضرير فسأله الوليد عن سبب ذهاب بصره فقال: يا أمير المؤمنين خرجت مرة مع رفقةٍ مسافرين ومعي مالي وعيالي فبتنا ليلةً في بطن واد فجاءنا سيل فذهب بما كان لي من أهل ومال وولد إلا بعيراً واحداً وصبياً صغيراً وكان البعير صعباً فشرد مني فوضعت الصبي الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير، فسمعت صيحة الصغير فرجعت إليه فرأيت رأسه في فم الذئب وهو يأكله، فرجعت إلى البعير لأمسك به فضربني برجله على وجهي فحطمه وذهبت عيناي فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل، فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة بن الزبير ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم منه بلاءً..

ونحن نسوق هذين الخبرين من غير تعليق كي يعلم المستمع الكريم أنّ الدنيا لا تخلو من المصائب والبلايا، وأن الصبر عليها من صفات المؤمنين، وكي يعلم أن الله سبحانه يبتلي عبده المؤمن ليختبر قوة إيمانه ودرجة يقينه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وقال ﷺ: «الصبر نصف الإيمان»، نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من الصابرين.

زيد بن حارثة

ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم الأنبياء والرسل بأسمائهم الصريحة، ولم يصرح باسم أحد من غيرهم إلّا (زيد بن حارثة) فقد جاء ذكره في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿فلَمّا قضىٰ زيْدٌ منها وَطَراً زوَّجْناكهَا﴾ فأصبح اسمه قرآناً يتلى في المحاريب، ولم يكن ذلك لأحد غيره من المؤمنين، وهذه فضيلة في حقّه، وشرف له وفخر لم ينلهما سواه.

وهو زيد بن حارثة بن شرحبيل، كان في جملة سبي قدم من الشام فاشتراه حكيم بن حزام بن خويلد ووهبه لعمته خديجة بنت خويلد، فرآه رسول الله ﷺ عندها فاستوهبه منها فوهبته له فأعتقه وتبنّاه فأقام عنده مدة ثم جاء أبوه وعمه يرغبان في فدائه وقالا: هذا ابننا فرده علينا، فقال لهما رسول الله ﷺ: «أعرض عليه فإن اختاركم فخذوا بيده»، فبعث إلى زيد وقال: «هل تعرف هؤلاء؟»، قال: نعم هذا أبي وهذا أخي وهذا عمي. فقال له النبي ﷺ: «فأي صاحبٍ كنت لك؟» فبكى وقال: لِمَ سألتني عن ذلك؟ قال: «أخيرك فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق وإن أردت أن تقيم فأنا من قد عرفت». فقال: ما أختار عليك أحداً. فجذبه عمه وقال: يا زيد اخترت العبودية على أبيك وعمك فقال: إي واللهِ العبودية عند محمد أحب إلي من أن أكون عندكم فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا أني وارث وموروث» فلم يزل يقال (زيد بن محمد) إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿أُدْعوهمْ لِآبائِهِمْ﴾ ونزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، فكان يقول بعد ذلك أنا زيد بن حارثة.

وتزوج زيد زينب بنت جحش، قال علي بن الحسين: إن النبي ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يطلق زينب وأن النبي ﷺ يتزوجها بتزويج الله إياها فلما جاء زيد يشكو خلق زينب وأنها لا تطيعه وأنه يريد طلاقها قال له عليه السلام على جهة الأدب والوصية «أَمْسِك عليك زَوْجَكَ» وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها هو من بعده وهذا هو الذي أخفاه في نفسه حين قال تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أنْ تَخْشاه﴾ لِأنّه خشي أن يلحقه كلام من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه، أما ما قيل من أنه رأى زينب وأحبها وهويها فهو كلام مردود ولا يليق بعصمة النبي ﷺ، وكانت زينب تفخر على نساء النبي ﷺ وتقول لهن زوجكن آباؤكن وزوجني اللهُ تعالى. وقتل زيد في غزوة مؤتة أميراً مع جعفرٍ وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم جميعاً.

أبو الدحداح

(أبو الدحداح) رجل من أصحاب النبي ﷺ قام بعمل من أعمال البر الجليلة استحق عليه المدح والثناء من رسول الله ﷺ والبشارة له بالجنة. ذكر قصته المؤرخون والمفسرون وخلاصتها كما رواها الطبري والقرطبي عن عبد الله بن مسعود وزيد بن أسلم رضي الله عنهما أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الّذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ قال أبو الدحداح: فداك أبي وأمي يا رسول الله إن الله يستقرضنا وهو غني عن القرض قال: «نعم يريد أن يدخلكم الجنة به»، قال: فإني إن أقرضت ربي قرضاً يضمن لي به ولصبيتي معي الجنة؟ قال: «نعم»، قال: فناولني يدك فناوله رسول الله ﷺ يده فقال: إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية والله لا أملك غيرهما قد جعلتهما قرضاً للّه تعالى. قال رسول الله ﷺ: «اجعل احداهما للّه والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك» قال فأشهدك يا رسول الله أني قد جعلت خيرهما للّه تعالى وهو حائط فيه ستمائة نخلة قال: «إذاً يجزيك اللهُ به الجنة». فانطلق أبو الدحداح يمشي حتى أتى الحديقة، وأم الدحداح جالسة فيها مع صبيانها تدور تحت النخل فناداها: يا أم الدحداح قالت: لبيك قال: اخرجي قد أقرضت ربي عز وجل هذه الحديقة. قالت أم الدحداح: ربح بيعك بارك الله لك فيما اشتريت. ثم أقبلت على صبيانها تنفض ما في أكمامهم وتخرج ما في أفواههم من التمر وخرجت معهم ودخلت الحديقة الثانية. فقال النبي ﷺ: «كم من عذق رداح، ودار فياح لأبي الدحداح».

هكذا رويت هذه الحادثة الجميلة وهي تدلنا على مبلغ قوة الإيمان الذي تغلغل في نفس هذا الصحابي وكيف أنه أسرع إلى تقديم بستانه الجميل الممتلىء بشجر النخل صدقة في سبيل الله لا يطلب لقاء ذلك مديحاً ولا ثناءً ولا مكافأةً مادية ولكنه يطلب الجنة التي أعدها الله لعباده الصالحين المخلصين. لم يطل التفكير في هذا الأمر، ولم يبحث كيف تكون حياته وحياة زوجته وأولاده بعد التصدق بما يملك ولم يتردد لأنه يعلم أن هذه الحياة الدنيا فانية وأن بقاءه لن يطول فيها وأن الآخرة هي الحياة الباقية بنعيمها الباقي الدائم فآثر الدائم الباقي على الزائل الفاني.

وانظر إلى موقف زوجته أم الدحداح فهو من أعظم المواقف وأجلها جلالاً، لم تسأل زوجها لِمَ فعلت ذلك وكيف تتنازل عن هذه الحديقة الوارفة الظلال ومائها العذب وقطوفها اليانعة بهذه السرعة ولكنها قالت له: بارك الله لك في هذا البيع الرابح وأسرعت تخرج حبات التمر من جيوب أبنائها ومن أفواههم أيضاً وتخرجهم من الحديقة إلى غير عودة.

ألا ما أجلَّ هذا الإيمان وما أعظم هذا اليقين، وبهذا نال أجدادنا ما نالوه من عز الدنيا وثواب الآخرة.

ماء فرس

يروي المؤرخون أن عقبة بن نافع، في أثناء جهاده في شماليّ إفريقية، وغزواته لافتتاحها نزل بموضع في الصحراء أقام فيه أياماً، ونفد الماء الذي كان مع الجيش، ولم يكن في الموضع الذي نزلوا فيه ماء فأصابه وقومه عطش شديد أشرفوا منه على الموت، ولم يعرفوا ماذا يصنعون، فقام عقبة وصلى ركعتين ودعا الله سبحانه بخضوع وتذلل، فجعل فرسه يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صخرة فانفجر منها ماء قليل وجعل الفرس يمص من ذلك الماء، فرآه عقبة فنادى قومه وأمرهم أن يحفروا في ذلك المكان، فحفروا فظهر الماء غزيراً فشربوا وسقوا، وصار ذلك الماء معيناً وافراً وأطلق عليه اسم (ماء فرس) بسبب تلك الحادثة.

وهذه كرامة من الله سبحانه لذلك القائد العظيم الفاتح الذي افتتح شماليَّ إفريقية في أيام الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وأيام ابنه يزيد، وأنشأ مدينة القيروان لتكون مركز تجمع للمسلمين، للانطلاق منها إلى آفاق الجهاد الواسعة، وكان معه حين إنشائها خمسة وعشرون رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فدار معهم حول المدينة وجعل يدعو ويقول: «اللهمّ املأها علماً وفقهاً، وأعزها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر، وأعز بها الإسلام وامنعها من جبابرة الأرض» وهذا الدعاء الجميل يرشدنا إلى معرفة روح الإسلام السمحة ويدلنا على أن المسلمين لم يكونوا يفتحون البلاد رغبة في السيطرة على البلاد ولا حباً في استذلال العباد، ولكن

فتوحهم كانت لمحاربة العناد والطغيان ولقمع الكفر والفسوق والعصيان ولنشر روح المحبة بين الناس وإشاعة المودة والألفة بينهم ومحو الشر والفساد وغرس الأخلاق الكريمة والآداب السامية.

وبعد أن انتهى عقبة من دعائه اختط المسجد الأعظم للمباشرة في بنائه على عادة الأمراء حين يفتحون بلداً فإنهم يبادرون لإنشاء المسجد ويجعلونه أول عمل من أعمال الإصلاح ليكون نقطة الدائرة والمركز الأول للمجتمع الإسلامي الذي يقوم على الهدى والعبادة الخالصة والعلم النافع والكلمة الخيرة ولأن المسجد في الإسلام مكان العبادة ومركز الإمارة وقاعدة التجمع العسكري. وهو المدرسة والمحكمة ومجلس الأمة الذي توضع فيه الأسس الوطيدة لسياسة الدولة في شتى نواحي الحياة.

ثم مضى عقبة إلى المغرب في شماليّ إفريقية وهو يقول (إني بعت نفسي للّه) ثم راح يجاهد في سبيل اللهِ ويقاتل البربر ويفتتح البلاد قائلاً: اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك، وما زال يسير في المغرب الأقصى بحماس وشجاعة وإيمان صادق حتى بلغ المحيط الأطلسيٍ وخاض فيه وقال قولته الشهيرة: يا رب لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك.

علو الهمة

ذكر الإمام السبكي في الطبقات الكبرى أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة. فقالوا: هذا ربما تفنى الأعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم عليه السلام إلى وقتنا هذا؟ قالوا كم يكون قدره؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك فقال: إنا لله، ماتت الهمم، فاختصره في نحو ما اختصر التفسير.

وكان الإمام الطبري صاحب همة كبرى في الكتابة والتأليف وذكروا أنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة في التأليف، والواحد منا اليوم إذا كتب عشرين ورقة ينقلها نقلاً عد نفسه من أصحاب الهمم، ومن نظر في المؤلفات الضخمة التي تركها لنا علماؤنا الأجلاء في مختلف العلوم لاعترته الدهشة من هذه العزائم القوية الرائعة وهذا الجلد في البحث والتأليف.

ويقول الطبري عن نفسه: حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين وكتبت الحديث وأنا ابن تسعٍ، وكان عازفاً عن الدنيا تاركاً لها ولأهلها. وكان عالماً بالفقه والحديث والتفاسير والنحو واللغة، ووجه عنايته إلى دراسة القرآن الكريم واستجلاء أسراره وكتابه في التفسير الذي سماه جامع البيان من أجل كتب التفسير، وهو من أقدم التفاسير، جمع فيه الأسانيد بآثارها مرجحاً القوي منها على غيره ودعمها بالشواهد من

النصوص العربية، وقد أفاد المفسرون من درره وساروا على نهجه.

أما كتابه في التاريخ الذي سمّاه تاريخ الأمم والملوك فهو نسق فريد في بابه، ويعد من أكبر المراجع في علم التاريخ، وعزز وقائعه بأسانيد رواتها، وله كتاب في القراءات ذكر فيه القراءات من المشهور والشواذ، وكتاب عن الصحابة ومن قتل منهم، وله كتب أخرى كثيرة في كل علم وفن.

أما الإمام ابن الجوزي رحمه الله فإنه يعد علو الهمة بلاءً ويقول: ما ابتلي الإنسان قط بأعظم من علو همته، فإن من علت همته يختار المعالي وقد لا يساعد الزمان وقد تضعف الآلة فيبقى في عذاب ثم يتحدث عن نفسه قائلاً: نظرت إلى علو همتي فرأيتها عجباً وذلك أنني أروم نيل كل العلوم وهذا أمر يعجز العمر عن بعضه، وأروم نهاية العمل بالعلم مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق، وأروم الغنى عن الخلق والاشتغال بالعلم مانع من الكسب، وها أنا أحفظ أنفاسي من أن يضيع منها نفس في غير فائدة.

المقداد بن الأسود

إذا ذكر أبطال المسلمين، وفرسانهم وشجعانهم، كان المقـداد بن الأسود في مقدمتهم، فقد أبلى البلاء الحسن في سبيل نصرة الإسلام ونشر كلمة التوحيد، وكانت له في الغزوات مواقف تشهد بقوته وجرأته وثباته في وجه الكفر والشرك والطغيان، واسمه المقداد بن عمرو، ولكن لما تبناه في الجاهلية رجل يقال له الأسود سمي المقداد بن الأسود. كان من السباقين إلى الإسلام، روى ابن مسعود رضي الله عنه أن أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة منهم المقداد، وكان من الذين هاجروا إلى الحبشة حين اشتد أذى المشركين لمن دخل في الإسلام ثم عاد منها وشهد غزوة بدرٍ الكبرى، وكان له فيها موقف نبيل يدل على قوة إيمانه وثبات يقينه وذلك أن النبي ﷺ استشار كبار الصحابة، فتكلم أبو بكر فأحسن وتكلم عمر فأحسن، وقام المقداد فقال: يا رسول الله إمض لما أمرت به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ إذهب أنت وربُّك فقاتِلا إنا ها هنا قاعدون ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال رسول الله ﷺ خيراً ودعا له. وكان المقداد فارس يوم بدر وأول من قاتل على فرس في سبيل الله واشترك في كثير من الغزوات وأبلى فيها البلاء الحسن مثل أحد والخندق وخيبر وغيرها.

وقد عرف له الرسول ﷺ حسن بلائه، فعبر له عن محبته فزوجه من ابنة

عمه ضباعة وهي بنت الزبير بن عبد المطلب. وتفصيل الخبر أن المقداد كان جالساً مع عبد الرحمٰن بن عوف وهو من أثرياء قريش فقال له ما لك لا تتزوج، فأجابه قائلاً زوجني ابنتك فغضب عبد الرحمن رضي الله عنه وأغلظ له، فشكا المقداد ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له: «أنا أزوجك»، فزوجه ابنة عمه.. ويلاحظ هنا أن المقداد كان أسود اللون ولم يكن له نسب في العرب لأنه كان حضرمياً ولكن الإسلام سوّى بين العبد والحر، وبين الأبيض والأسود وجعل رابطة العقيدة أقوى من أية رابطة. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكرَمَكُمْ عندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وقال ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»، وقال أيضاً عن سلمان الفارسي: «سلمان منا أهل البيت»، ويروى عنه أنه قال: «أمرني الله عز وجل بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم: علي والمقداد وأبو ذر وسلمان».

ونختم حديثنا بما كتب به عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف منهم رجل مقام الألف: الزبير ابن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد.

قصة جابر

تحدثنا كتب السيرة عن المحادثة التي جرت بين النبي ﷺ وجابر بن عبد الله رضي الله عنه في طريق عودتهما إلى المدينة مع أفراد الجيش بعد غزوة ذات الرقاع، وتعطينا القصة صورة زاهية لخُلق النبي ﷺ مع أصحابه في لطف المعاشرة ورقة الحديث والمودة مع الأصحاب.

فقد كان القوم راجعين من الغزوة متوجهين نحو المدينة فتأخر عنهم جابر بن عبد الله بسبب بعيره الضعيف الذي لا يملك غيره، وكان من عادة النبي ﷺ إذا سار مع أصحابه في طريق أن يسأل عنهم ويتفقدهم ويطمئن عليهم بين فترة وأخرى، فلما تأخر جابر أقبل نحوه وسأله قائلاً: «ما لك يا جابر؟»، قال قلت: يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا. قال: «أنِخه وأعطني هذه العصا من يدك»، فأخذها ونخس بها الجمل وقال: «اركب». قال: جابر فلما ركبته صار يسابق ويسرع.

قال: وتحدث معي ﷺ فقال لي: «أتبيعني جملك هذا يا جابر»؟ قلت نعم وساومته في الثمن وما زال يرفع لي الثمن حتى بلغ الأوقية فقلت: لقد رضيت يا رسول الله. ثم قال لي: «هل تزوجت يا جابر؟» قلت نعم يا رسول الله قال: «أثيباً أم بكراً؟» قلت: ثيباً قال: «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟» قلت: يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أحد وترك سبع بنات فتزوجت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن فقال لي: «أصبت إن شاء الله».

فكأن النبي ﷺ كان متأثراً بالمحنة التي طافت على بيت جابر فقد استشهد والده في غزوة أحد، وكان جابر أكبر أولاده فقام على شأن الأسرة ورعاية الأطفال وهو فقير ليس له نصيب وافر من الدنيا، وعرض عليه النبي ﷺ شراء بعيره كأنما يريد بذلك إكرامه ومساعدته، ثم سأله عن الزوجة في أسلوب لطيف ناعم محبب إلى النفس.

وهكذا يجب أن يكون القائد مع أفراد جيشه والرئيس مع مرؤوسيه يعتني بأمورهم ويتفقد أحوالهم ويبحث عن شؤونهم، يساعد فقيرهم ويعين ضعيفهم، ويعطف عليهم عطف الوالد على أولاده، أما إذا أهمل أمورهم ولم يفكر فيهم انقطعت صلة المودة بينه وبينهم وتعذر التعاون معه وفي هذا ما فيه من أثر سيء في نفوسهم يخمد جذوة نشاطهم ويبعثهم على الكسل والخمول. ولا شك أن النبي ﷺ هو القدوة الكريمة والمثل الأعلىٰ في الأخلاق الكريمة والآداب الرفيعة السامية.

الحواريون

الحواريون هم أصحاب الرسل وأنصارهم وخواصهم وأصفياؤهم، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «لكل نبي حواري، وحوايي الزبير». . وقد وردت في القرآن الكريم كلمة الحواريين وهم أصحاب عيسى عليه السلام وكانوا اثني عشر رجلاً، وهم أول من آمن به من بني إسرائيل، قال لهم عليه السلام: من أنصاري إلى الله؟ فقالوا نحن ننصرك فصدقوه ونصروه، وكانوا قصارين يبيضون الثياب، وفي اللغة الحور هو البياض، والحواري أيضاً هو الذي ينصرك ويؤيدك، وقد قالوا لعيسى عليه السلام ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، وبعثهم إلى البلاد للدعوة إلى الله، بعثهم إلى بلاد الروم، وإلى أرض بابل، وإلى إفريقية وإلى بيت المقدس وإلى الحجاز وإلى الإسكندرية وغيرها فأيدهم الله بالحجة البالغة فأصبحوا ظاهرين أي عالين، كانوا يقولون للناس: ألستم تعلمون أن عيسى كان ينام والله لا ينام؟ وأن عيسى كان يأكل والله تعالى لا يأكل؟

أما خبر المائدة فقد ذكروا أن عيسى عليه السلام كان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف أو أكثر بعضهم كانوا أصحابه وبعضهم كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرض أصيبوا به وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون، فخرج يوماً إلى موضع فوقعوا في مفازة أي في صحراء موحشة منقطعة فجاعوا وقالوا للحواريين: قولوا لعيسى يدعو بأن تنزل علينا مائدة من السماء فجاءه شمعون رأس الحواريين وأخبره أن الناس يطلبون ذلك، فقال لهم: اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُم

مُـؤْمِنِين قـالوا: نُرِيد أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَم أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيها مِنَ الشَّـاهِدين، أي أن تطمئن قلوبنا إلى أن الله قد بعثك إلينا نبياً ونصدق بأنك رسول الله ونشهد للّه بالوحدانية، فقام عيسى عليه السلام يدعو ربه...

نقل القرطبي في تفسيره أن الترمذي في كتابه نوادر الأصول ذكر عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: لمّا سألت الحواريون المائدة قام عيسى عليه السلام فوضع ثياب الصوف ولبس ثياب المسوح فقام فألزق القدم بالقدم، وألصق العقب بالعقب، والإبهام بالإبهام، ووضع يده اليمنى على يده اليسرى ثم طأطأ رأسه خاشعاً للّه ثم أرسل عينيه يبكي حتى جرى الدمع على لحيته ثم قال اللهم ربنا أنزل علينا مائدةً من السماء... إلى آخر الآية فهبطت بين يديه سفرة وعليها منديل مغطى فكشف عنها فإذا عليها سمكة مشوية وخمسة أرغفة وفي رواية سبعة أرغفة وسبعة أحوات فوضعت فأكل منها الناس كلهم وكانوا سبعة آلاف والله أعلم.

طلحة الفياض

الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله، أحد العشرة المبشرين بالجنة، يقال له طلحة الفياض، وإن الذي سماه بذلك هو النبي ﷺ، فقد مر عليه السلام على ماء مالح يقال له (بيسان) فقال هو (نعمان) وهو طيب فغير اسمه، فاشتراه طلحة رضي الله عنه وتصدق به على المسلمين فقال له رسول الله ﷺ: «ما أنت يا طلحة إلا فياض»، فلذلك قيل له طلحة الفياض.

ويصفه المؤرخون وأهل السير بأنه كان أبيض اللون يضرب إلى الحمرة، وأنه كان ربعةً حسن الوجه يميل إلى القصر، رحب الصدر بعيد ما بين المنكبين ضخم القدمين إذا مشى أسرع في مشيته يتدفق حيوية ونشاطاً وقوة، بذل ما يملك من قوة في سبيل نصرة الدين حتى إنه جاد بنفسه في سبيل وقاية رسول الله ﷺ في وقعة (أحد) حين أهمل الرماة وصية النبي ﷺ بالثبات في أماكنهم وأخذوا يجمعون ما تركه العدو من الغنيمة والأسلاب فانتهز المشركون هذه الفرصة وهاجموا المسلمين من خلفهم وأعملوا فيهم الرماح فاضطرب المسلمون لهذه المفاجأة واختل نظامهم حتى تعرضت حياة رسول الله ﷺ للخطر، لكن طلحة رضي الله عنه لازمه مدافعاً عنه ووقاه بنفسه ودفع النبل عنه بيده حتى شلت أصبعه، ولا شك أن هذا الموقف يدل على صدق إيمانه وتفانيه في الذود عن الإسلام وعن نبي الإسلام.

تزوج أربع نسوة كانت أخت كل واحدة منهن عند النبي ﷺ وهن أم كلثوم بنت أبي بكر أخت عائشة، وحنة بنت جحش أخت زينب، والفارعة

بنت أبي سفيان أخت أم حبيبة، ورقية أخت أم سلمة. وكان طلحة من الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليقع اختيار خليفةٍ منهم على الرغم من أن طلحة كان متغيباً عن المدينة في ذلك الوقت قال عمر: إذا أنا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، وطلحة شريككم في الأمر فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم.

كان من السبّاقين إلى الإسلام، أسلم على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقيل إنه كان ثامن من دخل في الإسلام فخالط الإسلام شغاف قلبه وأبلى البلاء الحسن في نصرته، وحين وقعت غزوة بدر كان في تجارة بالشام، ومع ذلك فإن النبي ﷺ اعتبره من المشتركين فيها وخصه بسهم واحتفظ له بنصيبه لما كان يعلم من سبقه إلى الإسلام وجهاده في سبيل الله رضي الله عنه.

دولة الموحدين (١)

كانت تقوم في بلاد المغرب شمالي إفريقية دولة إسلامية قوية تسمى (دولة الموحدين) وذلك في العام السادس للهجرة، وتعاقب عليها خلفاء نشروا العدل وجاهدوا في سبيل الله وفتحوا الفتوحات الكثيرة وتركوا في التاريخ أثراً لا يمحى.

وكان الخليفة (عبد المؤمن) المؤسس الأول لهذه الدولة، نزل مدينة (سلا) وهي مدينة كبيرة في شمالي إفريقية تقع على ساحل البحر، ضربت له خيمة على الشاطىء، وجعلت العساكر والجنود تمر أمامه قبيلةً بعد قبيلة. فلما نظر إلى كثرة العدد وسعة الملك خرَّ ساجداً لله تعالى على هذه النعمة ثم رفع رأسه وقد بل الدمع لحيته والتفت إلى الجالسين حوله وحدثهم عن نفسه قائلاً:

إنني أعرف ثلاثة أشخاص دخلوا هذه المدينة وهم فقراء معدمون مفلسون ليس عندهم شيء سوى رغيف واحد من الخبز، وأرادوا أن يعبروا النهر بالأجرة فطلبوا من صاحب القارب أن ينقلهم إلى الشاطىء الآخر مقابل هذا الرغيف، فلم يقبل صاحب القارب، وقال إنني مستعد لنقل اثنين منكم فقط بهذا الرغيف، فقال أحدهم وكان شاباً قوياً: خذا معكما ثيابي وأنا أعبر النهر سباحةً. وصار يسبح وكلما تعب وضع يده على طرف القارب ليستريح فيمنعه صاحب القارب فما بلغ البر إلا بعد مشقة كبيرة وجهد شديد... وهذا الرجل هو الذي أسس الدولة الإسلامية المعروفة بدولة الموحدين. وهي قصة

تدل على علو الهمة وصدق العزيمة، وعلى أن معالي الأمور لا تنال إلا بالتعب والصبر وتحمل المشاق.

وكانت عاصمة ملكهم مدينة (مراكش) وتوسع ملكهم وفتحوا مدناً كثيرة في الأندلس، وكان يوسف بن عبد المؤمن من ملوكهم المعروفين، كان حازماً شجاعاً عارفاً بأمور السياسة والإدارة وكان إلى جانب ذلك عالماً بأمور الفقه وأحكام الدين واستقدم إلى بلاده كثيراً من علماء المسلمين من الأقطار الأخرى وهو الذي بنى المسجد الكبير في (إشبيلية) بالأندلس، وكان يقود الجيوش بنفسه لافتتاح المدن حتى وصل إلى بلدة (شنترين) التي تقع غربي جزيرة الأندلس.

وكان حين تجهز إلى غزو الأعداء أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث الجهاد، فأخذها وصار يمليها على الجنود، فكان كل واحد من الرؤساء والقواد والجنود يأتي بلوح يكتب فيه أحاديث الجهاد التي يسمعها من الخليفة، ولم يكن مع أحد القواد لوح فأعطاه الخليفة لوحاً من عنده فأخذه وكتب فيه ثم أوصى أن يوضع بعد موته بين جسمه وكفنه حباً في الجهاد وحرصاً على الشهادة في سبيل الله.

دولة الموحدين (٢)

كان أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من كبار ملوك الموحدين وكانت دولته تشمل الأندلس وشمالي إفريقية، وكان حسن السيرة يؤثر العدل في أعماله وأحكامه بحسب طاقته وجهده واستقامت الأمور في أيامه وكثرت الفتوحات.

وكان في أول أمره قد أراد أن يسير بالناس سيـرة الخلفاء الأوّلين الصالحين، فكان يتولى الإمامة بنفسه في الصلوات الخمس، وكان يقعد للناس عامّة لا يحجب عنه أحد من صغير ولا كبير حتى إن رجلين اختصما إليه في نصف درهم فقضى بينهما وأمر وزيره صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما وقال لهما أما كان في البلد حكام قد نصبوا لمثل هذا؟ فكان هذا الحادث سبباً حمله على أن يقعد للناس في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفذها غيره.

وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وعمالهم وقضاتهم فإذا أثنوا خيراً قال: اعلموا أنكم مسؤولون عن هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن أحد منكم إلا حقاً.

وجهز جيشاً من الموحدين وفتح به أربع مدن من بلاد الفرنج في الأندلس كانوا أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة وخاف منه (ألفونس) صاحب طليطلة وسأله الصلح فعقد معه هدنة لخمس سنين، فلما

انقضت مدة الهدنة كان الفرنج بقيادة ملكهم قد جمعوا خلقاً كثيراً من أقاصي بلادهم وأدانيها، فعزم على الخروج إليهم، وكتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين وأهل الخير وأمر أن يحملوا إليه فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم بين يديه أينما سار، فإذا نظر اليهم قال لمن حوله هؤلاء الجند لا هؤلاء (ويشير إلى العسكر).

وهذا الخبر يشبه الخبر الذي يروى عن قتيبة بن مسلم أمير خراسان حين حارب الترك، وكان في جيشه العالم العابد الصالح (محمد بن واسع) فجعل يسأل عنه ويكثر السؤال، فأخبروه أنه قائم في ناحية من الجيش، متكئاً على سية قوسه رافعاً أصبعه إلى السماء يحركها، فقال قتيبة: إن أصبعه هذه أحب إلي من عشرة آلاف سيف.

وبنى يعقوب في مراكش والمغرب والأندلس كثيراً من المساجد والمدارس والمستشفيات وأجرى عليها الأرزاق، وخصص للفقهاء ولطلبة العلم مرتبات، وكان شديداً في دينه توفي سنة (٥٩٣) رحمه الله.

المجاهد الصغير

كان النبي ﷺ إذا أراد الغزو يعرض الجيش أمامه ليختار منه من وصلت سنة إلى خمس عشرة سنة فيقبله مع المجاهدين، وكان يرد من هو أصغر من ذلك، فكان الأول يفرح لقبوله في الجيش، ويحزن الآخر بسبب رده.

روى الترمذي عن نافع عن ابن عمر قال: عرضت على رسول الله ﷺ في جيش وأنا ابن أربع عشرة فلم يقبلني ثم عرضت عليه في العام القابل في جيش وأنا ابن خمس عشرة فقبلني. فحدثت عمر بن عبد العزيز بهذا الحديث فقال هذا حد ما بين الصغير والكبير ثم كتب أن يفرض الجهاد على من بلغ الخمس عشرة.

وروى ابن سعد في كتابه الطبقات عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رأيت أخي عمرو بن أبي وقاص قبل أن يعرض رسول الله ﷺ الجيش يوم بدر متوارياً فقلت: ما لك يا أخي قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة، فلما عُرض على رسول الله استصغره ورده فبكى فأجازه فكان عمرو يقول فكنت أعقد حمائل سيفي من صغري، فقتل وهو ابن ست عشرة سنة.

وهكذا كان المسلمون يتسابقون إلى الجهاد في سبيل الله، وبهذا الإيمان وبهذا الاندفاع انتصروا وإن من طبيعة الشاب الذي يبلغ الخامسة عشرة من عمره أن تتفتح نفسه على الدنيا وأن يميل إلى مفاتنها ومغرياتها،

ولكن الإيمان القوي يتغلب على هذه الطبيعة فيؤثر صاحبه الآخرة على الدنيا.

جاء في كتاب الإستيعاب لابن عبد البر أن النبي ﷺ كان يعرض غلمان الأنصار في كل عام فمر به غلام فأجازه في البعث وعرض عليه سمرة بن جندب من بعده فرده، قال سمرة: فقلت يا رسول الله لقد أجزت غلاماً ورددتني ولو صارعني لصرعته فقال عليه السلام: «فصارعه» قال سمرة: فصارعته فصرعته فأجازني في البعث.

وهذا يدل على مبلغ تشوق شباب المسلمين الأولين إلى الجهاد، وشدة عنايتهم بالقوة وتدريبهم عليها وتسابقهم إليها والمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

وممّا يؤيد هذه الناحية أن النبي ﷺ كان في الاستعراض ينظم الناس أمامه صفوفاً ولما قدم عليه العباس بن مرداس في تسعمئة من قومه على الخيول والقنا والدروع الظاهرة ليحضروا معه غزوة الفتح قال العباس: فصففنا لرسول الله ﷺ وإلى جانبه أبو بكر وعمر.

وكان من عادته ﷺ أن يستعرض الجيش بكامل العدة والسلاح أمام الأعداء ليرهبهم ويوقع الرعب في قلوبهم.

القاضي الجريء

كان الخليفة الناصر من أعاظم الخلفاء في الأندلس في القرن الرابع للهجرة، وكان مغرماً بتشييد العمارات الفخمة، والأبنية الضخمة التي تدل على قوة المُلك وعز السلطان، والتي تبقى بعد موت بانيها من الآثار التاريخية التي ينظر إليها الناس شاهداً على العظمة والمجد، ولكي يخلد هذا الخليفة اسمه في سجل التاريخ بدأ ببناء مدينة (الزهراء) ورغب في أن تكون مدينةً عظيمة البنيان وطيدة الأركان شامخة الذرى رائعة الجمال فبذل جهده في تنسيقها واستفرغ وسعه في تنميقها وبالغ في تزويقها وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها، وانهمك في ذلك فكان يقضي الساعات الطوال في كل يوم مشرفاً على العمل فيها يعطي الأوامر في توسعة البناء والدقة في النقش والنحت والتزيين حتى فاتته صلاة الجمعة ثلاث مرات، فلما انتهى ما أراد وأنفق الملايين فيها، وبدت المدينة للناس كالحسناء المجلوة المكللة بأنواع الزينة، وظهرت هذه المدينة للأعين زهراء كاسمها، أراد القاضي أن يلقي عليه درساً في ذم هذا الفعل، وكان القاضي يومئذ (منذر بن سعيد البلوطي) وكان القضاة يتولون خطبة الجمعة فلما دخل الخليفة الناصر المسجد الجامع في قرطبة لأداء صلاة الجمعة مع وزرائه وأعيان مملكته، وكان الجامع غاصاً بالمصلين، صعد القاضي منبر الخطابة بخطىً ثابتة وعزيمة صادقة ووقف قليلاً وحمد الله ثم افتتح الخطبة قائلاً:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم أَتَبْنُونَ بِكُل ريعٍ آيةً تعبثون، وتتّخذون

مصانِعَ لعلكُمْ تخلدُون وإذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جبّارين فاتّقوا الله وأطيعون﴾ ثم أردف قائلاً: إن متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى وهي دار القرار ومكان الجزاء ثم مضى في خطبته على هذا المنوال بكلام جزل قوي كأنه السيل ينحدر من أعلى الجبل بهديره الذي يقرع الأسماع، ومضى في ذم تشييد البنيان والمبالغة في تزيينه وتزويقه وزخرفته، ودفع الأموال الطائلة في سبيل ذلك وتلا قوله تعالى: ﴿أَفَمَن أَسَّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوى مِنَ اللهِ وَرِضْوَان خَيْر أَم مَن أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّم﴾.

ثم تكلم على الموت والتحذير منه ثم ذكر الدار الآخرة وحذَّر من جهنم وخوف منها بأسلوب رائع وقلب خاشع وجفن دامع (قال الراوي) فخشع الناس ورقوا وبكوا وضجوا بالدعاء والاستغفار، وعلم الخليفة أنه المقصود فلم يملك عينه من البكاء وبكى وندم على عمله وأمر بإزالة النقش والزخرفة ولكنه قال لولده وولي عهده الحكم: لقد أفرط القاضي في انتقادي وبالغ في تقريعي وقسا عليَّ في الوعظ فقال له ولده: ما الذي يمنعك من أن تعزله وتستبدل به غيره، فنظر إليه نظرة قاسية وأجابه قائلاً: وهل مثل منذر في فضله وعمله وخيره يعزل لإرضاء نفس مخطئة ناكبة عن الحق؟ كلا، بل إنه سيبقى في القضاء إن شاء الله تعالى.

صهيبٌ سابق الروم

رجلٌ ينسب إلى الروم، نشأ في بلاد الروم، وقضى شطراً من حياته في ديارهم لا يدري به أحدٌ ولا يذكره أحدٌ ثم انتشر ذكره وذاع صيته وخلدته صفحات التاريخ، فكيف حدث هذا الانتقال من الظلام إلى النور؟ إنه حدث بسبب الإسلام وحده، وإن الرجل الذي هداه الله إلى دينه القويم هو صهيبٌ سابق الروم.

إنه صهيب بن سنانٍ رضي الله عنه، كان أبوه سنان بن مالكٍ من أحرار العرب يسكن مع قومه على نهر دجلة بنواحي الموصل، وكان ابنه صهيبٌ صغيراً فأخذته الروم أسيراً فنشأ في بلادهم وتعلم لغتهم حتى كاد ينسى لغته العربية، وصارت في لسانه لكنةٌ أعجميةٌ لا يستطيع الكلام بعبارةٍ عربيةٍ فصيحةٍ ولهذا السبب سمي صهيباً الرومي ثم اشتراه رجلٌ وباعه بمكة فاشتراه عبدالله بن جدعان وكان صهيبٌ من السابقين إلى الإسلام أسلم هو وعمار بن ياسرٍ على يد الرسول ﷺ في دار الأرقم التي كانت مركزاً للدعوة الإسلامية سراً. قال النبي ﷺ: «السُّبَّاقُ أربعةٌ أنا سابق العرب، وصهيبٌ سابق الروم، وبلال سابق الحبشة، وسلمان سابق الفرس».

كان المسلمون يستخفون في الدعوة إلى الإسلام وفي الصلاة، وكان المشركون كلما رأوهم في صلاتهم سخروا منهم، وكان صهيب من المستضعفين الذين أوذوا وعذبوا في سبيل الله فلم يرده ذلك إلا تمسكاً بالإسلام.

ولما رأى النبي ﷺ ما أصاب أصحابه من البلاء أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، ثم هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وهاجر إليها صهيبٌ، ولما أراد الهجرة قال له كفار قريشٍ: أتيتنا صعلوكاً ـ يعني فقيراً ـ فكثر مالك عندنا ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك، فقال لهم: يا معشر قريش إني من أرماكم ولا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهمٍ معي ثم أضربكم بسيفي، أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا نعم قال: فإني جعلت لكم مالي، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «ربح صهيبٌ ربح صهيبٌ» فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يشري نَفْسَه ابْتِغاءَ مَرْضاةِ الله ﴾.

وكان من أكثر المسلمين صحبةً للرسول ﷺ يشهد معه المشاهد كلها وكان من أحذق الناس في رمي السهام واشتهر برواية الحديث، وتقدمت به السن ومات في عهد عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه في السنة الثامنة والثلاثين للهجرة، وقضى في الإسلام خمسين سنةً رضي الله عنه.

القائد الزاهد

ذكر المؤرخون أن جيش المسلمين حين افتتح بلاد الشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وصل إلى بيت المقدس سنة خمس عشرة من الهجرة، وكانت محاطةً بسورٍ منيعٍ فتحصن الروم داخلها وأغلقوا باب السور وامتنعوا عن فتحه حتى يشاهدوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويتحققوا من أوصافه المذكورة في كتبهم، فسار عمر رضي الله عنه من المدينة إليهم ولما وصل ووقف بإزاء السور نظر إليه البطريق من خلف السور ثم صاح بأعلى صوته: هذا والله الذي نجد نعته وصفته في كتبنا وهو الذي يكون فتح بلادنا على يديه فانزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة، ففتحوا الباب وخرجوا إلى عمر رضي الله عنه يسألونه الميثاق والذمة والجزية، فخر ساجداً على قتب بعيره ثم كتب لهم كتاب الأمان ودخل بيت المقدس وكشف عن الصخرة وأمر ببناء المسجد عليها ثم قال لأبي عبيدة: اذهب بنا إلى منزلك قال أبو عبيدة وما تصنع عندي؟ ما تريد إلا أن تعصر عينك عليَّ. قالوا: فدخل منزله فلم ير شيئاً قال: أين متاعك لا أرى إلا لبدةً وصحفةً وشناً يعني قربة ماءٍ وأنت أميرٌ أعندك طعامٌ؟ فقام أبو عبيدة إلى ناحيةٍ من البيت فأخرج كسيراتٍ من الخبز اليابس فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة: قد قلت لك إنك ستعصر عينيك عليَّ، يا أمير المؤمنين يكفيك ما بلغك المقيل قال عمر: غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة.

انظروا إلى هذا القائد الزاهد، لقد كان أميراً على جيشٍ كبير، وكان

موضع ثقة الخليفة وذا منزلةٍ رفيعةٍ في المسلمين ومع ذلك فلم يكن في بيته شيءٌ من المتاع سوى قطعةٍ من اللباد يجلس عليها وصحناً فارغاً وقربة ماءٍ، ولم يكن عنده من الطعام إلا قطعٌ من الخبز اليابس، ومع ذلك فقد كان صادق الإيمان قوي اليقين شجاعاً في الحرب خبيراً بشؤونها وكان سيفاً من سيوف الله، اختاره الخليفة الأول والخليفة الثاني لقتال المشركين ونشر الإسلام فقام بهذه المهمة خير قيام، وتعاون مع خالد بن الوليد رضي الله عنه على فتح دمشق وسائر بلاد الشام بشجاعةٍ نادرةٍ وهمةٍ عاليةٍ، وكان إلى جانبٍ هذا كله زاهداً في الدنيا عازفاً عن متاعها.

وكان آخر أمره أن الطاعون ظهر في بلاد الشام سنة ثمان عشرة، وطلب منه عمر رضي الله عنه الخروج من البلاد فقال له أبو عبيدة: أفراراً من قضاء الله؟ قال عمر: نعم نفر من قضاء الله إلى قضاء الله وألزمه الحجة ولكنه رفض الخروج لأنه في جماعة من المسلمين هو أميرهم ولا بد له من أن يواسيهم وهكذا ضحى بنفسه إخلاصاً لهم رحمه الله تعالى.

المتكلمون في المهد (١)

قضت سنة الله في خلقه أن يولد المولود من بطن أمه ضعيفاً عاجزاً عن الكلام، ولا يتعلم النطق إلا بعد أن تمر عليه سنواتٌ يتدرج فيها لاستكمال أسباب القوة والإدراك، ولكن الله سبحانه الذي قدر سنن الكون ونواميس الخليفة قادرٌ على أن يقضي بخرقها، وهذا هو الذي وقع من بعض المولودين الذين تكلموا وهم في المهد، عقب ولادتهم بزمنٍ يسيرٍ، والمهد هو فراش المولود الذي يمهد له لينام فيه، والصبي بعد ولادته في الأشهر الأولى من حياته هو صاحب المهد.

وقد قص الله علينا في كتابه الكريم أخبار الذين تكلموا في هذه المرحلة الأولى من حياتهم، فذكر لنا خبر عيسى عليه السلام وغلام أصحاب الأخدود وغلام ماشطة امرأة فرعون وشاهد يوسف عليه السلام ومن المعروف أن الأمر الخارق للعادة إذا وقع لنبيٍّ كان معجزةً وإن وقع لغيره اعتبر كرامةً.

وحديث الصبيان في المهد ليس من الأمور المألوفة ولا من المظاهر المعتادة، ولكنه شأنٌ له خطره وحادثٌ له أهميته، ولم يقع إلا لمناسبةٍ تلائمه، وهناك فئةٌ من الناس يصعب على أفرادها الاقتناع بالحق مهما كان جلياً وواضحاً، وتأبى عقولهم أن تفكر تفكيراً سليماً في صحة العقيدة، فإذا جاء الأمر الخارق للعادة وقفوا أمامه خاضعين مستسلمين كالأطفال.

وقد كان حديث عيسى عليه السلام في مهده من هذا القبيل، فإن مريم أتت بعيسى دون أن تكون لها صلةٌ بالرجال، وهذا أمرٌ يثير العجب والدهشة

والاستغراب من الناس ومن أهلها، وحق لهم أن يعجبوا وأن يستغربوا وأن يقولوا لها ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ آمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ فهم يشهدون لها بكرم الأصل وطيب الأرومة، وراحوا يتطلعون إلى جوابٍ يجلو حقيقة هذا الأمر ويكشف غامضه، واتجهت مريم إلى الله سبحانه بقلبها وفوضت أمرها إليه تعالى كي يتولى براءتها مما زعم السفهاء، ويحفظ عليها سمعتها، وهو الذي بشرها بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وهو الذي اصطفاها وطهرها. وأشارت إليه بيدها فازداد عجب القوم وسألوها قائلين: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي آلْمَهْدِ صَبِيًّا؟﴾ وهنا صدق الله وعده وانجلى الأمر الغامض وظهرت الحقيقة وضاءةً مشرقةً، وأنطق الله سبحانه الصبي في مهده بلفظٍ واضحٍ وكلامٍ صريحٍ ولهجةٍ صادقةٍ ﴿ فقال إنّي عبدُ الله آتانِيَ الكتابَ وجَعَلني نَبِيّاً ﴾... إلى آخر الآيات، وكانت هذه المعجزة الباهرة جلاءً للشبهة، وتبياناً للحق ورفعاً من شأن مريم وإثباتاً لطهارتها، وآيةً جديدةً على هذا المولود الذي سيكون له شأنٌ عظيمٌ ومقامٌ رفيعٌ، وإلى اللقاء مع المتكلمين في المهد.

المتكلمون في المهد (٢)

قص الله سبحانه علينا أخبار بعض الصبيان الذين تكلموا في المهد في الأيام الأولى من حياتهم، وهي من باب خرق العادات التي يجعلها الله سبحانه معجزةً لأنبيائه وكرامةً لأوليائه، وقد ذكرنا معجزة عيسى عليه السلام حين تكلم في المهد، وأن أول كلمةٍ قالها إقراره بأنه عبدالله.

وممن تكلم في المهد شاهد يوسف عليه السلام، فقد كان في موقفٍ دقيقٍ حرجٍ هو موقف التهمة حين تعرضت له امرأة العزيز بعد أن استكملت زينتها وأبرزت مفاتنها وغلقت الأبواب وتعرضت له قائلةً هيت لك، ولكن هذه المرة المتصابية الماجنة كانت تجهل أن يوسف عليه السلام متحدرٌ من أصلاب النبوة، ومن الشجرة المباركة التي امتدحها الله سبحانه بقوله: ﴿ إنّا أخْلَصْنَاهُمْ بخالِصَةٍ ذِكْرىٰ الدارِ﴾، ولما رأت إعراضه عنها وعدم استجابته لرغبتها ثارت ثائرتها وأخذت تلاحقه وهرع إلى الباب وهي تجذبه من الخلف حتى مزّقت قميصَه.

في هذه اللحظة الرهيبة التي وقف فيها يوسف عليه السلام في أحرج موقفٍ أنقذته العناية الإلَهية، على لسان صبيٍّ من أهل زليخا امرأة العزيز، كان في مهده أنطقه الله سبحانه فقال: ﴿ إنْ كانَ قميصُه قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فصَدَقَتْ وهو مِنَ الكاذِبينَ وإنْ كان قميصُه قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فكذَبَتْ وهو مِنَ الصادقين ﴾ وبهذه الشهادة الرائعة البليغة تركزت الجريمة في المرأة وثبتت براءة يوسف عليه السلام.

وممن تكلم في المهد أيضاً رضيع المرأة التي كانت ماشطة امرأة فرعون. روى ابن عباسٍ عن النبي ﷺ قال: «لما أسري بي سرت في رائحةٍ طيبةٍ فقلت ما هذه الرائحة؟» قالوا: ماشطة ابنة فرعون وأولادها سقط مشطها من يديها فقالت بسم الله فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: ربي وربك ورب أبيك قالت أوَ لَكِ ربٌ غير أبي؟ قالت نعم ربي وربك ورب أبيك الله. قال فدعاها فرعون فقال: ألك ربٌ غيري؟ قالت نعم ربي وربك الله قال: فأمر بنقرةٍ من نحاسٍ فأحميت ثم أمر بها لتلقى فيها قالت: إن لي إليك حاجةً قال ما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي في موضعٍ واحدٍ. قال: ذلك لك لما لك علينا من الحق فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم فقال قعي يا أمه ولا تقاعسي فإنا على الحق.

أما أصحاب الأخدود فقد ذكرهم الله سبحانه في سورة البروج، وذكر المفسرون قصتهم بالتفصيل، وذكروا أن الملك الظالم حفر في الأرض ووضع النار فيها، وراح يلقي فيها كل مؤمنٍ ثابتٍ على إيمانه، وجاؤوا بامرأةٍ مؤمنةٍ خافت من هول الموقف فأنطق الله رضيعها وقال لها: اصبري يا أمي فإنك على الحق.

السـامـــري

من العجائب أننا في هذا العصر الذي يعتبر عصر العلم والرقي والمدنية والذي ظهرت فيه الاختراعات في كل ناحيةٍ من نواحي الحياة، وفي كل حاجةٍ من حاجات الإنسان المتحضر، من العجب أن الجهل ما يزال متفشياً في كثيرٍ من بلاد العالم وخاصةً في بلاد إفريقية وبعض بلاد آسيا، حتى إن بلاد الهند التي تعد من الدول المتحضرة لا يزال كثيرٌ من الناس يعبدون البقر، فترى البقرة تمشي طليقةً في السوق تفسد كل ما يقع تحت أقدامها من نفائس البضائع والأموال لا يجرؤ أحدٌ على منعها أو زجرها، وإن حوادث القتال والمذابح التي تقع في تلك البلاد تقع عادةً بين المسلم والهندوس، يأخذ المسلم البقرة فيذبحها ليأكل منها، فيثور الهندي ثورةً عارمةً لهذا الحادث الجلل والجريمة الكبرى التي وقعت على معبودته البقرة المقدسة، ويقاتل المسلم دفاعاً عن هذه العقيدة المضحكة.

ويذكرنا هذا الأمر بالسامري الذي ورد ذكره في سورة طه في قوله تعالى: ﴿ فإنّا قد فَتَنّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِك وأضَلَّهُم السّامِريُّ ﴾، وذلك أن موسى عليه السلام أخذ معه سبعين رجلاً من قومه وخرج لميقات ربه واستخلف أخاه هارون عليه السلام على بني إسرائيل، وتأخر موسى عليه السلام في العودة إليهم فلما استبطؤوه قال لهم السامري: إنه تأخر بسبب الحلي الموجودة عندكم والتي أخذتموها من آل فرعون حين قذف بهم البحر إلى االساحل ولا يحل لكم أخذها، فصدقوا كلامه وجمعوها، فأخذها ووضعها في النار حتى ذابت

ثم صنع منها عجلاً علـى هيئة البقرة وألقى عليه قبضةً من أثر الرسول وهو جبريل عليه السـلام، فصار له خوارٌ، والخوار هو صوت البقر صار يخرج من فيه، وكانت في ذلك حيلةٌ حيث إنه جعل فيه ثقوباً يخرج منها الهواء الداخل إليه بقوةٍ وشدةٍ فيحدث ذلك الصوت، فعبدوه وصاروا يسجدون له، قال تعالى: ﴿ فإنّا قد فَتَنّا قَوْمَك ﴾ يعني زَيَنّا لهمْ عِبادَة العِجْلِ. قال ابن عباسٍ رضي الله عنه: كان السامري من قومٍ يعبدون البقر، من أهل الهند، فسافر إلى مصر ودخل في دين بني إسرائيل في ظاهره وبقي قلبه متعلقاً بعبادة البقر.

وقال ابن عباس: مر هارون بالسامري وهو يصنع العجل فقال: ما هذا؟ قال: ينفع ولا يضر فقال هارون: اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه فقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور.

وكان عاقبة أمره أن موسى عليه السلام قال له: ﴿ٱذْهَب فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾. فبقي منفياً عن الناس لا يمسه أحدٌ وهام على وجهه في البرية مع السباع والوحوش حتى مات. أما عذابه في الآخرة فهو أشد وأبقى.

بين الأب وابنه

في التاريخ الإسلامي أمثلةٌ رائعةٌ على سمو العقيدة وقوة الإيمان وتغلغل الإسلام في النفوس لا يحول دونه حائلٌ من نسبٍ ولا قرابةٍ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانُوا آبَاءَهُم أَو أَبْنَاءَهم أَوْ إِخْوَانَهُم أَوْ عَشِيرَتَهم﴾. فكان الرجل منهم إذا دخل في الإسلام ترك أباه وأمه وهجر ابنه وأخاه في سبيل العقيدة.

ومن الأمثلة على ذلك أن الصحابي عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلولٍ رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ إن والدي قد آذاك وأذاع السوء عن أصحابك فإن كنت قاتله فمرني بقتله كي لا أجد من يقتله سواي، فهو لا يتحرج عن قتل والده دفاعاً عن الإسلام الذي امتزج بلحمه ودمه.

وهذا سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه الذي امتنعت والدته عن الطعام والشراب حتى يرجع عن الإسلام إلى الشرك فقال لها في حدّةٍ لو أن لك ألف نفسٍ، وقد جعلت كل نفسٍ تهلك في يومٍ ما رجع بي ذلك عن اعتقادٍ أهواه، وهذا موقفٌ رائعٌ من سعد رضي الله عنه يدل على مبلغ تغلغل الإيمان في قلبه فلم يعد يبالي من بعد ذلك بموقف أمه التي حملته وربته وهي أقرب الناس إليه، وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وإنْ جاهَداكَ على أنْ تُشْرِكَ بي ما ليس لكَ بهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما وصاحِبْهُما في الدنيا مَعْروفاً﴾.

ولما انتهت موقعة بدرٍ وقع في الأسر جماعةٌ من أقرباء المسلمين فتقدم

عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ قائلاً له: مكني من أخي زيد بن الخطاب لأقتله، ومكن علي بن أبي طالبٍ من أخيه عقيلٍ بن أبي طالبٍ، ولكن النبي ﷺ آثر العفو الشامل عن القريب والبعيد.

أما أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح فقد ضرب أروع مثالٍ في هذا المجال حين وجد أباه أمامه في القتال يوم بدرٍ فصرف عنه وجهه تفادياً من لقائه ولكن الوالد الغاضب الذي كان في صفوف المشركين كان مصمماً على القتال، وفي هذا الموقف الدقيق تعرض أبو عبيدة لأقسى امتحانٍ عاطفيٍ حين وجد أباه أمامه، ولم يكن بدٌّ من الاختيار بين عاطفة البنوة وواجب العقيدة وسرعان ما سيطر الإسلام الخالد على نفسه، وانتهى الموقف بمصرع الأب على يد ابنه المؤمن.

ولا يفوتنا أن نذكر إبراهيم عليه السلام الذي قال الله فيه وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلّا عن موعدةٍ وعدها إياه فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم.

وهذا نوحٌ عليه السلام غلبت عليه عاطفة الأبوة فقال رب إن ابني من أهلي، وسرعان ما يأتيه الجواب قائلاً يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عملٌ غير صالحٍ، فيذعن مستسلماً لأمر ربه.

تجارةٌ رابحةٌ

الربا يزيد في المال، والصدقة تزيد في المال، وشتان ما بين الزيادتين، فالأولى ممحوقةٌ والثانية موثوقةٌ، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا ويُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾، ويلاحظ أن كلمة الربا في اللغة معناها الزيادة فنقول ربا يربو إذا زاد، ولكن الزيادة في الربا يمحقها الله ويذهب بركتها في الدنيا فهي تذهب بسرعةٍ من غير أن يحس بها صاحبها والمحق هو النقص والذهاب، أما الصدقات فالزيادة فيها مضمونةٌ إن لم تكن في الدنيا ففي الآخرة فالله سبحانه ينميها في الدنيا بالبركة ويضاعف ثوابها في الآخرة، جاء في صحيح مسلمٍ: «إن صدقة أحدكم لتقع في يد الله فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى يجيء يوم القيامة وإن اللقمة لعلى قدر أُحُدٍ». قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾، أي تضاعف لهم الحسنات، وقد مثل الله سبحانه لمن ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل في كل سنبلةٍ مئة حبةٍ، فيكون المجموع سبعمئة حبةٍ لحبةٍ واحدة.

وقد حدثت قصةٌ طريفةٌ في هذا المعنى للوزير المهلبي، فقد كان هذا الرجل في أول أمره فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، ومرت به أيام ضيقٍ وشدةٍ، فسافر وهو على تلك الحال، ولم يجد ما يأكله فاشتهى اللحم ولم يكن معه ثمنه فقال:

ألا موتٌ يباع فأشتريه   فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موتٌ لذيذ الطعم يأتي   يخلصني من العيش الكريه

وكان له رفيقٌ يقال له أبو عبدالله الصوفي فلما سمع منه الأبيات اشترى له لحماً بدرهمٍ وطبخه وأطعمه ثم افترق الرجلان، ومضت الأيام، وتوالت الأعوام وتقلبت الأحوال حتى وصل المهلبي إلى مرتبة الوزارة وصار وزيراً للخليفة معز الدولة بن بويهٍ في بغداد، وضاقت الحال برفيقه الصوفي الذي اشترى له اللحم في السفر وقل ماله، فذهب إلى الوزير وكتب إليه رقعةً يقول له فيها:

ألا قـل للوزير فَدَتْـه نفسي مقـال مذكـرٍ مـا قـد نسيـه
أتذكر إذ تقول لضيقِ عيشٍ ألا مـوتٌ يبـاع فـأشتـريـه؟

فلما قرأ الوزير هذا الخطاب تذكر أحواله الماضية وتذكر رفيقه في السفر، وقارن بين حالته الأولى وما كان فيه من مشقة وفقر وشدة وما صار إليه من نعمة الوزارة وسعة العيش، فحمد الله سبحانه على هذه النعمة، وهزته الأريحية، فأمر له بسبعمئة درهم وكتب تحت التوقيع: ﴿مَثَلُ الذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم في سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابل في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴾، ثم أدخله وخلع عليه الثياب وقلده وظيفةً وأنعم عليه.

مؤمن آل فرعون

في القرآن الكريم سورة تسمى سورة (غافر) أو (المؤمن) قصَّ الله سبحانه علينا فيها قصة هذا الرجل الذي كان من جماعة فرعون وكان في قلبه مؤمناً ولكنه لا يظهر إيمانه، قال الله تعالى عنه: ﴿وقالَ رَجُلٌ مؤمنٌ مِن آلِ فرعونَ يَكْتُمُ إيمَانَهُ أتَقْتلونَ رَجُلاً أنْ يقولَ رَبِّيَ اللهُ؟﴾ أي أن موسى عليه السلام يدلكم على الله الذي خلقكم ورزقكم ويدعوكم إلى عبادته وحده، فهل تقابلون هذه الدعوة الكريمة بقتله؟ وقيل إن هذا الرجل كانت له عند فرعون وجاهة ومنزلة وكان من المقربين إليه فاحتمل منه هذا الكلام ولم يتعرض له بسوء، ولا تظنن أيها القارىء الكريم أن هذا الرجل دعا إلى الله اعتماداً على هذه المنزلة وهذه الوجاهة ولكنه كان مؤمناً صادقاً في إيمانه، وخاطب قومه بنفسٍ ملأها اليقين وقلب ثابت على الحق لا يهاب فيه أحداً، وكان فرعون يقول: أنا ربكم الأعلى ولكن الرجل لم يبال به ولم يخف بطشه، وهذه هي حال المؤمنين الصادقين يستسهلون المصاعب ويحتملون المشاق والعذاب في سبيل الدعوة إلى الله.

ولم يكن هذا الرجل هو المؤمن الوحيد من آل فرعون بل كانت امرأة فرعون نفسه مؤمنةً وهي من أقرب الناس إليه، وقد ذكرها الله سبحانه وأثنى عليها بقوله تعالى: ﴿وضَرَبَ اللهُ مثلاً للّذينَ آمَنُوا امرأةَ فرعَوْنَ إذ قالتْ ربِّ ابْنِ لي عندَكَ بيتاً في الجَنّةِ وَنَجِّني من فرعونَ وعَمَلِه ونجِّني مِنَ القَوْمِ الظَالِمِين﴾ فقد كانت مثالاً فريداً للصابرات على الشدة وعلى الأذى والثبات

على الإيمان، وكان فرعون يعذبها بأنواع العذاب ويلقيها في أشعة الشمس اللاهبة وهي تضحك لأنها رأت بيتها في الجنة حين أطلعها الله عليه وكان في جماعة فرعون شخص ثالث من المؤمنين وهو الذي أنذر موسى عليه السلام وقال له: ﴿إِنَّ الملأ يأْتَمِرُونَ بكَ لِيَقْتلُوك فاخْرُج إنّي لكَ مِنَ الناصِحِين﴾.

وما زال مؤمن آل فرعون ينصح قومه ويبين لهم فائدة الهداية والإيمان ويحذرهم من عاقبة الكفر والطغيان، ويذكرهم بما حدث للأقوام السابقين الذين كذبوا الرسل كقوم نوح وقوم عاد وثمود وكيف أهلكهم الله ببغيهم وعنادهم وتكذيبهم ثم قال لهم يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد أي يوم القيامة حين ينادي الناس بعضهم بعضاً، بعضهم ينادي بالشقوة وبعضهم ينادي بالسعادة وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إنْ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ﴾.

وكانت نتيجة هذا الرجل أنّ الله سبحانه أنقذه من بطش فرعون وكيده كما قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سيئاتِ مَا مَكَروا وحاقَ بِآلِ فرعَوْنَ سُوءُ العذاب﴾.

المشي على الماء

يا أيها القراء لو قيل لكم إن قوماً اجتازوا نهراً من الأنهار الكبيرة من غير أن يركبوا السفن والقوارب ولم يسبحوا في الماء بل ساروا فوقه كما يسيرون على الأرض، هل كنتم تصدقون هذا الخبر أم إنكم تعدونه قصة من نسج الخيال؟ لكم بعض الحق في ذلك، ولكننا سننقل لكم اليوم خبراً من التاريخ يتبين لكم منه، أن ما ذكرناه قد حدث بالفعل وأنه حقيقةٌ ثابتة وليس قصة خيالية.

روى المؤرخون الثقات الذين نقلوا أخبار حروب القادسية بين المسلمين والفرس في العراق أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي كان قائد جيش المسلمين في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا فتح بلدة (نهرشير) لم يجد فيها أحداً من الفرس لأنهم ركبوا السفن واجتازوا نهر دجلة إلى الضفة الثانية وأخذوا السفن معهم. وكانت دجلة قد زاد ماؤها زيادة عظيمة بسبب الأمطارواسود ماؤها وارتفع الزبد من كثرة الماء وجاء الخبر إلى سعد أن كسرى قد عزم على الانسحاب من المدائن إلى حلوان وعلى أخذ الأموال معه فيجب على المسلمين أن يحلقوا به في خلال ثلاثة أيام.

وخطب سعد المسلمين وقال لهم: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، وقد رأيت أن تبادروا جهاده بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم. فصاح المسلمون جميعاً نحن معك فامضِ على بركة الله، فتقدم ستمائة جندي من الفدائيين وعين سعد (عاصم

بن عمرو) أميراً عليهم وهو من الأبطال الشجعان، وكان الفرس واقفين على الجانب الآخر من النهر ينظرون، ونظر المسلمون إلى الماء وأحجموا قليلاً وترددوا لأنهم عاشوا في الصحراء ولم يعرفوا خوض البحار، فتقدم رجل من المسلمين وقال لهم أتخافون من هذه النطفة؟ ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنفسٍ أنْ تَموتَ إلاّ بإذْنِ اللهِ كِتاباً مؤجّلاً﴾ ثم أقحم فرسه في الماء فتشجع أصحابه وتحمسوا واقتحموا معه على خيولهم.

فلما نظر الفرس إليهم من الجانب الآخر صاحوا قائلين (دَبْوانا... دَبْوانا) يعني (مجانين... مجانين) ثم قال بعضهم لبعض إنكم لا تقاتلون إنساً ولكنكم تقاتلون جناً، ثم نزل بعض فرسان الفرس في الماء ليمنعوا المسلمين من الوصول إليهم فضرب المسلمون أعين خيول الأعداء بالرماح وقلعوها فرجعت بأصحابها لا تلوي على شيء، ولحق بهم عاصم وأصحابه حتى طردوهم عن الساحل، وعندئذ كبَّر سعد وكبّر المسلمون ودخلوا الماء بخيولهم وهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل، فساروا على الماء كأنهم يسيرون على وجه الأرض وملؤوا ما بين الجانبين فلم يعد يُرى وجه الماء من كثرتهم وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض وذلك بسبب اتكالهم على الله ووثوقهم به، ونجاهم الله فلم يُفقد منهم رجل واحد، ثم لحقوا بالفرس حتى أدركوهم وهزموهم.

العلاء بن الحضرمي

العلاء بن الحضرمي صحابيٌّ جليلٌ، أصله من حضرموت، ولد في مكة ونشأ فيها وولاه رسول الله ﷺ البحرين في العام الثامن للهجرة وأمره أن يأخذ الصدقة من أغنيائهم ويردها على فقرائهم، وبعد وفاة النبي ﷺ أقره أبو بكرٍ رضي الله عنه على عمله، وبعثه إلى المرتدين هناك لقتالهم، فخرج العلاء مع الجيش من المدينة، ولما مر في طريقه باليمامة انضم إليه بعض المسلمين ولحق به قيس بن عاصمٍ وجماعةٌ آخرون، فساروا جميعاً في طريقهم إلى البحرين يقطعون البراري والقفار ويجتازون الصحارى الواسعة والفيافي الشاسعة، وكان معهم أبو هريرة رضي الله عنه.

قال أبو هريرة: سلكنا في طريقنا مفازةً جرداء قاحلة ليس بها ماءٌ ولا ظلٌّ، فنزلنا في الليل للاستراحة فلما جلسنا نفرت الإبل وذهبت بأحمالها فلم يبق عندنا بعيرٌ ولا زادٌ نأكله ولا ماءٌ نشرب منه، فلحقنا من الغم ما لحقنا، وعرفنا أننا إذا جاء النهار وحميت الشمس فسوف نهلك جوعاً وعطشاً.

في ذلك الموقف الرهيب، وفي تلك الساعة العصيبة سكت العقل ونطق الإيمان.. وقف العلاء في القوم وقال بلهجة الواثق بربه، المعبر عن يقينه وإيمانه: أيها الناس لن تراعوا، أنتم المسلمون وأنصار الله خرجتم في سبيل الله فأبشروا وأمِّلوا فوالله لن تخذلوا..

قال أبو هريرة فلما صلوا الصبح وقف العلاء يدعو ويقول: يا حليم يا عليم يا

علي يا عظيم اسقنا، ودعا الناس بدعائه في ابتهالٍ وتضرعٍ وخشيةٍ فجاءت سحابةٌ كأنها جناح طائرٍ فقعقعت علينا وأمطرتنا وشاهدنا أمامنا في تلك الصحراء الموحشة بحراً من الماء فشربنا واغتسلنا وملأنا الآنية، ورجعت إلينا الإبل الشاردة وشربت حتى ارتوت.

أيها القارىء الكريم انتبه إلى بقية الخبر فهي أعجب وأغرب وأطرب. . قال الراوي: ثم قام العلاء بن الحضرمي فدعا الناس إلى بلدة (دارين) التي تجمع فيها المرتدون وقال لهم: انهضوا إلى عدوكم، ثم ارتحل وارتحل المسلمون معه وساروا حتى أتوا على خليج من البحر ما خاضه أحدٌ قبل ذلك اليوم، ولم يكن عندهم سفنٌ يجتازون البحر بها، وكانوا يتهيبون عبور البحار لأنهم عاشوا في الصحراء، فقام العلاء وصلى ركعتين ثم وقف يدعو الله سبحانه وتعالى ثم أخذ بعنان فرسه واقتحم البحر وقال: بسم الله جوزوا، فاقتحم المسلمون معه البحر على الخيل والإبل والحمير وكان فيهم الراجلون أيضاً. قال أبو هريرة رضي الله عنه: فمشينا على الماء كأننا نمشي على الرمال، ووالله ما ابتل لنا قدمٌ ولا خفٌ ولا حافرٌ وكان الجيش أربعة آلافٍ والتقى المسلمون بأعدائهم واقتتلوا قتالاً شديداً وظفر المسلمون وانهزم المشركون وعاد الإسلام إلى البحرين وكتب العلاء إلى أبي بكرٍ رضي الله عنهما يعرفه بذلك.

الملك الظاهر

نقل الحافظ ابن كثير في كتاب البداية والنهاية وهو من أجلِّ كتب التاريخ، خبر جيش المسلمين في حروب القادسية حين عبروا نهر دجلة مشياً على أقدامهم كما يمشون على الأرض، وخبر جيش المسلمين بقيادة العلاء ابن الحضرمي حين عبروا الخليج جنوبي جزيرة العرب ومشوا على الماء أيضاً.

وقد فصلنا القول في ذلك في حديثين سابقين.

ثم وجدنا خبراً ثالثاً في الموضوع نفسه، وهو موضوع المشي على الماء، في زمن الملك الظاهر بيبرس وإن تاريخنا الإسلاميَّ بحمد الله مليء بالمفاخر والبطولات، ولكننا مع الأسف نجهله، مثلنا مثل رجل خلَّف له أبوه كنزاً عظيماً فيه اللآلىء والجواهر واليواقيت وأعطاه المفتاح ولكنه تكاسل عن فتح الصناديق وراح يفتخر بأبيه ويتغنى بكثرة ماله وعظيم ثروته من غير أن يستفيد منها.

أما الملك الظاهر بيبرس فهو من كبار السلاطين الذين خلد لهم التاريخ الذكر الحسن فقد كان شجاعاً يباشر الحروب بنفسه، كان ملكاً على مصر والشام في القرن السابع الهجري، وله الوقائع الهائلة والحروب العظيمة مع الصليبيين والتتار الذين هاجموا بلاد المسلمين في جموع كثيرة فقام يحاربهم ويدفع شرهم وأذاهم عن ديار الإسلام. تولى الملك سنة (٦٥٨) للهجرة،

عاش خمسين سنة وتوفي في دمشق وقبره معروف فيها، وأقيمت عند قبره المكتبة الظاهرية ولا تزال حتى اليوم من أكبر المكتبات، وعمَّر كثيراً من المساجد والمدارس والرباطات ولا تزال آثاره حتى اليوم ناطقة بفضله.

قال المؤرخ ابن كثير: وفي الخامس من جمادى الآخرة سنة ست وإحدى وسبعين وصل السلطان بعسكره إلى نهر الفرات شمالي بلاد الشام في حروبه مع التتار الذين عاثوا في البلاد فساداً، وبلغه أن طائفةً من التتار مرابطةً وراء نهر الفرات، ولم يكن مع السلطان سفن يعبر بها هذا النهر الكبير الذي فاض بالماء الكثير والتطمت أمواجه ووقف حائلاً بين المسلمين وأعدائهم، ففكر السلطان في الأمر وقد ملأ الإيمان قلبه وكان شجاعاً جريئاً مقداماً لا يهاب الموت فقال لجنوده: إني مقتحم هذا النهر للجهاد في سبيل الله فمن شاء منكم فليتبعني، ثم دعا ربه وكبَّر وخاض الماء بنفسه دون خوف ولا وجل، ولما رآه الجند تشجعوا وخاضوا الماء خلفه مهللين مكبرين حتى وصلوا إلى الطرف الآخر من النهر وهجموا على التتار والتحموا معهم في معركةٍ رهيبة ونصرهم الله عليهم وقتلوا منهم مقتلةً عظيمة وخلقاً كثيراً، ثم انتقل المسلمون إلى ناحية (البيرة) وكان التتار قد حاصروها فلما سمعوا بقدوم السلطان هربوا وتركوا أموالهم وأثقالهم وغنمها المسلمون.

يوم اليمامة

كان يوم (اليمامة) من أشد الأيام على الصحابة الكرام في جهادهم الطويل، فقد ارتد كثير من المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ وامتنعوا عن دفع الزكاة، ووقف منهم الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه موقفاً حازماً وأمر بقتالهم وقال قولته المشهورة: والله لو منعوني عقال بعيرٍ كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

وكان عدد المرتدين كبيراً وكان زعيمهم مسيلمة الكذاب من بني حنيفة في اليمامة، وكان قد ادعى النبوة ونهض الصحابة الكرام لقتاله، ولمّا التقى الجمعان انكشف جيش المسلمين وهُزموا ثلاث مرات، وكاد الموقف ينجلي عن انتصار المُرتدين لولا شجاعة أبطال المسلمين وقوة إيمانهم، وذكر المؤرخون أن زيد بن الخطاب رضي الله عنه كان يحمل راية المسلمين يوم اليمامة، فلما انكشف المسلمون جعل زيد يصيح بأعلى صوته: اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة وجعل يشد بالراية يتقدم بها في نحر العدو ثم ضارب بسيفه حتى قُتِل رحمه الله ووقعت الراية وأسرع سالم مولى أبي حذيفة وتناولها ورفعها فقال له المسلمون: يا سالم إنا نخاف أن نؤتى من قِبلك فقال: بئس حامل القرآن أنا إن أُتيتم من قِبَلي.

وممّن أظهر شجاعة وجرأة في ذلك اليوم ثابت بن قيس فقد قال: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ وجعل هو وسالم لأنفسهما حفرة في الأرض ودخلا فيها ولم يزالا يقاتلان حتى قُتلا رحمهما الله.

وكان للأنصار في ذلك اليوم موقف رائع كان له أكبر الأثر في النصر فقد صاح بهم عبَّاد بن بشر: يا معشر الأنصار احطموا جفون السيوف وأخلصونا أي اكسروا أغماد السيوف حتى لا ترجع السيوف إلى أغمادها وانفصلوا عن بقية المقاتلين كي تظهر شجاعتكم فتعيد للمسلمين ثباتهم ورباطة جأشهم، فاستجاب له الأنصار وانفصل منهم أربعمئة رجل من الأبطال يتقدمهم عباد بن بشر وأبو دجانة والبراء بن مالك وتقدموا حتى وصلوا إلى البستان الذي كان يتحصن فيه مسيلمة فما زالوا يقاتلون أشد قتال في ساعات عصيبة رهيبة حتى استطاعوا أن يقتحموا عليه البستان وأصيبوا بجروح كثيرة، وجرح عبّاد في بدنه وفي وجهه بجروح كثيرة حتى قتل رحمه الله ولم يعرفوه بعد موته إلا بعلامةٍ كانت في جسده.

ولقد كان هذا الإيمان الرائع سبباً في إنقاذ المسلمين من أعظم محنةٍ تعرَّض لها الإسلام في مبدأ ظهوره.

الاسم الصريح

ذكر الله سبحانه في كتابه الكريم أسماء الأنبياء والرسل، ولم يذكر أحداً غيرهم باسمه الصريح إلا رجلاً واحداً وامرأة واحدة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وهو (زَيْدُ بنُ حارِثَةَ) رضي الله عنه كان يخدم النبي ﷺ وتبناه وكان يقال له (زيد بن محمد) حتى نزل قوله تعالى: ﴿أدعوهم لآبائهم﴾ وطلق زيد زوجته زينب بنت جحش وتزوجها النبي ﷺ.

أما المرأة فهي (مريم ابنة عمران) التي ورد ذكرها باسمها الصريح في أكثر من موضع من القرآن الكريم وقد ورد ذكر غيرها من النساء من غير تصريح بالاسم كقوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنةَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مثلاً لِلّذينَ آمَنُوا امرأةَ فِرْعَوْنَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قالَتِ امرأَةُ العزِيز الآنَ حَصْحَصَ الحقُ أنا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِه﴾.

والتصريح بالاسم تكريم من الله سبحانه لصاحبه، وإن مريم عليها السلام حقيقة بالتكريم فقد نزل عليها الوحي بأن الله اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين وأمرها أن تقنت لربها وتسجد وتركع مع الراكعين وبشرها بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم، وذكر بعض العلماء أنّها كانت نبية لأن الوحي لا ينزل على غير الأنبياء، وعارض بعضهم في نبوتها محتجاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قبلِك إلاّ رِجَالاً نُوحِي إلَيْهم﴾.

وعلى كل حال فإن شأنها عظيم ومنزلتها رفيعة لأن الله سبحانه أكثر من الثناء عليها في القرآن الكريم، أما في السُّنة فقد روي أن فاطمة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أنت سيدة نساء أهل الجنة الا مريم البتول المتعبدة»، فلم يجعل النبي ﷺ لابنته فاطمة وهي أحب الناس إليه فضلاً على مريم، ولا شك أن هذا إنصاف ونبذ للعصبية الشخصية، ويؤيده قوله ﷺ: «لا تُطروني - أي لا تبالغوا في مدحي - كما أطرتِ النصارى المسيح بن مريم».

وهي مريم ابنة عمران. وكان اسم أمها حَنَّة قال تعالى عنهما: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾، بل كان عفيفين طاهرين، والفرع يتبع أصله. أماقوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُون﴾ فالمعنى أنها تشبهه في العفة والتقوى وطيب العنصر، لا في النسب. روىٰ الإمام مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. قال: لما قدمت خراسان سألوني فقالوا لي: إنكم تقرؤون: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم ولذلك شبهوها به».

نَظَرَات في الحَيَاة

التوسط في الأمور

قال رجلٌ لبعض العلماء إن الناس يقولون: خير الأمور أوساطها فهل ورد مثل هذا المعنى في كتاب الله؟ فأجاب العالم قائلاً: إن هذا المعنى ورد في القرآن الكريم في أربعة مواضع. في قوله تعالى: ﴿لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوانٌ بينَ ذلك﴾ وذلك حينَ قال موسى عليه السلام لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً فقالوا له ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هي أي ما هي سنها، فقال: إنه يقول إنها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بكرٌ أي ليست صغيرةً جداً بحيث إنها لا تلد وليست طاعنةً في السن، بل هي عوانٌ بين ذلك أي متوسطةٌ بين الحالتين لا صغيرةٌ ولا كبيرةٌ.

والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامَاً﴾أي إنهم لا يتجاوزون في الإنفاق ما أعطاهم الله سبحانه من القدرة المالية، ولا يعطون الأموال من لا يستحقها فإن هاتين الخصلتين من الإسراف المذموم، ولا ينفقون أموالهم في معصية الله، ولا ينفقونها بقصد الرياء والسمعة، وهم بالمقابل لا يبخلون على الفقراء والمحتاجين بما أنعم الله به عليهم فهم يعطونهم حقهم وافياً غير منقوصٍ كما أمرهم الله سبحانه، والتقتير هو التضييق على الفقراء بمنع الحق الذي فرضه الله لهم في أموال الأغنياء، وكان بين ذلك قواماً أي كان الأمر وسطاً بين الإسراف والتقتير، فلا مجاوزةٌ في الحد تصل إلى التبذير ولا تقصيرٌ إلى حد منع المستحقين من استيفاء حقوقهم، والقوام هو التوسط والعدل. أخرج الإمام أحمد عن أبي

الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من فقه الرجل رفقه في معيشته». وهو حسن التدبير في الإنفاق على نفسه وعلى عياله.

والموضع الثالث قوله تعالى: ﴿ولا تَجعلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبسُطْها كُلَّ ٱلبَسْطِ﴾. أي لا تمسك يدك عن الإنفاق، شبه الله سبحانه حال البخيل في امتناعه عن الإنفاق بحال رجلٍ ربطت يده إلى عنقه برباطٍ قوي فهو لا يستطيع أن يستعين بها على أي تصرفٍ من تصرفاته، والغل هو طوقٌ من حديدٍ يجعل في العنق، ولا تبسطها كل البسط أي لا تنفق كل المال الذي هو تحت يدك من غير أن تبقي منه شيئاً فتقعد ملوماً محسوراً يلومك الناس ويذمونك وتبقى محسوراً نادماً على ما فعلت متلهفاً على ما خرج من يدك. وقد ورد في الحديث: «إنك أن تدع ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس».

والموضع الرابع قوله تعالى: ﴿ولا تَجْهَرْ بِصَلاتِـكَ ولا تُخافِتْ بها وابْتَغِ بينَ ذلك سبيلاً﴾. ذكر ابن عباس أنها نزلت ورسول الله ﷺ مختفٍ بمكة وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فأمر بعدم الجهر بها لهذا السبب وبعدم المخافتة بها إلى الحد الذي لا يسمعها أصحابه.

الأمل والأجل

كل امرىءٍ منا يخطط لحياته، ويبني حياته على الأمل الواسع، ويرسم الطريق لنفسه حسب تخيلاته البعيدة ويعيش في جو حلو من الآمال والأماني، فهو يتصور لمستقبله السعادة الوارفة والهناء المديد، والثروة الضخمة والجاه العريض، والعمر الطويل، يرى ذلك كله بعين خياله كما يرى النائم بعقله الباطن الأحلام اللذيذة تعرض له المشاهد الحلوة الهانئة وأصناف الملذات، ولكنه حين يفتح عينيه يتبين له أن ما رآه لم يكن إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، لأن طبيعة الحياة في واقعها ليست كطبيعة الآمال والأحلام في ظاهرها الجميل، فالسفن في البحر ترغب في أن تجري بهدوء وراحة في الطريق المرسومة لها ولكن الرياح لا تدع لها الفرصة لبلوغ أمنيتها بل تجري بما لا تشتهي السفن، ولا يدرك المرء كل ما يتمناه، قال تعالى: ﴿أم للإنسان ما تمنًى﴾ أي أن الإنسان لا ينال كل ما يشتهي، واختلف المفسرون في المعن الذي تشير إليه هذه الآية الكريمة مما كان يتمناه المشركون الذين نزلت الآية فيهم فقيل إنهم تمنوا شفاعة الأصنام، وقيل إنهم تمنوا البنين دون البنات، وقيل إنهم تمنوا المال والولد، وقيل تمنى بعضهم أن يكونوا أنبياء، والآية في ظاهرها عامة توضح أن الحياة لا تسير حسب رغبات الإنسان وأهوائه، ولكنها تسير وفق ما قدَّر الله سبحانه لها، فلِلَّهِ الآخرة والأولى وأمور الدنيا والآخرة كلها له عزّ وجل ليس لأحدٍ فيهما أي شيء.

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُم ولا أَمَانيِّ أَهْلُ الكِتَابِ﴾

أي أن أمور الثواب والعقاب ليست مرتبطة بالآمال الواسعة ومتطلبات النفس الكثيرة ولكنها مرتبطة بالإيمان والعمل الصالح، من يعمل سوءاً يجز به، وورد في الحديث أن أبا بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله وأيُّنا لم يعمل السوء وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه فقال ﷺ: «أمّا أنت وأصحابك المؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس عليكم ذنوب وأما الآخرون فيجتمع لهم بذلك حتى يجزوا به يوم القيامة».

ولو افترضنا أن الواحد منا نال جميع ما يتمناه من نعيم الدنيا ولذاذاتها ومتاعها فما هي النتيجة؟ إن متاع الدنيا قليل، وإن ملذاتها تفنى، والعمل الصالح يبقى، ومن اختار الفاني على الباقي فهو أحمق لا عقل له، ولمّا قال الله سبحانه لسليمان عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كان جوابه: ﴿هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَني، أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، فهو لم يعد ذلك نعمةً ولا رفعة ولكنه خاف أن يكون استدراجاً حين يُسأل عنه يوم القيامة.

النظر والتدبر

نحن نقرأ في صلاتنا كل يوم: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وإِلَىٰ السماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وإلى الجبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وإِلَىٰ الأرضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فنستدل بذلك أن الله سبحانه وتعالى يأمرنا بالنظر في مخلوقاته بعين الفكر والتدبر، لأن ذلك يعيننا على إدراك قدرة الله جل شأنه فيزيد إيماننا وتمتلىء قلوبنا حباً له وخوفاً من عقابه وطمعاً في عفوه ورحمته. وقد وصف الله سبحانه عباده المؤمنين بأنهم: ﴿يَتَفكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبحانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النارِ﴾. وقد ورد في السنة أن تفكر ساعة خير من عبادة سنة، وذلك لأن التفكر في آلاء الله يدعو إلى عبادته بقلب خاشع ونفس مؤمنة موقنة. فمن الواجب على العبد النظر والاستدلال، وقد أفرد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه باباً سماه (باب العلم قبل القول والعمل) لأن العلم واجب ومن لم يكن عالماً فهو جاهل به غير مهتد إلى طريق الرشاد، قال الإمام القرطبي رحمه الله: على العاقل أن ينظر إلى نفسه ويتفكر في خلقه من حين كونه ماءً دافقاً إلى كونه خلقاً سوياً يعان بالأغذية ويُربى بالرفق ويُحفظ باللين حتى يكتسب القوى فيقول أنا... أنا... ونسي حين أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، وسيعود مقبوراً فيا ويحه إن كان محسوراً، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرونَ﴾؟

وعلى المرء أن ينظر إلى هذا الكون وما فيه من بدائع الحكم وغرائب الخلق ودقيق الصنع وعظيم الإحكام مع الاتساع والتناسق والإبداع، وأن ينظر

إلى السماء وما فيها من كواكب ونجوم تطلع وتغيب في نظام عجيب وإتقان رائع تسير منذ القدم في هذا الفضاء الذي لا نعلم حدوده وأبعاده من غير أن تتوقف لحظة واحدة ولا يصطدم بعضها ببعض على وفرتها وكثرتها.

سئل أعرابيٌ ما الدليل على وجود الله؟ فقال يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير، وإنّ أثر القدم ليدل على المسير، فسماءٌ ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على اللطيف الخبير؟

وسئل الإمام الشافعي رضي الله عنه: ما الدليل على وجود الله؟ قال: ورقة الفرصاد - وهو التوت الأحمر - طعمها ولونها وريحها واحد، تأكلها دودة القز فيخرج منها الحرير، وتأكلها النحلة فيخرج منها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج منها البعر، وتأكلها الظباء فينعقد في ضلوعها المسك، فمن الذي أوجد هذه الخصائص مع أن طبيعتها واحدةٌ لم تتبدل؟ فاستحسن السائلون هذا الجواب وأسْلموا على يديه... اللهم ارزقنا الإيمان بك، وألهمنا حسن النظر والتفكر في آلائك ولا تجعلنا ممن قلت فيهم: ﴿لَهُمْ قلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أولِئكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ﴾ صدق الله العظيم.

إفساد العقول

يواجه المسلمون اليوم خطراً كبيراً على إيمانهم وعقيدتهم، والإسلام اليوم محاط بأعدائه الألداء الذين يكتنفونه من كل جانب، ويبيتون له الدسائس والمؤامرات، ويكيدون له، ويحاربونه حرباً لا هوادة فيها، ولا رحمة بها. وهم يضمرون للإسلام في أعماق قلوبهم أقسى أنواع المقت، وأشد درجات البغضاء، وقد عز عليهم أن يبقى المسلمون في بعض بلاد الإسلام متمسكين بعقيدتهم محافظين على إيمانهم، فاتجهوا إلى أصل الدين يهاجمونه، وقام أحد النواب في دولة من دول الغرب الكافرين يصيح في مجلس النواب قائلاً: (لا سلام في العالم ما دام القرآن قائماً يتلوه المسلمون) وهذا الكلام يدل على مدى الضغينة ومقدار الحقد الذي يكنه الأعداء للإسلام وأهله.

ولكن العدو المتربص الذي جرب سائر أسلحة المكر، عجز عن أن يمحو القرآن من الوجود، لأنه كتاب كريم أنزله الله هداية للعالمين وتكفل بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فلما يئس العدو من أن يبدل حرفاً واحداً من القرآن، ولما يئس من قدرته على إبعاد المسلمين عن الاهتداء بهديه، سلك سبيلاً أخرى فيها كثير من الدهاء والخبث، هي أنهم عمدوا إلى نفر من شباب المسلمين قصدوا ديار الغرب لطلب العلم ونيل الشهادات فأدخلوا في نفوسهم كثيراً من الشبهات وملؤوا عقولهم بالأفكار الجديدة التي تمثل الحياة المادية الخالية من الروح، وبهذا مسخوا عقولهم وأفسدوا نفوسهم، فعاد هؤلاء إلى بلادهم المسلمة وصاروا فيها دعاةً للأفكار الضالة،

والتيارات الفاسدة والعقائد المنحرفة والمذاهب الهدامة، وراحوا يجاهرون بنقد المبادىء الإسلامية وعجزها عن مسايرة موكب الحضارة والثقافة والعلم، وكانت النتيجة أن هؤلاء النفر استطاعوا الوصول إلى المناصب العليا في بلادهم، وألقيت إليهم مقاليد الأمور في بعض البلاد الإسلامية، فأصبحت القوانين التي يُحكم بها في تلك البلاد غير مشتقة من كتاب الله تعالى ولا مأخوذة من سنة الرسول ﷺ، ولكنها مأخوذةٌ من أنظمة الغرب الذي يعادي الإسلام وأهله.

وبهذا انتقل الوضع من احتلالٍ للبلاد بقوة السلاح، إلى احتلالٍ للعقول بالتشكيك، واحتلال النفوس بالانحلال، واحتلال القلوب بالفساد والضعف والكفر، ولا ريب أن الاحتلال الأخيرأشد وطأةً وأخطر أثراً وأبعد ضرراً.

وفي سبيل جهاد الأعداء وردِّ كيدهم وإحباط مكرهم، لا بد من تحرير العقول والنفوس من استعمار الأفكار والمبادىء الهدامة ومحو ما ران عليها من الضلالات والأباطيل كي تُمْكن إعادتها إلى حظيرة الإيمان بعد تنظيفها من سموم الكفر والضلال.

التعاون في الإسلام

الدين الإسلامي يعترف بوجود الأغنياء والفقراء في الأمة الواحدة في الزمن الواحد، ولا يرى في ذلك غضاضةً ولا ظلماً، فهذه هي سنة الحياة وطبيعتها منذ خلق الله البشر إلى يومنا هذا، والإسلام لا يعارض الملكية الفردية، ولكنه يحيطها بسياجٍ من القيود والحدود يحول دون ظهور طبقةٍ غنيةٍ عاطلةٍ عن العمل تتجر بالمال فقط، ومن جملة القيود الزكاة المفروضة التي جعلت للفقير حقاً معلوماً في مال الغني، وتحريم الربا الذي يؤدي إلى تجمع الأموال العاطلة في أيدي الأغنياء دون أن تستثمر. وتحريم الاحتكار في سائر صوره وأشكاله وهو أن تتجمع البضائع في أيدي فئةٍ معينةٍ وتكديسها في المخازن بقصد رفع أسعارها، أو إتلافها كما تفعل بعض الدول حين تقذف بكمياتٍ كبيرةٍ من الأغذية في البحر لرفع الأسعار في الأسواق العالمية وحرمان الفقراء والمعوزين من الاستفادة منها، ومثل ذلك كنز سبائك الذهب في أسواق الصاغة وفي خزائن الأغنياء.

فالإسلام منع ذلك كله وأوجب الزكاة وحض على بذل الصدقات والمعونات وحث الأغنياء على مد أيديهم إلى الفقراء يعينونهم ويواسونهم بشيءٍ من المال الذي جعله الله سبحانه في أيديهم، كي يتحقق مبدأ التعاون بين الفريقين، وأوجد الإسلام نظام الوقف الخيري وهو عبارةٌ عن نقل جزءٍ من ملكية الأفراد يزيد عن حاجتهم إلى المصالح العامة وأصحاب الحاجة، وبهذا تؤجر الأرض الموقوفة أو البناء، وتصرف الأجرة على الفقراء والمعوزين

والمساجد والمدارس والمشافي ودور الكتب وطلبة العلم، وقد انتشرت الأوقاف الخيرية في البلاد الإسلامية وكان لها أثرٌ بارزٌ في سد حاجة المحتاجين ونشر االعلم وخدمة المصالح العامة في االأمة.

والمالك مسؤولٌ عن الفلاحين والعمال الذين يعملون عنده عملاً بالمبدأ الذي يقول: كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، فهو مكلفٌ بتأمين أرزاقهم وأقواتهم، وتوفير الراحة لهم وتأمين حاجاتهم ورفع مستوى معيشتهم.

ولا يتمتع الغني بأية ميزةٍ على الفقير فهما سواءٌ أمام النظام العام، وهما أخوان في الحقوق والواجبات، وكل واحدٍ منهما مكلفٌ باحترام زميله والتعاون معه، ولا مجال لتعطيل المال وعدم الانتفاع منه، فالفقير مكلفٌ بالعمل والغنى مكلف بالبذل وبهذا تقوى الرابطة بين أفراد الأمة فلا يطغى الغني ولا يتجبر، ولا يتكاسل الفقير اعتماداً على المعونات والصدقات.

الأشهر الحرم

سُمّي شهر محرم الحرام لأنه من الأشهر الحرم وهي أربعةٌ ثلاثةٌ منها متوالية هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحدٌ منفردٌ وهو رجبٌ ويسمى رجب الفرد، وقد سميت بالأشهر الحرم لأن العرب في الجاهلية كانت تعظمها وتحرم فيها القتال حتى لو أن أحدهم لقي قاتل أبيه وابنه وأخيه فيها ما تعرض له، فلما جاء الإسلام زادها حرمةً وتعظيماً، وقيل إن الحسنات والطاعات فيها تتضاعف وتكون السيئات فيها أشد من غيرها ولا يجوز انتهاك حرمة هذه الأشهر.

روى البخاري ومسلمٌ عن أبي بكرٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعةٌ حرمٌ ثلاثٌ متوالياتٌ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان أي شهر هذا؟» قلنا الله ورسولـه أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا بلى. قال: «أي بلدٍ هذا؟» قلنا الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس البلد الحرام؟» قلنا بلى. قال: «فأي يومٍ هذا؟» قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا بلى قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعضٍ ألا ليبلغ

الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه»، ثم قال: «ألا هل بلغت ألا هل بلغت» قالوا: نعم قال: «اللهم اشهد».

وقد بحث العلماء في وجه الحكمة في تخصيص بعض الأشهر دون بعضٍ بمزيد التشريف والتعظيم وتخصيص بعض الأمكنة كذلك، فقالوا: إن الله سبحانه خصها بذلك ليمتنع الإنسان فيها عن فعل الظلم والقبائح والمنكرات فربما صار تركها عادةً له في باقي الأوقات ويؤدي ذلك إلى صلاحه واستقامته.

واليوم العاشر من المحرم يسمى يوم عاشوراء وكان النبي ﷺ يصومه ويتحرى صومه على سائر الأيام ولما قدم المدينة وجد اليهود تصومه وتعظمه فقال: «نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه» وذلك قبل أن يفرض رمضان فلما فرض رمضان قال: «من شاء صامه ومن شاء تركه» وقال: «إن بقيت إلى قابلٍ لأصومن التاسع»، وذلك لمخالفة اليهود والله أعلم.

بلاغة القرآن

القرآن الكريم هو الذروة في البلاغة، والمثل الأعلى في الفصاحة، وقد تحدى به النبي ﷺ العرب الفصحاء فأعجزهم، ومن عرف أسرار العربية وأساليبها استطاع أن يتـذوق طعم بلاغته ولطيف كنايته، انظر إلى قوله تعالى في نساء الجنة: ﴿ فيهنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لم يَطمِثْهُنّ إنْسٌ قبلَهُمْ ولا جَانٌ ﴾ وقاصرات الطرف هن النساء اللواتي قصرن أعينهن على أزواجهن، فلا ترى الواحدة منهن غير زوجها، ووردت أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وعِندَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عينٌ كأنهنّ بَيْضٌ مَكنون ﴾ أي مستوراتٌ ومصوناتٌ مثل بطن البيضة قبل تقشيرها وقبل أن تمسها الأيدي، ومن عادة العرب أنهم يشبهون المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها.

وانظر إلى قوله تعالى في وصف النساء أيضاً: ﴿ أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحِلْيةِ وهو في الخصامِ غيرُ مُبين ﴾ فالمرأة تنشأ في الزينة وتخطر في الحلي من الذهب والحرير التي رخص الله بها للنساء، وقد خلقها الله ناعمةً لينةً، ليست لها خشونة الرجل ولا قسوته، ولا تحتمل الخصام الذي يحتمله الرجل وخاصةً في قوة بدنه، وفي منطقه وقوة حجته، وإذا نظرنا إلى المؤتمرات العامة في المحافل والمجتمعات استطعنا أن نميز قوة المنطق عند الرجال وتقصير المرأة في هذا المجال مهما كانت شهاداتها ودراساتها.

وانظر إلى هذه الكناية اللطيفة في قوله تعالى: ﴿ ما المسيحُ بنُ مريمَ إلّا رسولٌ قد خَلَتْ مِن قَبْلِه الرُسُلُ وأُمُّه صِدِّيقَةٌ كانا يأكلانِ الطعامَ ﴾ زعمت

النصارى أن الله هو المسيح بن مريم وجعلته رباً فرد الله سبحانه عليهم بأنه رسولٌ قد خلت من قبله الرسل، وأنه بشرٌ يأكل، وكل من يأكل ويشرب يبول ويتغوط، فكنى عن البول والغائط بقوله كانا يأكلان الطعام، ومن كان هذا شأنه فكيف يكون رباً؟.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ وإنْ كُنتمْ مَرْضىٰ أو على سَفَرٍ أو جاء أحَدٌ منكمْ مِن الغائِطِ ﴾ والغائط هو ما انخفض من الأرض وكانت العرب تقصد المواضع المنخفضة طلباً لقضاء الحاجة يستترون بذلك عن أعين الناس ثم سمي الحدث الذي يخرج من الإنسان غائطاً، ففي الآية كناية لطيفةٌ عن الحاجة إلى الوضوء بعد الحدث.

وانظر إلى قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام حين حطم الأصنام فقال له المشركون ﴿ أأنتَ فعَلْتَ هذا بآلِهَتِنا يا إبْرَاهيم؟ قال بَلْ فَعَله كبيرُهمْ هذا فاسْألوهمْ إنْ كانوا ينطِقون ﴾، وقصد من قوله هذا أن من لا يتكلم ولا يعلم ولا يحس لا يستحق أن يعبد، وهذا القول يعتبر من المعاريض، وفيها مندوحةٌ عن الكذب والله أعلم.

إلى الموظفين

الوظيفة عقدٌ بين الدوْلة والموظف، على أن يعمل عملاً لقاء أجرٍ، وهو ملزمٌ بتنفيذ العقد في حدود قدرته واستطاعته باذلاً جهده في ذلك، لأن الدولة قد ائتمنته عليه، والأمانة حملٌ ثقيلٌ ينوء به صاحب الوجدان الصادق والضمير الحي، وقد عرضها الله سبحانه على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً.

والموظف مسؤولٌ عن إتقان عمله أمام ربه قبل أن يكون مسؤولاً عنه أمام رؤسائه، وقد يقصر فيه في غفلةٍ من رؤسائه فيظن أنه نجا من العقوبة، ولكنه ينسى أن الله مطلعٌ عليه وأنه لن ينجو من العقوبة في الآخرة.

والوظيفة تتطلب معرفةً وعلماً وخبرةً، وتتطلب إلى جانب ذلك قوةً وعزيمةً وضميراً متيقظاً فليس من المقبول أن يستلم الموظف عملاً لا يحسنه ولا يعرف مداخله ومخارجه، ومن الواجب عليه أن يتعلم طريقة تنفيذه والقيام به وأن يسأل زملاءه وأهل الخبرة فيه يسترشدهم ويتعلم منهم لأن العلم بالتعلم، وليس المرء يولد عالماً كما يقول الشاعر، وقد أشار الله سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لَا تَعْلَمُون﴾، وأهل الذكر هم أهل الخبرة والمعرفة في الأمور، فإذا اقترن التعلم بالهمة الصادقة والعزيمة استطاع الموظف أن يلم بطبيعة عمله وأن يتقنه الإتقان المطلوب.

ونحن نرى بعض الموظفين لا يشغل بال أحدهم إلا التفكير في الراتب والترفيع والعلاوة، وينظر إلى الوظيفة على أنها وسيلةٌ من وسائل العيش

وطريقةٌ من طرق كسب المال ولا يبالي من بعد ذلك أقام بعمله على الوجه المطلوب منه أم أنه قصر فيه وتقاعس وأهمل تنفيذه، مع أن هذا الأمر يعتبر في حقيقته خيانةً سوف يعاقب عليها في الآخرة ولو لم يعاقب عليها في الدنيا.

ورد في الحديث الشريف أن أبا ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر، إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامةٌ إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها» رواه البخاري في صحيحه. وبما أنه من القليل النادر أن تجتمع الأمانة والقوة في نفس رجلٍ واحدٍ فقال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة، وقد جاء في القرآن الكريم حكايةً لقول ابنة شعيبٍ عليه السلام عن موسى عليه السلام بعد أن استقى لها من البئر وسار أمامها، قوله تعالى: ﴿ قالَتْ إحداهُما يا أَبَتِ اسْتأجِرْه إنّ خيرَ مَنِ اسْتأجَرْتَ القويُّ الأمينُ ﴾ صدق الله العظيم.

العجلة من الشيطان

لما وقع حادث التصادم بين السيارتين بسبب السرعة التي كان يسير بها السائق قال لي صاحبي: لقد صدق الذي قال إن العجلة من الشيطان فقلت له: صدقت إن العجلة لا تأتي بخيرٍ لأنها دليلٌ على الطيش والتهور، وقد وصف الله سبحانه ابن آدم بأن العجلة مركبةٌ في طبعه قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الإِنسانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[1] وقال في موضع آخر: ﴿ وكان الإنسانُ عجولاً ﴾ أي أنه ركب في طبيعته على العجلة وفطر عليها، فهو يستعجل كثيراً من الأشياء ولو عرف أن بعضها يضره ويؤذيه ولكنه يستعجلها بطبعه.

وهناك قاعدةٌ شرعيةٌ تقول (من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه) مثال ذلك أن يكون للإنسان عمٌّ معدودٌ من الأغنياء الموسرين وهو يرثه إذا مات، فلا ينتظر هذا الإنسان وفاة عمه ويقول في نفسه ربما تأخر موت عمي وأنا في حاجةٍ إلى المال فيوسوس له الشيطان ويزين له قتل عمه فيقتله، فيكون عمله وبالاً عليه لأنه يحرم من إرثه بسبب القتل، هذا فضلاً عن العقوبة في الدنيا وفي الآخرة.

وهناك فرقٌ بين العجلة والسرعة، فالسرعة محمودةٌ لأنك تسرع إلى الصلاة في أول وقتها وتسرع إلى تأدية كل واجبٍ عليك، والعجلة هي أن

---

(١) والعجل أيضاً الطين.

تقدم على فعل الشيء قبل وقته وهي مذمومةٌ غالباً، ونقول غالباً لأنها أحياناً تكون محمودةً.

قال حاتمٌ الأصم: العجلة من الشيطان إلا في خمسة مواضع تكون فيها من سنة رسول الله ﷺ وهذه المواضع الخمسة هي: إطعام الضيف، وتجهيز الميت، وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب.

وهذا كلامٌ جميلٌ لأن هذه الخمسة التي ذكرها يستحب التعجيل فيها. قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»، وسئل عن الإيمان فقال: «إطعام الطعام وبذل السلام» وتعجيل الطعام من آداب الضيافة، ولما رأى إبراهيم عليه السلام الضيوف عنده أسرع إلى تقديم الطعام إليهم قال الله تعالى عنه: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

والتعجيل بالتوبة أيضاً مطلوبٌ، قال ﷺ: «واتبع السيئة الحسنة تمحها»، والعبد لا يستغني عن محو آثار السيئات التي تصدر عنه كل يوم، والعاقل إذا ضيع جوهرةً نفسيةً كانت عنده حزن على فقدها حزناً شديداً، ويكون حزنه أشد إذا فجأه الموت قبل أن يتوب من ذنوبه.

وكذلك التعجيل في قضاء الدين مطلوبٌ خوفاً من مباغتة الأجل، وشكراً للدائن الذي ساعدك وأعانك في وقت الضيق فعليك أن تشكره بوفاء الدين.

ومثل ذلك التعجيل في تزويج البكر قبل أن تفوت الفرصة، وكذلك تجهيز الميت والله أعلم.

الصبر على المكاره

يتمنى المرء في هذه الحياة أن تجري الأمور وفق هواه وحسب رغباته، ولكن أمنيته هذه بعيدة المنال لأنه يرى ما يحب وما لا يحب ويمر به من الحوادث ما يرغب فيه ويميل إليه وما يكرهه وينفر عنه لأن الدنيا لا تصفو لأحدٍ، أما المؤمن فإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، فهو في أحواله كلها مطمئن النفس راضٍ بما قدره الله عليه، وهو يعلم أن ما قدره الله واقعٌ لا محالة فهو مستعدٌّ له قبل وقوعه. وأما الكافر فهو لا يعرف للشكر معنىً لأنه يظن أن ما به من نعمةٍ هو بسبب نشاطه وسعيه وقدرته، وهو لا يصبر على المصائب لفقدان الإيمان من قلبه.

وأفضل الصبر هو الصبر عن المعاصي، ثم الصبر على الطاعات، ثم الصبر على المصائب والمكاره. أما المعاصي فقد جمع الله أنواعها في قوله: ﴿ وينْهىٰ عن الفَحشاء والمُنكرِ والبَغْي ﴾، والفحشاء هي كل قبيحٍ من قولٍ أو فعلٍ، كالكذب والغيبة والمراء والنفاق وما أنكره الشرع من الفواحش، وبما أن النفس تميل بطبيعتها إلى مثل ذلك ويثقل عليها تركه كان لها الثواب في اجتنابه. والبغي هو الظلم والتعدي وقد خصه الله تعالى بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره وجاء في بعض الكتب المنزلة: لو بغى جبلٌ على جبلٍ لجعل الباغي منهما دكاً. وإن الأنبياء والمرسلين هم قدوتنا في الصبر، فقد لاقوا من الأذى والتعدي الشيء الكثير ولكنهم صبروا بنفوسٍ تفيض بالإيمان. قال تعالى: ﴿ فاصبِرْ كما صَبَرَ أُولو العَزْمِ مِن الرُسُل ﴾ وهم ستّةٌ: نوح صبر على

أذىٰ قومِه أمداً طويلاً، وإبراهيم صبر على النار، ويوسُف صبر على البئر والسجن، وأيّوبُ صبر على الضُرِّ، وإسحاق صبر على الذبْح، ويَعقوب صبر على فقد الوَلَد وذهاب البصر.

أما الطاعات كالصلاة فإنها تتطلب جهداً، ويحتاج العبد إلى الصبر عليها لأن النفس مفطورةٌ على حب الكسل والإخلاد إلى الراحة ومفطورة على حب المال ويحتاج العبد إلى الصبر على إخراج ماله في الصدقات والزكاة والنفقات.

أما المصائب والمكاره، فإن المؤمن يصبر عليها ويقابلها بالرضا والتسليم وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون ويقول: إن لله ما أخذ ولله ما أعطى، أما الجزع فليس من الإيمان في شيءٍ، والذي ينخلع قلبه عند نزول المصيبة به وتتفطر نفسه أسىً وحسرةً ويطيش صوابه ويدعو بدعوى الجاهلية فهو جبان القلب بعيدٌ عن صفات المؤمنين الذين يثبتون عند المصائب ولا يدفعهم الحزن إلى التسخط مقتدين بذلك بسيد المرسلين حال وفاة ولده إبراهيم فقد دمعت عيناه، فلما قال له عبد الرحمن بن عوفٍ: وأنت يا رسول الله؟ أجابه قائلاً: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا».

بين الروح والبدن

الحرص على سلامة الأبدان حسنٌ ومطلوبٌ، لأن العقل السليم في الجسم السليم، ولأن الجسد مطية الروح فإذا أهمل صاحب المطية مطيته وترك العناية بها تعبت وكلّت ولم يعُد ينتفع بها، وقد أمر الله سبحانه بالعناية بالبدن وخلق له أنواع البقول والفاكهة واللحوم يتغذى بها كي يتقوى بذلك على طاعة ربه، قال تعالى: ﴿كُلوا من الطّيباتِ واعملوا صالِحاً﴾ حتى إن بعض السلف كان يقول إن الأكل من الدين.

ولكن هل يعذر المؤمن إذا اعتنى ببدنه وأهمل العناية بروحه وترك العمل بما يصلح قلبه؟ أليس الإنسان مركباً من جسمٍ وروحٍ فلماذا يعتني ببعضه ويترك العناية ببعضه الآخر؟ إذا كان الجسم معرضاً للإصابة بأنواع الأسقام والأمراض، فإن القلب أيضاً معرضٌ للإصابة بعللٍ من نوعٍ آخر، وهو مطالبٌ بعرضه على أطباء القلوب يفتشون عن علاجٍ ناجعٍ يزيل علته.

روى مسلمٌ في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ـ يعني النقطة ـ. . . إلى أن قال فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبةٍ من خردلٍ من إيمانٍ»، أو كما قال.

وليس من الصعب مداواة القلب إذا صح العزم وقويت الإرادة وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «حسنوا أخلاقكم» ويكون ذلك بالمجاهدة والتدريب والرياضة عليه، ولا شك أن المرء يجد صعوبةً في أول الأمر في التخلق بالأخلاق الفاضلة ولكنه إذا ثبت وداوم على مطالبة نفسه بها وواظب عليها مع تحمل المشقة أدى به الأمر أخيراً إلى أن يصير ذلك الخلق الكريم طبعاً له، ولا ترسخ الأخلاق الكريمة في النفس إلا بالمواظبة عليها بنيةٍ صادقةٍ حتى يصل صاحبها إلى حالةٍ يشعر فيها بلذتها وحلاوتها، والنفس تستلذ المعاصي والمنكرات بالمداومة عليها فلماذا لا تستلذ الفضائل بالمداومة عليها.

وإن مجالسة العلماء والصالحين تعطي أثرها المطلوب في تربية الروح وترقيق القلب وقد كان للشيوخ الأولين من أجدادنا الصالحين الفضل الكبير في إصلاح نفوس الناشئة وتربية قلوبهم على البر والصلاح والتقوى.

أعيادنا وأعيادهم

كان رئيس التحرير في إحدى الصحف موفقاً في وصف احتفال أهل الغرب النصارى بعيد الميلاد عندهم ومقارنته باحتفال المسلمين بعيدهم، وشتّان ما بينهما، فتلك أعياد لهو وفسق وفجور، وهذه أعياد طاعة وتواصل وتراحم وصلة رحم ومودّة.

للمسلمين عيدان في السنة: عيد الفطر وعيد الأضحى، يأتي كل منهما ختاماً لعبادة، فالعبادة الأولى هي صوم رمضان وإحياء لياليه بصلاة التراويح وقيام الليل، فإذا انقضى هذا الشهر المبارك جاءت أيام عيد الفطر التي يفرح المسلمون فيها ويحمدون الله سبحانه على أن وفقهم للصيام وأعانهم عليه.

والعبادة الثانية هي الحج إلى بيت الله الحرام ومشاركة الحجاج في أداء المناسك والإكثار من الصلاة والدعاء والاستغفار وذبح الهدي والصدقة على الفقراء والمساكين، فإذا انقضى يوم الوقوف في عرفات بدأت أيام عيد الأضحى وهو عيد يفرح فيه المسلمون ويحمدون الله سبحانه على أن وفّقهم لأداء المناسك.

وكيف يكون الاحتفال بالعيد؟ يبدأ المسلمون بالاجتماع لأداء صلاة العيد صباح أول يوم منه، ثم يؤدون زكاة الفطر للفقراء ثم تبدأ الزيارات للأهل والجيران والأصحاب.. فما أجمله من عيد يقضيه المسلم في عبادة ربه فيطمئن قلبه وتمتلىء نفسه بالإيمان واليقين، ويمدّ يده إلى أخيه الفقير بالمال ليستطيع مشاركته بالفرحة فيحسّ الفقير في أعماق نفسه بالغبطة والرضى ويشعر بحقيقة الأخوة الإسلامية التي يصورها الحديث الصحيح أبلغ تصوير إذ يقول: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم مثَل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر» ثم يصل المسلم رحمه في أيام العيد ويزور جيرانه وأصحابه للحفاظ على حقوق الرحم والجوار ولتقوية رابطة الأخوة بين أفراد المجتمع، وينال الأطفال من هذا التعاطف أوفى نصيب، حيث تمتلىء جيوبهم بالدراهم فينطلقون على سجاياهم ويسرحون ويمرحون ويشترون ما يحلو لهم من المطعم والمشرب والألعاب، وبهذا يعمّ الفرح والسرور سائر الطبقات وتظلهم السعادة بثوبها الجميل وظلها الظليل.

فإذا قارنّا هذه الصورة الجميلة الطاهرة البريئة بصورة العيد عند غير المسلمين من أهل الغرب النصارى رأينا مشهداً آخر يختلف في جوهره ومظهره، فنحن لا نجد

ارتباطاً بين العيد والعبادة عندهم، وقد يقول قائل أنهم يجتمعون في الكنيسة للصلاة فنقول له أنهم يزعمون أنهم يحتلفون بذكر ميلاد السيد المسيح عليه الصلاة والسلام وهم يخالفونه فيما أمرهم به ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبكم﴾ ويتخذونه إلَهاً أو ثالث ثلاثة ويفصلون الدين عن الدنيا ويحصرونه بعقائد وأفعال لا تمتّ إلى دين التوحيد بصلة ويجعلون رؤساء دينهم شفعاء ووسطاء.

ولو نظرت إلى احتفالهم بعيد الميلاد وأمثاله لعرفتَ أنه دنيوي ليست له هذه الصفة الروحية التي تبدو فيها أعياد المسلمين، وإذا كانت أعيادنا تتّسِم بالطاعة والرحمة والشفقة والمودّة والتعاطف فإن الصفة الغالبة على أعيادهم هي السعي وراء الملذات والشهوات وإطلاق النفوس على هواها وتحريرها من قيود العفة والفضيلة والمروءة والحياء. فهم لا يتورعون عن حضور حفلات الغناء واللهو واختلاط الرجال بالنساء الكاسيات العاريات المتبرجات ومراقصتهن بشكل فاضح يشمئز منه مَن كان في نفسه مثقال ذرّة من حياء، ويشربون الخمور حتى الثمالة فإذا صرعتهم وأصبحوا سكارى أطفأوا الأنوار واختلط حابلهم بنابلهم، فظُنَّ آنئذٍ شراً ولا تسأل عن الخبر.

ولقد كانت ولادة المسيح عليه الصلاة والسلام هداية ورحمة للبشر لانتشالهم من ظلام الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، وأرسله الله سبحانه، كما أرسل الأنبياء من قبله لدلالة الناس على طريق الحق والهدىٰ وليملأ الدنيا عدلاً كما ملئت ظلماً، فخالف هؤلاء الناس أوامره وراحوا يحتفلون بذكرى ميلاده بهذا الشكل المخزي الذي صوّره لهم الشيطان.

وإن أعجب فعجبي لنفر من المسلمين الذين يشاركون هؤلاء في احتفالاتهم الفاجرة ولا يردعهم عن ذلك دين ولا خلق، ثم طلعوا علينا بهذه البدعة الجديدة بدعة (أعياد الميلاد) فترى كثيراً من العائلات لدينا يقام فيهم عيد ميلاد أحد أفراد الأسرة ويوقدون شموعاً بعدد سنيّ عمره ثم يطفؤونها بعد احتفال يقلّدون فيه النصارى، مع أن العاقل يفخر بما عمل من خير وبرّ وطاعة ويحرص على الاستكثار منها ومن سائر القربات، وما قيمة الاحتفال بسنوات العمر الفارغة التي لم تنفع صاحبها ولم تقدّم خدمة للمجتمع؟ وأذكر بهذه المناسبة أن سائحاً زار بلاد الصين فوجد كتابات على القبور تقول: هذا قبر فلان عاش ثلاث سنوات وهذا قبر فلان عاش خمس سنوات فعجب لذلك وسأل بعض أهلها فقالوا له إننا لا نحسب من أيام عمر أحدنا سوىٰ الأيام التي قدّم فيها خيراً لنفسه وللمجتمع ونُسقط الباقي من أيام عمره فلا نحسبها، ويذكرني هذا بقول الشاعر:

إذا مَـرَّ بي يوم ولم أتّخذ يداً ولم أستفد علماً فما ذاك من عمري

الكلام والصمت

بحث الناس من قديم الزمان في الكلام ومواضعه وفي الصمت ومواضعه ودعا كثير من الوعاظ وعلماء الأخلاق إلى الإقلال من الكلام وتفضيل الصمت، وحفلت كتب الصوفية بذم الكلام، وقالوا إن السكوت أدعى إلى الفوز والنجاة والسلامة وأوردوا الشواهد على ذلك.

وجاء قوم آخرون فضَّلوا الكلام وأنزلوه المنزلة الأولى، وأنا لا أشك في أن الكلام هو الأصل وأوضح دليل على ذلك أن الصمت يوصف بالكلام، ولا يوصف الكلام بالصمت، وبالكلام أرسل الله سبحانه أنبياءه ورسله، وذكر الله عز وجل نبيه داود عليه السلام بقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطابِ﴾ وتذاكر بعض الأدباء مرةً في مجلس أبي مسهر وتطرقوا إلى موضوع الكلام والصمت فقال أبو مسهر: ليس النجم كالقمر، إنك تمدح السكوت بالكلام ولا تمدح الكلام بالسكوت وما عُبِّر به عن شيءٍ فهو أكبر منه ويعجبني قول بعض العلماء: ما أعلم في الدنيا شيئاً من البيوع يستطاع شراؤه بالسكوت ولا حزمة بقل مع أنه يستطاع شراء الجنة من رب العالمين بالكلام الذي هو ذكر الله وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولكن هذه الأقوال لا تعني تفضيل الكلام في كل زمان ومكان، والتفضيل إنما يكون للكلام البليغ الصادق الصائب المسدد، أما الكلام الباطل المرذول السخيف فلا شك أن الصمت خير منه.

روى المؤرخون أن رجلاً تكلم بين يدي معاوية رضي الله عنه فهذر، فلما أطال قال: يا أمير المؤمنين أأسكت؟ فقال له: وهل تكلمت؟ ثم أقبل على جلسائه فقال: أما ترون هذا يعثر في كلامه بلسانه ويعثر لسانه بكلامه؟

والإنسان حيوانٌ ناطقٌ وقد فضَّله الله سبحانه على كثير من مخلوقاته بهذا اللسان ورفع الله منزلة اللسان على سائر الجوارح، ولكن اللسان له آفات كثيرة كالجدال والمراء والفحش والبذاءة والطعن واللعن والسخرية والاستهزاء والخوض في الباطل، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ قوله: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟».

قال أبو حاتم البستي: ما أكثر من ندم إذا نطق، وما أقل من يندم إذا سكت. ومنه أخذ الشاعر قوله:

ما إن ندمت على سكوتي مرة　　ولقد ندمت على الكلام مرارا

وقال عمر رضي الله عنه: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه. وهذا كما قلنا يصح في الكلام الفاسد الفارغ، أما الكلام النافع الصالح فلا يكره الإكثار منه.

واجب الشكر

إذا أسدى إليك أحد معروفاً أو أعانك في أمر فمن الواجب عليك أن تشكره على معروفه والشكر هو الاعتراف بالنعمة والإقرار بالفضل، ومن أحق من الله سبحانه بالحمد والشكر وهو الذي تفضل على عباده بأنواع النعم التي لا تعد ولا تحصى، ولا تدوم النعم إلا إذا أدى صاحبها حق شكرها والله سبحانه يحب عبده الشاكر. قال تعالى: ﴿وسَيَجْزِي اللهُ الشَاكِرِينَ﴾ وقال سبحانه: ﴿وكُنْ مِنَ الشَاكِرِين﴾.

وكان النبي ﷺ يقوم حتى تورمت قدماه فقيل له: يا رسول الله أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: «أفلا أكون عبداً شكورا؟» وورد في الحديث أنَّ رجلاً قال في الصلاة خلف رسول الله ﷺ: اللهم ربنا لك الحمد حمداً مباركاً طيباً زكياً، فلما انصرف النبي ﷺ قال: «أيكم صاحب الكلمة؟» قال أحدهم: أنا يا رسول الله فقال: «لقد رأيت سبعة وثلاثين ملكاً يبتدرون أيهم يكتبها أوّلاً». وقد أمرنا الله سبحانه أن نشكر نعمه فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث﴾، لأن التحدث بالنعمة شكر لها. قال الحسن بن علي رضي الله عنه: إذا عملت خيراً فحدث به إخوانك ليقتدوا بك، ولكن يُشترط في ذلك الابتعاد عن الرياء والمباهاة.

وهناك سجدة تسمى (سجدة الشكر) فإذا رأى العبد أن الله سبحانه رزقه مالاً أو يسّر له وظيفةً أو عملاً أو وهب له ولداً، أو وجد شيئاً ضائعاً كان يفتش

عنه، أو شفى الله له مريضاً أو قدم عليه غائب أو خلصه الله سبحانه من ضيق أو أذىً أو مصيبة أو دفع عنه نقمةً أو اعتداءً من ظالم فيستحب له في هذه الحالات وأمثالها أن يسجد للّه شكراً على ذلك مستقبلاً القبلة يسبح الله ويحمده كما يفعل في سجدة التلاوة. وهذه السجدة اعتراف من العبد لربه بالفضل وإقرار بالنعمة. قال تعالى: ﴿إعملوا آلَ داودَ شُكراً وقليلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور﴾، وجاء في الأثر: إن المؤمن ليشبع من الطعام فيحمد الله تعالى فيعطيه من الأجر ما يعطي الصائم القائم، إن الله شاكر يحب الشاكـرين.

قال أبو هارون: دخلت على أبي حازم فقلت له: يرحمك الله ما شكر العينين قال: إذا رأيت بهما خيراً ذكرته وإذا رأيت بهما شراً سترته. قلت: فما شكر الأذنين قال إذا سمعت بهما خيراً حفظته وإذا سمعت بهما شراً نسيته.

وإذا أراد الغني أن يشكر الله سبحانه فلا يكفي أن يحمد الله بلسانه بل لا بد له من أن يؤدي زكاة ماله ويجود على الفقراء والمحتاجين بشيءٍ من المال الذي أنعم الله به عليه وبهذا تظهر ثمرة الشكر الحقيقي وتتجلى حكمته وفائدته.

دفاع عن اللغة العربية

إنّ كل أمة من الأمم تعتز بلغتها وتفخر بها وتعنى بها وتلزم أبناءها بتعلمها وإتقانها والعناية بها، ونحن المسلمين أحق الناس بتعلم اللغة العربية والإحاطة بقواعدها ومعرفة علومها وفهم ألفاظها وتراكيبها وأساليبها لأنها لغة القرآن الذي نتعبد الله بتلاوته ومعرفة أحكامه.

فالقرآن عربي، والرسول ﷺ عربي، ولسان أهل الجنة عربي. قال تعالى: ﴿قُرآناً عربيّاً غيرَ ذي عِوَجٍ﴾، وقال: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عربيٌّ مبين﴾، فمن الواجب على كل مسلم أن يتقن اللغة العربية ويبذل جهده في تعلمها، ولا يعذر بجهلها، قال ابن شبرمة: إذا سرك أن تعظم في عين من كنت في عينه صغيراً فتعلم العربية، وقالوا: إن الأعراب هو حلية الكلام. وقال مسلمة بن عبد الملك إنّ اللحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه. ودخل رجل على زياد فقال: إن أبينا هلك وإن أخينا غصبنا على الميراث فقال له زياد: ما ضيعت في نفسك أكثر مما ضاع من مالك. وقيل للحسن البصري: يا أبا سعيد، الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته قال حسن: يا ابن أخي فتعلمها فإن الرجل يقرأ الآية من القرآن فيعْيَى بوجهها فيهلك فيها.

وقد كان أجدادنا يولون اللغة كثيراً من عنايتهم وكانوا يسلمون أولادهم إلى الفصحاء من المربين والمعلمين كي يتلقى الولد اللغة الفصيحة التي لم يدخلها اللحن، ونحن نهيب بالشباب المسلم أن يتعلم قواعد اللغة بإرادةٍ

صادقة وهمة بالغة، فقد فشا اللحن في الكلام وفي لغة الدواوين بين كثير من الموظفين، وفي الصحف والمجلات، وانتشر الضعف وكثرت الأخطاء، ومن الأسباب التي أدت إلى هذا الضعف انصراف أكثر الشباب إلى دراسة اللغات الأجنبية رغبةً منهم في الاستفادة منها عند بلوغهم مرحلة التخصص التي تعقب المرحلة الجامعية، ونحن لا ننكر عليهم تعلمها، ولكننا نربأ بهم أن يكون ذلك على حساب لغتهم العربية، فالرجل العاقل يبذل جهده لإتقان لغته قبل أن يقبل على تعلم لغةٍ أجنبيةٍ عنه وإن مادّة اللغة العربية في أَمَسِّ الحاجة إلى مدرسين أكفاء قد أتقنوها نطقاً وكتابـة وأتقنوا قواعدها وأوجه الإعراب فيها، ولا بد إلى جانب هذا من اختيار طريقةٍ للتعلم سهلةٍ وواضحة مع كثرة التمارين والمداومة على قراءة أمهات الكتب الأدبية، ولا يحسن التساهل مع الطلاب في ذلك، ويجب أن تُعْطى اللغة العربية الدرجة الأولى من العناية بين مواد الدراسة الأخرى لأنها هي الأصل في تقويم اللسان والقدرة على البيان والبعد عن اللحن والخطأ.

الجامع والجامعة

لئن كانت الجامعة في هذا العصر، المرحلة العليا للعلم ومحط أنظار طلاب العلم، فإن المسجد الجامع في عصور الإسلام الزاهرة كان الجامعة التي تعج بالعلماء والمتعلمين، وكان المنهل العذب الصافي للثقافة والعلم والمعرفة، ولئن كانت الجامعة اليوم لا تفتح أبوابها إلا لعدد قليل من الطلاب الذين استوفى كل واحد منهم الشروط المطلوبة منه، فإن المسجد الجامع كان مفتح الأبواب لكل من يقصده من الناس على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم وأجناسهم، وكان مُلتقى الناس جميعاً يتعلم فيه الطالب أنواع الثقافة في مراحلها الثلاث الابتدائية والثانوية والجامعية. فكان الداخل إليه يرى حلقات العلم الموزعة في أنحائه ولكل حلقةٍ شيخها الذي يقوم بتدريس المادة التي اختُصَّ بها، ولا يمنع أي طالب من الجلوس فيها، وفيها معنى البساطة والتواضع، فالكل جلوسٌ على الأرض، هم وأستاذهم الذي يمثل واسطة العقد فيهم، فالأنظار متجهة إليه، والأسماع مصغية إلى كل كلمة ينطق بها، والقلوب متعلقة به، والعقول تحاول أن تفهم ما يقول.

وكان نظام الحلقات معروفاً في المساجد، ينتظم الطلاب في الحلقة قبل قدوم أستاذهم. فإذا أقبل عليهم بدا عليهم السرور بمجيئه وألقى عليهم السلام فردوا التحية بأحسن منها ثم أخذ في إلقاء دروسه وشرح غوامض المسائل مع الاستشهاد بأقوال العلماء وأهل اللغة وإيراد الأدلة، وناقشه الطلاب فيما غمض عليهم وأجابهم بأجوبةٍ مستفيضة واضحة.

ويبدأ درسه بالبسملة والحمدلة والصلاة والسلام على الرسول الكريم ويدعو لشيوخه ولطلابه ولنفسه ويختم درسه بمثل ذلك، ويجلس على وضوءٍ ويقصد وجه الله ونشر العلم وتربية النشء.

وكانت طرق التدريس متنوعة وأشهرها الرواية وهي أن يتكلم الأستاذ بما يحفظه من ذاكرته، والسماع وهو أن ينشر الكتاب الذي قام بتأليفه فيسمعه الطلاب ويكتبونه عندهم، والإملاء وهو أن يملي عليهم الفوائد الجليلة فيقيدها الطالب ويضبط كل كلمةٍ كما سمعها من أستاذه ويستعين الأستاذ برجل يطلق عليه اسم (المستملي) يقف قائماً ويبلغ الحاضرين لفظ الشيخ وذلك لتفهيم السامعين جميعاً القريب منهم والبعيد، وتكثر في حلقات العلم المناقشات والمناظرات للكشف عن الأدلة وعرض الأقوال.

وقد أنشئت المدارس الكبيرة الواسعة إلى جانب المساجد وخصصت لها الأموال الكثيرة، ولا يزال كثير منها قائماً إلى اليوم يشهد على ماضينا العلمي الناصع.

اللحظة الحاسمة

تمر بالإنسان ومضات روحية خاطفة تضيء جنبات نفسه كما تضيء ومضات البرق أرجاء الكون في سواد الليل الحالك، ولو أن الله سبحانه أراد به الخير واستفاد منها لحولت مجرى حياته من الغفلة إلى اليقظة ومن الضلال إلى الهدى. وهذا هو الذي حدث لكثير من الصحابة حين انتقلوا من الجاهلية إلى الإسلام ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لقد عاش عمر في الجاهلية أعواماً قضاها كما يقضي أي أعرابيٍّ حياته في الصحراء الواسعة يحيا ويموت فيها لا يدري به أحد ولا يترك من بعده أثراً ولا ذكراً، ولولا الإسلام لطوى الزمان اسم عمر كما طوى أسماء الألوف من قبله لم يصل إلينا ذكره ولا علمنا شيئاً من خبره...

ولكنَّ لحظةً من لحظات التوفيق، وومضة من ومضات النور الإلٓهي أشرقت في قلبه فدخل في الإسلام وأصبح بعد ذلك شخصية كبرى كأنما ولد من جديد، شخصية ملأت سمع التاريخ وبصره وامتد ذكرها عبر القرون وذاع اسمها على كل شفة وعلى كل لسان.

وقصة إسلامه مشهورة يعرفها كثير من القراء خلاصتها أنه كان من أشد قريش عداوةً للإسلام وكان صاحب عنجهية وقوة وبطش فلما سمع أن أخته وزوجها قد دخلا في الإسلام ذهب إليهما مغضباً فلما قرع الباب وسمعا صوته فتحت له أخته الباب وخبأت الصحيفة التي كانت تقرأ بها... قال لهما:

ما هذه الهينَمة التي سمعتها عندكم؟ والهينمة هي الصوت الخفي، فقالا: كنا نتحدث فيما بيننا قال: لعلكما قد صبأتما ثم وثب على زوج أخته سعيد بن زيد وضرب به الأرض وجلس على صدره فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فضربها بيده فأدمى وجهها، قالت: يا عدو الله أتضربني؟ إفعل ما بدا لك لقد أسلمنا. أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله. فلما سمع عمر ذلك ندم وقام عن صدر زوجها ورأى الصحيفة فطلب أن يأخذها ليقرأ ما فيها. فرفضت أخته الطلب وقالت له إنك رجس وإن هذا القرآن لا يمسه إلا المطهرون قم فاغتسل، فقام عمر واغتسل كما أمرته وتناول الصحيفة وقرأ: ﴿سبَّح للَّه ما في السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَهُوَ ٱلعَزِيزُ ٱلحَكِيم، لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرض يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِير، هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِن وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيم﴾... إلى أن بلغ قوله تعالى: ﴿إنَّني أنَا اللهُ لا إلَهَ إلَّا أنَا فَاعْبُدْني وأقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْري﴾... فأشرقت في نفسه شعاعة الإيمان وقال دلوني على مكان رسول الله وذهب إليه وأسلم.

وكانت هذه نقطة التحول واللحظة الحاسمة، وفيها ولد عمر بن الخطاب من جديد، لأنه لو مات قبل ذلك لطواه التاريخ ولم يسمع به أحد.

وداع واستقبال

انقضى اليوم عام لحق بركب الأعوام السابقة، وأقبل عام جديد تتفتح له القلوب وتهفو إليه النفوس. انقضى عام كنا قد استقبلناه بالأمس القريب وفرحنا لمقدمه وسميناه جديداً، ولكن الزمان ما لبث أن دار دورته، ودارت معه الأيام يوم يتبعه يوم وشهر يتلوه شهر حتى انقضت الأشهر وتصرمت الأيام وطوت يد الزمان عاماً كاملاً مضى كأن لم يكن، وسوف يمضي هذا العام الجديد الذي نستقبله الآن، ويبقى الزمن في مسيرته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكن إذا رحل العام وانقضت أيامه فهل معنى ذلك أنه ضاع في بحر الفناء فلم يعد أحد يسأل عنه؟ ألا يجدر بنا أن نقف وقفةً قصيرة نتأمل فيها ما لنا وما علينا كما يفعل التاجر حين يراجع حسابه السنوي ويجرد بضاعته ليميز ربحه من خسارته.

إن أيام العمر هي بضاعتنا فإذا فنيت فقد فني رأس المال وتوقفت التجارة ووقع اليأس من الربح.. إنّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ولْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فالأعمال الصالحة هي البضاعة، فإذا غلبت الحسنات السيئات كان الربح والنجاح. فالمسلم يحاسب نفسه في فترات العمر ليزيد من حسناته إذا كان محسناً ويقلع عن سيئاته ويتوب عنها إن كان مسيئاً. قال مالك بن دينار رضي الله عنه: رحم الله عبداً قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا؟ ثم زمَّها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله. وقال

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا.

ومراقبة النفس أشبه شيء بشريط التسجيل، فلو أنك تعلم علم اليقين أن الشريط قد وضع إلى جانبك يسجل كل كلمة ينطق بها لسانك من خير أو شر فإنك في مثل هذه الحال تبقى دائم الاحتراز والانتباه واليقظة ولا تتكلم إلا بعد تفكير وتدبر وبعد أن تزن ما تقوله كي لا يسجل عليك إلا ما تحب وترضى.. فاذكر قول الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد، وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْه تَحِيد، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيد وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيد﴾.

فيا أيها العام الراحل إننا لنعترف بأسفنا وتقصيرنا على أننا لم نستكثر فيك من الخيرات والصالحات ونعلن ندمنا على ما عملنا فيك من سيئات ونصرح بتوبتنا منها.

وأنت أيها العام الجديد نرجو أن تكون بشير خير ورحمة وبركة، وكل عام وأنتم بخير.

ولكم في القصاص حياة

إنّ المجتمع المثالي الفاضل هو الذي ترفرف عليه راية العدل، وتسوده المساواة وتعلو فيه كلمة الحق ويأمن فيه الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم. والعدالة هي الرباط الوثيق الذي يربط ما بين الأفراد والجماعات، وإذا لم تقم العدالة تقطعت الأواصر وانحلت الروابط، ولا بد من وجود رادع قوي زاجر يحمي الحق ويمنع عنه اعتداء الأشرار والمجرمين، وهذا الرادع هو العقوبة الزاجرة التي تقضي على كل معتد آثم وعلى كل من تسول له نفسه العبث بالنظام أو الاعتداء على الناس في أرواحهم أموالهم. قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ في القَصاصِ حَيَاةٌ يَا أولي الألْبَاب﴾.

ما أجملها من آية تجلت فيها روعة البلاغة القرآنية وجمعت في كلمات قليلة مفهوم العدالة الإسلامية فالقصاص هو الميزان الأقوم للعدل، وهو الجزاء الوفاق للجرائم، وليس من المعقول أن نفكر في الرحمة بالجاني ولا نفكر في الألم الذي نزل بالمجني عليه، وما أجمل قول النبي ﷺ في هذا المقام: «من لا يَرحم لا يُرحم» وذلك لأن الرحمة في غير موضعها ظلم مبين واضح، والعدل في ذاته هو الرحمة.

وقد صرح القرآن الكريم بأن الرسالات الماضية جاءت لإقامة القسط بين الناس قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبيِّنات وأنزَلْنَا معَهُمْ الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقِسْطِ﴾ فالقسط هو العدل. وقد كان الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه من أرحم الناس وأعدلهم قال في خطبته: أيها

الناس القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه. والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له. فالتسامح مع المجرم ليس رحمةً لأن فيه نصراً للباطل وهدماً للحق. قال تعالى: ﴿الزَانِيَةُ والزَانِي فاجْلِدُوا كلَ واحدٍ منهمَا مِئَةَ جَلْدةٍ ولا تَأخُذْكمْ بهما رأْفةٌ في دينِ اللَّه﴾.

فلا مكان للرأفة في ردع الجاني ومعاقبة المجرم، وقد شرع الإسلام العقوبات الرادعة للآثمين وجعل أساسها المساواة بين الجرم وعقابه، واعتبر القصاص رحمةً بالناس لتكون حياتهم هادئةً مطمئنة سعيدة لا يعكر صفوها الأذى ولا تعبث بصفائها الآثام، وكل من انتهك حرمة المجتمع كان عضواً فاسداً وجب ردعه وتقويمه، والشرع إنما جاء لحماية الفضائل والذود عنها ولمحاربة الرذائل والقضاء عليها، وجميع الناس أمام أحكام الله سواء فلا فاضل عند ارتكاب الرذائل ولا مفضول ولا كبير ولا صغير، ولا قوي ولا ضعيف، وإن المبدأ الأسمى في هذا الموضوع هو قول نبي الرحمة والهدى ﷺ: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

ذكرى المولد

يستقبل المسلمون في كل عام شهر ربيع الأول، ويستقبلون به ذكرى محببة إلى نفوسهم، هي ذكرى مولد نبي الهدى ورسول الرحمة وأشرف الخلق محمد بن عبد الله ﷺ، تهفو إليها قلوبهم لأنها كانت الحد الفاصل بين ظلام الجاهلية ونور الإسلام، بين الحق والباطل، بين الضلالة والهداية، بين الذلة والعزة. . . لقد كان هذا الشهر الكريم مبعث النور الذي انبعث من غار حراء فأضاء الدنيا وأحال ظلامها الدامس نوراً ساطعاً عم أرجاء الكون وجوانب المعمورة.

كان الكون يموج بأصناف الفتن وأنواع الشرور، وكان الناس يعيشون في جاهلية عمياء، يبطش قويهم بضعيفهم، ويظلم كبيرهم صغيرهم، ويأكل غنيهم فقيرهم، لا تعرف قلوبهم الرحمة ولا تشعر نفوسهم بالشفقة، انقطع عنهم نور الهدى، وعاشوا في جو مقيت من الشهوة العمياء، والانحلال الخلقي الشائن، والعقائد الباطلة المنحرفة، فكان من رحمة الله سبحانه بعباده أن نظر إليهم بعين الرحمة، فبعث إليهم نبي الهدى والخير بهذا الدين يصلح به ما فسد من نفوسهم ويُقوّم به ما انحرف من عقائدهم، وينتشلهم من وهدة الضلال إلى قمة الهداية ويدلهم على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولكن كيف يحتفل المسلمون بهذه الذكرى المباركة السعيدة؟ هل يكفي أن يتحلقوا حول الموائد التي حوت أنواع الأطعمة وأصناف الحلويات يأكلون في سرور وغبطة ومرح؟ أم هل يكفي أن يقرؤوا بعض آياتٍ من القرآن

يُتبعونها بقراءة قصة المولد التي تنتهي بساعة الولادة؟ أم هل يكفي أن يطلعوا على صفحاتٍ من كتب السيرة ثم يعودوا من بعد ذلك إلى غفلتهم ولهوهم؟

إن أجدادنا لم يكونوا يعتنون بشيءٍ من مثل هذه الاحتفالات التي تقام وكأنها جسم لا روح فيه ولكنهم كانوا يعيشون هذه الذكرى في حركاتهم وسكناتهم، يتخلقون بالأخلاق النبوية ويتأدبون بالآداب الإسلامية فتظهر جلية واضحة في أقوالهم وأفعالهم ومعاملاتهم، عرفوا الإسلام على حقيقته وامتزجت تعاليمه وآدابه في دمائهم وأجسامهم وأرواحهم متبعين قول الله سبحانه ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبعوني يُحْبِبْكُمْ اللهُ ويغفرُ لكمْ ذنوبَكُمْ واللهُ غَفورٌ رَحيم﴾.

قال سهل بن عبد الله: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة، وعلامة حبها حب الآخرة وعلامة حب الآخرة أن يبغض الدنيا ولا يأخذ منها إلا الزاد والبلغة.

الطالب والمطلوب

قال لي صاحبي: ألا ترى إلى هذا الذباب من حولنا، لقد تكاثر عدده، وامتلأ المكان به، وكثر أذاه، وعمنا ضرره وإزعاجه، ألا ترى أنه قد خلق للأذى والضرر؟ فسألت صاحبي: ألا تجد للذباب منفعةً؟ قال: وأية منفعة له وهو الذي يضايقني منذ الصباح ويسلبني راحتي ويعكر علي جو هنائي ولا يدعني أهنأ بنوم مريح، ولا بجلسة هادئة.

قلت له: إنني أخذت من هذا عبرةً هي أن الإنسان يرى نفسه مخلوقاً عظيماً ويعتز بقوَّته وماله ويفخر بعقله وذكائه، وهو كثيراً ما يطغى ويتكبر ويتجبر، فتأتي هذه المخلوقات الصغيرة من ذباب وبعوض وزنبور وأمثالها تتسلط عليه وتؤذيه وهي الضعيفة أمامه وتلقي عليه درساً كأنها تقول له: لا تغتر أيها المخلوق بقوتك فأنت في الحقيقة أضعف منا لأننا نستطيع أن نتحرش بك ونزعجك ونؤذيك ولا تستطيع أنت الدفاع عن نفسك أمامنا. . وقد وصف الله سبحانه هذه الحال في كتابه الكريم أبلغ وصف في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾. . قال المفسرون: خصَّ الله الذباب بالذكر لأنه ضعيف بالنسبة لغيره من الحيوانات، ولأن الناس يستقذرونه ويجدونه حقيراً مهاناً، ولأنه كثير العدد، ومع كل ذلك فلو اجتمع هؤلاء الذين كفروا بالله بما لديهم من عدد وعدد عجزوا عن خلق مثله، والأبلغ من ذلك أن الذبابة لو أخذت

بفمها أصغر قطعةٍ من الطعام فإنّ الناس يعجزون عن استردادها ولو جَرّبوا كل وسيلةٍ في ذلك.

ويروى عن وهب بن منبه أنه قال: لما أرسل الله تعالى البعوض على النمرود اجتمع منه في عسكره ما لا يحصى عدداً، فلما عاين النمرود ذلك انفرد عن جيشه ودخل بيته وأغلق الأبواب وأرخى الستور ونام على قفاه مفكراً فدخلت بعوضة في أنفه وصعدت إلى دماغه فعُذب بها أربعين يوماً حتى إنه كان يضرب برأسه الأرض، وكان أحب الناس إليه من يضرب رأسه ثم سقطت منه كالفرخ وكأنها تقول هكذا يسلط الله من يشاء من خلقه على من يشاء من عباده ثم هلك وما أحسن قول الشاعر:

لا تحقرن صغيراً في عداوته إن البعوضة تدمي مقلة الأسد

لأن البعوضة لا تزال تهجم على جبهة الأسد وعلى عينه حتى تجرحها ولا يستطيع لها دفعاً، ونختم حديثنا بما روي عن يحيى بن معاذ أن الخليفة أبا جعفر المنصور كان جالساً فتكاثر حوله الذباب حتى أزعجه وأضجره فقال: انظروا من بالباب فقالوا: مقاتل بن سليمان فقال: أدخلوه فلما دخل سأله: هل تعلم لماذا خلق الله الذباب، قال: نعم، خلقه كي يذل به الجبابرة فسكت المنصور.

العمل والجزاء

الأصل في الأعمال أن المرء يُسأل عما صدر عنه من عمل، فهو يثاب على الأعمال الصالحة التي تصدر عنه، ويعاقب على المخالفات التي يرتكبها، فهو مسؤول عما يصدر عنه من تصرفات ولا يمكن أن يؤاخذ على تقصير غيره، فالمحسن يستحق المكافأة عن إحسانه والمذنب ينال عقوبة ذنبه، وقد أشار الله سبحانه إلى أنه: ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، وقال تعالى: ﴿وأنْ ليسَ للإنسان إلّا ما سعَىٰ﴾، فالمرء أولى بما عمل من خير أو شر ولا يسأل عن اعوجاج غيره ولا يثاب بصلاح سواه قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُل نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً. وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بينَهَا وبينَهُ أَمَداً بعيداً﴾.

وإنّ الجزاء في الأصل لا يكون إلا عن عمل صدر عن الإنسان نفسه، ولكن ورد في الحديث الصحيح ما يشير إلى أن المرء قد ينتفع بعمل خير يصدر عن غيره، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثٍ: من ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده أو علم يُنتفع به».. وقد يبدو بعض التعارض بين هذا الحديث والآية الكريمة إذ أنه من المعروف أن أعمال الإنسان تكون أثناء حياته فإذا انتهت حياته توقفت أعماله، هذا هو الظاهر الذي يسبق إلى الذهن ولكننا نستطيع أن نقول إن هذه الأشياء الثلاثة التي وردت في الحديث هي من سعي الإنسان وعمله، فالولد في الحقيقة هو من

كسب أبيه، والصدقة الجارية كالوقف مثلاً هي من آثار عمل الإنسان قال تعالى: ﴿ونَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وآثارَهُمْ﴾، والعِلْمُ الذي يَنْشرُه بين الناس هو مِن عملِه، وقد ورد في الحديث أن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، وقد أجاز العلماء الحج عن الميت، وروي عن سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: إن أمي توفيت أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم».

وقد ذكر الإمام القرطبي أنه يحتمل أن يكون قول الله تعالى: ﴿وأنْ ليسَ للإنْسَانِ إلاّ ما سَعَىٰ﴾ خاصّاً بالسيئة بدليل ما ورد في صحيح مسلمٍ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عزّ وجلّ: إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنةً فإنْ عَمِلَهَا كتبتها لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إلى سَبْعمئَةِ ضعْفٍ، وإذا همَّ بسيئةٍ ولم يعملها لَمْ أكتبها فَإنْ عَمِلَهَا كتبتها لَهُ سيئةً واحدةً».

ويرى بعض العلماء أن الإيمان مع الصلاح سبب لانتفاع المرء بأشياء كثيرة ليست من عمله، مثل شفاعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، واستغفار الملائكة عليهم السلام ودعاء الأحياء للأموات وصدقتهم عنهم وغير ذلك مما هو ثابت في السنة، مع أن هذه الأشياء التي ذكرناها ليست من عمله قطعاً نسأل الله أن يكتبها لنا في الآخرة.

بين العزلة والمخالطة (١)

أعرف رجلاً من أهل العلم والصلاح والورع، قد اعتزل الناس ولازم داره فلا يكاد يخرج منها إلا إلى المسجد للصلاة أو إلى السوق لشراء ما لا بد منه من أسباب العيش، ولا زوجة عنده ولا ولد، واتسعت له أوقاته وصار يملكها ولا تملكه، وراح يقضي ساعات أيامه في المطالعة والنظر في أخبار الأوّلين، ويزوره بعض الإخوان وطلبة العلم يوماً في الأسبوع خصصه لاستقبالهم، ولما سألته عن سبب انقباضه عن الناس واعتزاله إيّاهم وعدم الاعتناء بزيارتهم ومخالطتهم كان جوابه أن الزمان قد فسد، وأن الصالحين قد قل عددهم بعد أن انغمس أكثر الخلق في لج الحياة المضطربة الصاخبة.

ورجعت إلى نفسي ونظرت في أخبار طائفةٍ من السلف الصالح فرأيت العدد القليل منهم قد آثر العزلة لاقتناعه بفوائدها كالمواظبة على العبادة وطلب العلم والتخلص من ارتكاب المناهي التي يكثر وقوعها في المجالس كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع بالاجتماع إلى جلساء السوء. ثم رأيت أكثر السلف قد ذهبوا إلى استحباب المخالطة واستكثار الإخوان والتحبب إلى المؤمنين والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى.

ولا شك أن لكلٍ من العزلة والمخالطة فوائدها التي لا يمكن للعاقل إنكارها، ولكننا إذا قارنا بين فوائد هذه وفوائد تلك وجدنا المخالطة أكثر فائدة

وأعم نفعاً وأقرب إلى المقاصد العامة للشريعة شريطة أن نعرف لها حدودها وقيودها وأن لا نأخذها على إطلاقها.

فمن فوائدها نيل الثواب وإنالته، ونفع الناس والانتفاع بهم، والتعلم والتعليم، والتأدب والتأديب، واستفادة التجارب في أمور الحياة والعيش. وإليك تفصيل ما أجملناه:

أما نيل الثواب فإنه يكون بحضور الجماعات في المساجد، ومن المعروف أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفَذِّ - أي صلاة الفرد - بسبعٍ وعشرين درجة، قال محمد بن واسع: ما أشتهي من الدنيا إلا ثلاثةً أخاً إن تعوَّجْتُ أقامني، وقوتاً من الرزق عفواً بغير تبعةٍ وصلاةً في جماعةٍ يُرفع عني سهوها ويُكتَبُ لي فضلها. ويكون نيل الثواب أيضاً بعيادة المرضى واتباع الجنائز وقد ورد في الحديث: «إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى: طِبْتَ وطابَ مَمْشاكَ وتَبَوَّأْتَ مَنْزِلاً في الجنّة» وورد في الحديث الآخر: «من شيع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى دفن فله قيراطان والقيراط مثل أُحُدٍ»، ومن ذلك حضور الدعوات المستحبة كالدعوة إلى حضور عقدِ النكاح، أو مجلس المصالحة بين المتخاصمين لأنّ في ذلك إدخال السرور على قلب المسلم ونيل ثواب التوسط إلى الصلح.

بين العزلة والمخالطة (٢)

إن الإسلامَ دينُ الاجتماع والجماعة يحث على التقارب بين المسلمين والتعارف بينهم وقد حث في كثير من نصوصه على تقوية رابطة الأُخُوَّة والصحبة بين الأفراد المسلمين ونهى عن التقاطع والتدابر وأوضح حقوق الأقارب وصلة الرحم وحقوق الجار وحقوق الصديق والضيف.

فالاجتماع إلى المسلمين ومعاشرتهم ومخالطتهم من الأمور المطلوبة وهي ذات فوائد متعددة منها طلب نيل الثواب وقد فصلنا القول فيها في الفصل السابق.

ومنها النفع والانتفاع، فالمسلم ينفع الناس ببدنه وماله فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة ولا شك أن في النهوض لقضاء حوائج المسلمين ثواباً كبيراً وقد ورد أن رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر. وورد أن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، والانتفاع من الناس يكون باتباع طرق الكسب معهم ومعاملتهم، وإذا اكتسب المسلم المال من وجهه وتصدق ببعضه كان أفضل من الذي يعتزل الناس ويشتغل بالنافلة.

ومنها التعلم والتعليم لأن المسلم ملزم بمعرفة أحكام ما هو ضروري له في عباداته ومعاملاته ولا يكون عذره بجهلها مقبولاً ولا مسموعاً، والعلم من أفضل العبادات، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على

سائر الكواكب، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ﴾ وورد في الحديث: «أنّ الله سبحانه وملائكته وأهل سماواته وأرضه حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليُصلون على معلم الناس الخير». ولا نتصور القدرة على التعلم والتعليم إلا بالمخالطة، وإذا احتاج المسلم إلى تعلم ما يلزمه في دينه ثم اعتزل فإنه يُعتبر عاصياً بهذه العزلة ولهذا قال الإمام النخعي: (تفقه ثم اعتزل) ولا يصح تضييع الأوقات في النوم والعزلة قبل تعلم العلم.

ومنها الاستئناس بالجلساء وهو مستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لاستعادة النشاط على العبادة فإن القلوب إذا كلّت عميت ولا بد من الترويح عن النفس حيناً بعد حين، والمعتزل عن الناس لا يستغني عن رفيق يستأنس به ويرتاح إلى محادثته وقد ورد في الأثر: «أن المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل».

ومنها الاستفادة من تجارب الآخرين وهذه الاستفادة لا تُنال إلا بمخالطة الناس ومعاشرتهم والعقل وحده غير قادر على تفهم مصالح الدين والدنيا إلا إذا ساعدته الممارسة والتجربة، ولا خير في عزلة الرجل الذي لم تحنكه التجارب والله الموفق.

الإسلام والمرأة

من نعيم الدنيا

نِعَمُ الله علينا كثيرة، فالمال الحلال نعمة، وصحة البدن نعمة، والأمن في الوطن، والراحة في البيت والعمل، وهدوء النفس، وراحة البال كلها نعم جليلة لا يعرف قدرها إلا من فقدها، فالمريض يعرف مقدار نعمة الصحة أكثر من الصحيح، وصاحب النفس القلقة المضطربة يقدر نعمة الهدوء والاطمئنان والسكينة. ومن هذا الباب نستطيع أن نعتبر المرأة الصالحة المخلصة المطيعة من أكبر النعم على الزوج الذي خلقه الله رجلاً وكتب عليه أن يخوض غمار الحياة وأن يعمل ويكافح ويكدح في سبيل تأمين لقمة العيش له ولزوجته وأولاده، يعود في آخر النهار إلى بيته متعباً مكدوداً فتستقبله زوجته بالنظرة الناعسة والابتسامة الساحرة واليد الحانية، وتمنحه من ودها وعطفها وحنانها ما ينسيه ألم النصب ومشقة العمل ويعيش في كنفها حياةً ترفرف عليها أجنحة السعادة ويغمرها الحب والحنان.

وقد أثْنَىٰ الله سبحانه على مثل هذه المرأة الصالحة بقوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾، فالمرأة الصالحة هي المستقيمة في خلقها ودينها، وهي قانتة أي مطيعة عن طيب نفس واطمئنان قلب لا تدفعها إلى الطاعة مجاملة ولا يحملها رياء للوصول إلى نفع مادي تناله من زوجها، وهي مطيعة للّه عز وجل، عالمة أن طاعة الزوج من طاعة الله، وهي حافظة للغيب تحفظ سر زوجها في غيبته فلا تفشيه لأحد من الناس، وتحفظ عرضها وبيتها وأولادها، فإذا كانت مع ذلك ذات عاطفة صادقة ونفس مرحة وقلب عطوف فهي ممن وصفهن رسول الله ﷺ بقوله: «خير النساء امرأة إذا نظرتَ إليها

سرَّتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك»، وورد في الحديث الآخر: «أن المرأة إذا صلَّت خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت».

ومثل هذه المرأة تملك قلب زوجها وتشعره بلذة الحياة الزوجية وتحمله على أن يبادلها حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص لأن الزواج شركة بين اثنين توجب على الشريك أن يقوم بواجبه فيها، وقد قال تعالى: ﴿ولَهُنَّ مِثْلُ الذي عليهنّ بالمعروف﴾، ومن باب مبادلة المرأة حسن المعاملة ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما حين قال إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي، وهذا هو منتهى العدل ومقابلة المعروف بمثله.

طبيعة المرأة

بلغني أن رجلاً وقع بينه وبين زوجته خلاف بدأ بسيطاً عادياً ثم أخذ يشتد قليلاً قليلاً إلى أن انتهى بطلقة واحدة أوقعها الرجل عليها، وافترقا أياماً شعرا بعدها بالندم، والتقيت بالرجل من بعد ذلك وسألته عن القصة فذكر لي أنه عاد إلى داره بعد الظهر متعباً من عناء العمل وانتظر من زوجته أن تقابله بابتسامةٍ تُرَوِّح عن نفسه وتحيي فؤاده ولكنه لم يجد منها ما كان يُؤمله لأنها كانت منهوكة القوى من عمل البيت ومكابدة الأولاد فعبس وعبست وتكلم وتكلمت وكثرت الملاسنة بينهما ووقع الطلاق.

وذكَّرني حديث الرجل بقصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جاءه رجل يشكو إليه خلق زوجته وسوء أدبها ووقف ببابه ينتظره، فسمع من خلف الباب صوت امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها وهو ساكت لا يرد عليها فترك الباب وانصرف وهو يقول في نفسه: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين فكيف حالي؟ وخرج عمر ورأى الرجل حين همَّ بالرجوع فناداه قائلاً: ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين جئت أشكو إليك خلق زوجتي واستطالتها علي فسمعت زوجتك كذلك فرجعت وقلت: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟ فهل تعرفون ماذا قال عمر في جوابه؟ لقد قال للرجل: تحملتها لحقوق لها عليَّ. كلمة بليغة تدل على الاعتراف بحق المرأة والإقرار بالجهود التي تبذلها في خدمة بيتها وزوجها وأولادها، فالرجل المنصف يعترف بالخدمة الجلى التي تقدمها المرأة له، وهو يحتمل منها بعض الأخطاء

والهفوات وبعض الشذوذ في المعاملة لقاء هذا الجهد وهذا الفضل.

وأذكر أنني قرأت في سيرة الصحابي الجليل أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه أن ضيفاً من إخوانه يدعى نعيم بن قعنبٍ نزل عنده فرحب به ثم دخل على زوجته وأمرها بإعداد طعام فالتَوَت عليه ـ أي إنها عاكسته ولم تطع أمره ـ ثم أمرها ثانية فالتوت عليه حتى ارتفعت أصواتهما وقال لها: دعينا عنك فإنكن معشر النساء كما قال فيكن رسول الله ﷺ: «المرأة من ضلع فإن ذهبت تقومها تكسرها وإن تدعها ففيها أَوَدٌ وبُلْغَةٌ» وفي الرواية الأخرى: «المرأة كالضلع إن ذهبت تقيمه كسرته وإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج» قال: «وكسرها طلاقها». وقد ورد أن أزواج النبي ﷺ كن يراجعنه الكلام وتهجره إحداهن حتى الليل، ويروى مثل ذلك عن كثير من الصحابة مثل أنس بن مالك رضي الله عنه راجعته زوجته الكلام يوماً فقال لها: لتنتَهِنّ أو لأدعون الله عليك فلم تبال زوجته بكلامه ولم تسكت بل أجابته قائلةً: أنت منذ عشرين سنة تدعو على الحجاج فما يزداد عنقه إلا غلظاً.

فيجب على المسلم أن يتحمل زوجته ويصبر عليها أسوة بمن ذكرنا فذلك خير من الطلاق.

الرجال والنساء

لا يزال كثير من الكتاب الذين يسمون أنفسهم أنصار المرأة يطالبون بالمساواة بينها وبين الرجل في كل أمر من الأمور وفي كل عمل من الأعمال، ويزعمون أنها قد ظُلمت ومُنعت حقوقها وينادون برفع الظلم عنها، ونحن لا نعرف ما هو هذا الظلم الذي وقع بها والله سبحانه الذي خلقها وخلق الرجل يقول في محكم كتابه: ﴿ولَهُنَّ مِثْلُ الَّذي عليهنَّ بالمعروفِ وللرجالِ عليهنَّ دَرجة﴾ فللمرأة حقوق يجب أن تنالها، وعليها واجبات يجب أن تؤديها، ولا ينكر أحد أن طبيعتها تختلف عن طبيعة الرجل وجعل الله لها وظائف لا تقل في خطرها وضرورتها عن وظائف الرجل، والأسرة وحدة كاملة في المجتمع يقوم كل فرد فيها بالأعمال التي هيأه الله سبحانه لها وفطره عليها وييسره لأدائها فإذا تجاوز كل من الرجل والمرأة حدود طبيعته ومقدرته اختل نظام المجتمع وفسدت أمور الناس.

فالمساواة إذن موجودة بينهما ضمن هذه الحدود، وللرجال عليهن درجة، وليست هذه الدرجة من نوع الرئاسة والتسلط، ولكنها بمعنى أن الرجال يقومون على إدارة شؤون النساء بالحفظ والرعاية والحماية، فيقوم الأزواج برعاية زوجاتهم وحمايتهن، ويقوم الآباء برعاية بناتهم وتربيتهن، فليست هناك رئاسة بالمعنى المفهوم من الكلمة، ولكنها رعاية وحماية وإذا قيل إن للرجل رئاسة عامة في الأسرة فللمرأة أيضاً رئاسة نوعية تناسب تكوينها ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته،

والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها».

وقد بين الله سبحانه سبب قوامة الرجل في بيته بقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِم﴾. وهذا التفضيل هو الزيادة في قوة الجسم وفي العلم والمعرفة، وباختصاص الرجال بالرسالة الإلٓهية والولايات الكبرى، وتتبع هذا الأمر تكليفات كالجهاد وغيره، فليس من عمل المرأة أن تقوم بالولاية العامة ولا أن تقود الجيوش لدفع الأعداء. فالرجال من النساء، والنساء من الرجال، والتكليفات موزعة بين الفريقين وكل منهما يقوم بما خُلق له، والرجال مكلفون أيضاً بالإنفاق على النساء وعلى من هم في رعايتهم والمرأة تعكف على إعداد البيت والإشراف على شؤون الأولاد ليكون بيتها جنة الحياة. والمرأة المتزوجة قد تكون صالحة وقد تكون غير صالحة وقد أثنى الله سبحانه على الأولى فقال: ﴿فالصالِحَاتُ قانِتَاتٌ حافِظاتٌ للغَيْبِ بما حَفِظ اللهُ﴾. وما أجمل البيت وما أسعد حياة الأسرة حين توجد فيها مثل هذه المرأة الصالحة.

عضل النساء

نشرت إحدى الصحف شكوى تقدمت بها فتاة في سن الزواج تقول فيها: إن الفتاة عند أبيها أصبحت في نظره سلعةً تباع لمن يدفع فيها الثمن الباهظ، ومما يحز في النفس أن هذه الفكرة قد سيطرت على الأغلبية العظمى من الآباء والأولياء مما أدى إلى قلة الإقبال على الزواج وقضى هذا الجشع على آمال الشباب والفتيات فبقي كل فريقٍ منهما من غير زواجٍ لأن المهر المطلوب من الخاطب كبيرٌ مع أن أكثر الشباب هم من ذوي الدخل المحدود..

وتضيف الفتاة قائلةً: بالرغم من أن المهر ملكٌ للعروس إلا أن الآباء يزداد طمعهم وتكثر مطالبهم وربما أدى هذا الطمع إلى وقوع انحرافٍ خلقيٍّ. قالت: وأصبحت أتلصص على مجلس أبي كلما علمت بوجود رجلٍ عنده لعله يكون خاطباً آملةً أن يبادر أبي إلى تلبية طلبه وكنت كثيراً ما أظفر بالخُطّاب الصالحين ولكن أملي فيهم يخيب عندما يطلب أبي من أحدهم مبلغاً طائلاً وقد سئمت هذه الحال وأنا لا أسامح والدي في تعنته لأني الآن زهرةٌ يانعةٌ سوف تذبل بعد حينٍ فلا يرغب فيها أحدٌ..

هذا ما قالته الفتاة بصراحةٍ، وقد كثرت الشكاوى من غلاء المهور وامتلأت بها أعمدة الصحف والمجلات وقتاً غير يسير، وعلى العقلاء من الآباء أن يتقدموا بأنفسهم لكسر هذا السد وإبطال هذه العادات السيئة الراسخة في النفوس وأن يزوجوا بناتهم من غير طمعٍ في المال وهذا هو الطريق

الصحيح لأن الكلام وحده لا يكفي ولا بد من خطوةٍ عملية.

ونحن نحب أن نقول اليوم أن هذا الذي ذكرته الفتاة يسمى بلغة الشرع عضلاً، والعضل هو أن يمتنع الأب أو الولي عن تزويج البنت إذا جاءها الخاطب الكفء ورضي بدفع مهر المثل ففي مثل هذه الحال يجب على الأب أن يزوجه فإذا امتنع كان ظالماً، والظلم حرامٌ، فترتفع ولايته وتنتقل إلى الولي الأبعد أو إلى القاضي، لأن الظالم يجب أن يمنع عن الظلم، وقد ورد في الحديث: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه»، ولم يقل من ترضون أمواله ولا أملاكه.

والمهر حقٌ خالصٌ للزوجة وملكٌ لها تتصرف فيه كما شاءت بكل أنواع التصرفات وليس لأبيها ولا لزوجها ولا لأحدٍ من الناس كائناً من كان أن يجبرها على التنازل عنه أو عن شيءٍ منه بدون رضاها، فعلى الآباء أن يتقوا الله في بناتهم وأن يطبقوا أحكام الشرع إن كانوا مسلمين.

مهر الزوجة

إن الشارع الحكيم أوجب للزوجة مهراً عند الزواج تكرمةً لها، ولو أننا أبحنا للرجل أن يتزوج المرأة من غير مهرٍ يدفعه لها لكانت النتيجة أن تصبح النساء مبتذلاتٍ محتقراتٍ ويسهل على الرجل حينئذٍ أن يطلق المرأة لأتفه الأسباب أو من غير سببٍ مطلقاً لأنه أخذها مجاناً ما فقد شيئاً من المال ولا أنفق شيئاً، فكان إيجاب المهر عليه بياناً بأن الزوجة شيءٌ لا يسهل الحصول عليه إلا بالبذل والإنفاق والعطاء فلا يفرط فيه بعد ذلك.

ويجب المهر للزوجة بعقد الزواج ولاحدّ له ولكن الأفضل ألا يغالي ولي المرأة في مهرها فقد روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن أعظم النكاح بركةً أيسره مؤونةً»، وقال عمر بن الخطاب بمحضر كثيرٍ من الصحابة: لا تغلوا صُدُق النساء فإنها لو كانت مكرمةً في الدنيا أو تقوى في الآخرة كان أولاكم بها النبي ﷺ ما أصدق رسول الله امرأةً من نسائه ولا أصدقت امرأةٌ من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقيةً.

وإن المغالاة في المهور والزيادة فيها تؤدي إلى إحجام الشباب عن الزواج، وإذا قل الزواج كثر الفساد.

والمهر حق الزوجة، فإذا كانت كبيرةً عاقلةً فليس لأحدٍ ولايةٌ على أموالها بل هي التي تتولى قبض المهر والتصرف فيه، وليس لأبيها ولا لأخيها ولا لعمها ولا لأحدٍ من أوليائها كائناً من كان أن يقبض مهرها إلا بتوكيلٍ منها

والتوكيل يكون باللفظ ويكون بالسكوت عند تسليم المهر للولي، ومن حق الزوجة أن تتصرف بمهرها بعد العقد وليس لأبيها ولا لأحدٍ من أوليائها أن يمنعها من ذلك.

وإذا لم تقبض مهرها، أو قبضه وليها بغير إذن منها بقي ديناً لها في ذمة الزوج تطالبه به متى شاءت. أما ما جرت به العادة عند بعض الناس من قبض الأب مهر ابنته وتصرفه فيه معتقداً أنه صار حقاً له فهو عملٌ خاطيءٌ واعتقادٌ غير صحيح، لأن الأب يقبض المهر باسم ابنته وتبقى يده يد أمانةٍ، وعليه أن يسلمه إلى ابنته كاملاً غير منقوص، ولها الحق أن تسامحه بشيءٍ منه إذا أرادت من غير ضغطٍ ولا إكراهٍ ولا أي نوعٍ من أنواع التخجيل فليفهم الآباء هذا قبل أن يسألهم الله يوم القيامة وبالله التوفيق.

المرأة والعدة (١)

إذا طلق الرجل زوجته وجب عليها أن تنتظر مدةً من الزمن لا تتزوج فيها بغيره، وإذا توفي عنها زوجها وجب عليها أن تنتظر، وهذا الزمن قدره الشارع الحكيم وسماه (العدة).

وقد يقول قائلٌ: وما فائدة هذه العدة ولماذا نوجب على المرأة الانتظار ما دامت رابطة الزوجية قد انقطعت بينها وبين زوجها بالطلاق أو الوفاة؟

والجواب على ذلك أن الرابطة الزوجية من أسمى الروابط وأقواها، فإذا توفي الزوج كان من واجب الوفاء لذكراه والإخلاص له أن تظهر زوجته الحزن على فقدانه وأن تعلن الحداد عليه وفاءً لشخصه وللأيام التي قضتها إلى جانبه يرعاها ويقوم بحقها، وهذا دليلٌ على سمو العاطفة وصدق المشاعر، ولو أنها فقدت هرةً كانت تألفها وتعيش إلى جانبها لشعرت بالحزن عليها والأسف على فراقها.

أما العدة بعد الطلاق فإن لها حكمةً ساميةً هي إعطاء الزوج الذي فارق زوجته فرصةً يفكر فيها ويستعرض خلالها ما وقع له من اضطراب حياته بعد فراق زوجته بالطلاق وإحساسه بهذا الفراغ الذي تركه الفراق في نفسه وفي بيته، فلعله فارقها بسبب ساعة غضبٍ شيطانيةٍ أو لسببٍ غير جوهريٍّ كان من الممكن احتماله والصبر عليه أو لعله تخيل أمراً واقعاً ثم تبين له أنه لم يقع، وقد يشعر في أعماق نفسه بالأسى والأسف والندم على الفراق والحنين إلى

العودة، فلئلا نسد أمامه الباب ونقطع عليه الطريق أوجبنا على الزوجة الانتظار، ونحن نرى في حالاتٍ كثيرةٍ رجوع الزوجة إلى عصمة زوجها بسبب توسط العقلاء من الأهل بينهما، وإلى هذا المعنى أشارت الآية الكريمة في أول سورة الطلاق ﴿ يا أيّها النبيُّ إذا طلَّقتُم النساءَ فطلِّقوهُنَّ لِعدَّتهِنّ ﴾، . . . ويختم الله سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿ لا تَدْري لعلَّ الله يُحْدِثُ بعد ذلك أَمْراً ﴾.

وقد حددت الشريعة ثلاث حيضاتٍ مدةً لعدة المطلقة إذا لم تكن حاملاً، أما الحامل فإن عدتها تنقضي بوضع الحمل ولو كان بعد الفراق بلحظاتٍ يسيرةٍ، وأوجب الله سبحانه على الزوجة التي توفي عنها زوجها أن تتربص أربعة أشهرٍ وعشرة أيامٍ.

وأوجب على المعتدة أن تقضي مدة العدة في منزلها الذي كانت تقيم فيه وقت قيام الزوجية بدليل قوله تعالى: ﴿ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيوتهنّ ولا يَخْرُجْنَ إلاّ أنْ يأْتِينَ بفاحشةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾.

المرأة والعدة (٢)

قلنا أن المرأة إذا توفي عنها زوجها أو طلقها وجبت عليها العدة مدةً من الزمن تبقى خلالها في منزلها الذي كانت تقيم فيه مع زوجها، ونزيد فنقول إنها ممنوعةٌ من أن تقضي عدتها في بيتٍ غير بيت زوجها إلا لعذرٍ شرعيٍّ مقبولٍ كي تبقى محافظةً على الوفاء لزوجها المتوفى تتمثله في ذهنها وتذكر ما كان بينه وبينها من المودة والألفة، ولكي تكون على مقربةٍ من زوجها الذي طلقها ليراقبها فلعل قلبه يميل إلى الرجوع إليها.

أما الأعذار التي تسمح للزوجة بقضاء العدة خارج بيت زوجها فهي كثيرةٌ منها أن يكون البيت بعيداً عن الجيران وعن الحراس وتخاف فيه على نفسها أو مالها، أو تكون أجرته كبيرةً، أو يمنعها أهله من البقاء فيه، ولها مدة بقائها فيه نفقةٌ تسمى نفقة العدة يدفعها لها زوجها الذي طلقها..

ويسمح لها بأن تخرج في النهار إذا اضطرت لاكتساب معيشتها وتأمين حوائجها الضرورية التي لا تستغني عنها، وتبقى في الليل بالمنزل، لأن القاعدة الشرعية تقول إن الأمر إذا ضاق اتسع، يعني إذا طرأت مشقةٌ أو لزمت ضرورةٌ جاز الترخص في الأحكام بالأخذ بالأيسر قال تعالى: ﴿ يُريدُ الله بِكُم اليُسْرَ ولا يُريدُ بكُم العُسْرَ ﴾.

ومن الواجب عليها أيضاً أن تترك الزينة والطيب، ولا يجوز لها لبس الحلي ولا أن تدهن شعرها ولا تكتحل. ورد في الصحيحين البخاري ومسلمٍ

عن أم عطية أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُحِدّ امرأةٌ على ميتٍ فوق ثلاثٍ إلا على زوجٍ أربعة أشهرٍ وعشراً، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصبٍ (وهو من ثياب اليمن) ولا تكتحل ولا تمس طيباً إلا إذا طهرت نبذةً (يعني شيئاً قليلاً) من قسطٍ أو أظفارٍ»..

والحكمة في ذلك أن الزينة داعيةٌ للزواج فمنعت من ذلك سداً للباب. أما المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً فيجوز لها أن تتزين لعل قلب زوجها يتحول إليها فيراجعها.

والمرأة الحامل تنتهي عدتها عند وضع حملها أي عند الولادة ولو بعد الطلاق أو الوفاة بزمنٍ يسيرٍ قال تعالى: ﴿ وأُولاتِ الأحمالِ أَجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾، وإن نفقة المطلقة الحامل واجبةٌ على زوجها الذي طلقها قال تعالى: ﴿ وإنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فأَنْفِقوا عليهنّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾. والنفقة تشمل الطعام والشراب والكسوة، وتجب لها النفقة لأنها محبوسةٌ في زمن العدة لحق زوجها لأنها لا يجوز لها أن تتزوج حتى تنقضي عدتها فوجبت النفقة لها مقابل هذا الاحتباس والله أعلم.

نشوز المرأة

نشرت الصحف حديثاً أدلى به معالي وزير العدل في المملكة العربية السعودية إلى إحدى المجلات تطرق فيه إلى مشاكل الزواج وغلاء المهور، وقال فيه: إنه ينبغي على العلماء وخطباء المساجد، وعلى المتحدثين في الإذاعة القيام بحملةٍ لتوعية أفراد المجتمع وإرشادهم إلى المضار والمفاسد التي تنشأ عن التغالي في المهور، وتطرق معاليه إلى العادات السيئة التي فشت في المجتمع في تكاليف الزواج من إقامة الحفلات الفخمة ونصب الزينات وجلب المطربين والمطربات وإنفاق، الأموال الطائلة في مثل هذه الأمور التي لا يجيزها الشرع ولا يقرها العقل.

أما إذا خرجت الزوجة عن طاعته لسببٍ شرعيٍّ فلا تسقط نفقتها عنه ولها الحق أن تطالبه بها، وذلك مثل أن يكون المسكن غير مستوفٍ الشروط الأساسية المتعارف عليها، أو أنها لم تقبض معجل مهرها، أو أن يكون الزوج غير أمينٍ على نفسها ومالها، فهذه كلها أسبابٌ مقبولةٌ يكون الحق فيها إلى جانب الزوجة ويجبر الزوج على أن يتلافى تقصيره فيها.

والنفقة تكون بحسب حال الزوج عسراً ويسراً قال تعالى: ﴿ لِيُنْفِقْ ذو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ، ومَنْ قُدِرَ عليه رِزْقُه فلْيُنفقْ ممّا آتاهُ الله، لا يُكلّف الله نفساً إلاّ ما آتاها سيجْعلُ الله بعد عُسْرٍ يُسْراً ﴾. . .

ربما قالت الزوجة لزوجها: إن جارنا قد اشترى سيارةً يتنقل فيها مع

زوجته من مكانٍ إلى مكانٍ فيجيبها الزوج قائلاً: إن الله سبحانه قد وسع لجارنا في رزقه وآتاه المال الوفير، أما أنا فراتبي قليلٌ وموردي محدودٌ، وقد تطلب منه الزوجة أن يشتري لها ثوباً فاخراً لأن صديقتها قد تزوجت وهي تنتظر حضور المهنئات، فهذا وأمثاله يعد شططاً من الزوجة وإرهاقاً للزوج وظلماً منها لا يمكن قبوله. ومن الممكن أن يكون أبو الزوجة من الأغنياء الموسرين ولكن هذا الأمر لا يقدم ولا يؤخر في الموضوع لأن النفقة تقدر بحال الزوجين فإذا كان الزوج معسراً أو فقيراً وكان أهل الزوجة من الأغنياء فرضت لها نفقةٌ وسطٌ بين الحالتين إلا أنه يؤمر بأداء الحد الأدنى الذي يكفيها ويبقى الزائد عن الكفاية ديناً في ذمته بسبب فقره إلى أن يتحسن وضعه المالي.. وقد ذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه إلى أن النفقة تقدر بحال الزوج وحده من غير نظرٍ إلى حال أهل الزوجة.

ونحن ننصح الزوجة بأن تصبر على زوجها ولا تكلفه ما لا يطيق ولا تظلمه بطلباتها الكثيرة، ويجب أن تعتبر نفسها شريكة حياته في السراء والضراء، وننصح الزوج مقابل ذلك بأن يعطف على زوجته، ويقدم لها بين الحين والحين هديةً جميلةً يوفر قيمتها من مورده الشهري.

الكفاءة في الزواج

نشرت الصحف حديثاً أدلى به معالي وزير العدل في المملكة العربية السعودية إلى إحدى المجلات تطرق فيه إلى مشاكل الزواج وغلاء المهور، وقال فيه: إنه ينبغي على العلماء وخطباء المساجد، وعلى المتحدثين في الإذاعة القيام بحملةٍ لتوعية أفراد المجتمع وإرشادهم إلى المضار والمفاسد التي تنشأ عن التغالي في المهور، وتطرق معاليه إلى العادات السيئة التي فشت في المجتمع في تكاليف الزواج من إقامة الحفلات الفخمة ونصب الزينات وجلب المطربين والمطربات وإنفاق الأموال الطائلة في مثل هذه الأمور التي لا يجيزها الشرع ولا يقرها العقل.

وإننا نؤيد معاليه في ما قاله، وقد كثر التحدث في هذا الموضوع ولم يقصر العلماء ولا الكاتبون ولا المتحدثون في وصف هذه المشكلة وبيان أضرارها ومفاسدها، ولا تزال الصحافة تشير إليها وتدعو إلى التخلص منها ونحن نتمنى أن تعقب هذه المرحلة الكلامية مرحلةٌ عمليةٌ بأن يقدم بعض الآباء ذوي العقل والتفكير على كسر هذه السدود وتحطيم هذه القيود وتزويج بناتهم بمهور معتدلةٍ وبحفلةٍ بسيطةٍ خاليةٍ من الزخرفة والبهرجة، بعيدةٍ عن الطنطنة والمظاهر البراقة المزيفة، فإن عقد زواجٍ واحدٍ من هذا النوع أكثر فائدةً للمجتمع من خمسين مقالةً في الصحف..

ونود أن نشير إلى أن الكفاءة في الزواج مطلوبةٌ، ولكن الناس قد فهموها على غير حقيقتها وقد ذكرها الفقهاء في أحكام الزواج فذهب الإمام

أحمد رضي الله عنه إلى أن الكفاءة تكون في الدين والصناعة فيشترط في الخاطب الصلاح والاستقامة يضاف إليهما أن لا تكون صناعة الزوج أدنى من صناعة ولي الزوجة والمدار في ذلك على عرف أهل البلد في أنواع الحرف ودرجاتها، أما الإمام الشافعي فأضاف إليهما النسب والحرية والخلو من العيوب وأضاف غيره المال وليس المراد به أن يكون الخاطب من الأغنياء الموسرين ولكن المراد أن يكون عنده من المال ما يجعله قادراً على إيفاء الزوجة عاجل صداقها وعلى الإنفاق عليها شهراً إذا لم يكن صاحب حرفةٍ أو وظيفةٍ، فمتى كان عنده ذلك فقد صار كفؤاً للبنت التي يملك أبوها الملايين. والمقصود من الزواج هو أن يكون البعيد قريباً، وأن يكون توافقٌ وتقاربٌ في مستوى الحياة لأن الأرواح لا تتقارب إلا إذا اشتركت في طبيعتها وصفاتها، وما كان المال في يومٍ من الأيام أساساً ولا مستنداً في الحياة الزوجية الروحية السامية المبنية على التعاون في السراء والضراء.

روى أبو حاتمٍ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريض». فجعل الدين والخلق الطيب عماد الزواج الناجح.

التحكيـــم

الخلافات الزوجية تقع دائماً في كل زمانٍ ومكانٍ، ومن المستبعد أن تتفق وجهة نظر كلٍّ من الزوجين في سائر الأمور التي تعترض سبيل حياتهما، لأن وجود رفيقين متفقين في الطباع والعادات والميول وفي العقل والتفكير أمرٌ يكاد يكون نادراً، فالخلاف إذاً لا بد واقعٌ في كل بيت بين كل زوجين ولكن يختلف في شدته وضعفه، فإذا كان كلٌّ منهما أو كان أحدهما ذا عقلٍ ورويةٍ وحكمةٍ استطاع أن يعالج الأمور بحكمته وثاقب نظره في هدوءٍ وسكينةٍ بعيداً عن الضجة والغضب والثورة، وكثيراً ما يبدأ الخلاف بسيطاً ولكنه يتسع ويشتد بسبب الحماقة وقصر النظر وغلبة العاطفة على العقل. وقد قدم الشارع الحكيم علاجاً لهذه الحال سماه (التحكيم) يلجأ إليه الزوجان إذا عجزا عن التفاهم وعن إطفاء نار الشقاق بينهما، وهو علاجٌ نافعٌ إذا عرف الزوجان والحكمان طريقة استعماله في جوٍّ من الهدوء والسكينة وحسن النية.

قال تعالى: ﴿ وإنْ خِفتُمْ شِقاقَ بيْنِهما فابْعَثوا حَكَماً مِن أهلِه وحَكَماً مِن أهلِها إنْ يُريدَا إصْلاحاً يُوَفِّقِ الله بينهما ﴾ فالحكمان يكونان من أهل الزوجين وذلك لكي يكون مع كل واحدٍ من الزوجين من يعطف عليه ويدافع عنه ويرعى مصالحه، وهذه هي الحكمة السامية في هذا العلاج المفيد، ويجب أن يكون الحكمان من أهل العدالة والفقه وحسن النظر والفهم والحكمة في معالجة الأمور.

ومن الواجب على الحكمين أن يستمعا إلى كلام كل واحدٍ من الزوجين

وأن يحاولا فهم موضوع الخلاف على حقيقته كالطبيب الذي يفحص أعضاء الجسم ليقف على أصل العلة ومكمن الداء كي يستطيع أن يصف العلاج النافع، وعليهما من بعد ذلك واجب السعي في إصلاح ذات البين بين الزوجين وتأليف قلبيهما على المودة وحسن المعاشرة ويكون ذلك بالنصائح المفيدة ووصف الطلاق وعواقبه الوخيمة، وبيان واجب الزوج في معاملة زوجته وأنها أمانةٌ عنده وأنها تتعب من أجله وتشقى لتأمين راحته، ثم بيان واجب الزوجة في معاملة زوجها وأنه يكد ويعمل طول نهاره لتأمين نفقتها ونفقات البيت والأولاد وأن طاعة زوجها من طاعة ربها.

فإذا سلك الحكمان هذا الطريق وكانا من أهل الفقه والمعرفة والعقل الراجح والحكمة وحسنت نية كل واحدٍ منهما فإنه يرجى أن تثمر جهودهما وتؤتي ثمارها الطيبة فيعود للبيت هناؤه ويعود للحياة الزوجية صفاؤها وبهاؤها.

المرأة في الإسلام

رفع الإسلام من شأن المرأة إلى درجةٍ لم تكن تحلم بها من قبله ولم تصل إليها إلا في ظل الدين الحنيف جعل لها حقاً في المال كحق الرجل ومنحها حق التصرف فيه دون رقابةٍ عليها ولا ولاية، وليس لأبيها ولا لزوجها ولا لأحدٍ من الناس ولايةٌ على مالها إلا بتوكيلٍ منها، ولو استولى زوجها أو أحد أقاربها على شيءٍ من مالها من غير إذنٍ منها اعتبر غاصباً توجب عليه الشريعة أن يرده إليها، وإذا أنفقه أو أهلكه وجب عليه أن يرد إليها مثله، وهذا شيءٌ انفردت به الشريعة الإسلامية. وجعلها الإسلام ذات مسؤوليةٍ مستقلةٍ في العبادات والمعاملات، وفي الثواب والعقاب عند الله قال تعالى: ﴿ ومَنْ يعملْ مِن الصالحاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أنثـى وهو مُؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمونَ نقيراً ﴾. .

وإذا كانت المرأة صالحةً وكان زوجها فاسداً فإن فساده لا يؤثر على صلاحها لأنها مسؤولةٌ أمام الله سبحانه عن أعمالها وسلوكها وتصرفاتها مثل أي فردٍ من أفراد المجتمع وقد بين الله عزّ وجلّ هذا المعنى بياناً كافياً حين ذكر امرأة نوحٍ وامرأة لوط وذكر أنهما: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُما فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ٱدخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلين﴾، فلم يشفع لكلٍ واحدةٍ منهما أنها كانت زوجة نبيٍّ من أنبياء الله ولم ينجها ذلك من العذاب في نار جهنم جزاء سوء سلوكها، كما أن فرعون الظالم الكافر الجاحد لم يكن كفره حائلاً دون تكريم امرأته آسية ومكافأتها: ﴿إِذْ قَالَت رَبِّ ٱبْنِ لِي

عِنْدَكَ بَيْتاً فِي ٱلجَنَّة﴾ فاستجاب الله دعاءها وأثنى عليها في كتابه الكريم.

وقد كرم الله سبحانه المرأة في بيت زوجها ورفع منزلتها وأوجب على الزوج أن ينفق عليها ويكسوها ويسكنها في الدار التي تليق بها. روى الإمام أحمد وأبو داود أن رجلاً سأل النبي ﷺ ما حق المرأة على الزوج؟ فقال: «تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت».

وجعل رسول الله ﷺ مقياس الأخلاق معاملة الرجل لزوجته إذ أنها الضعيفة تحت يده الدائمة العشرة له فكان من كلامه: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»، وما ضرب عليه السلام امرأةً قط وكان يؤنب من يفعل ذلك ويقل: «أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد؟» وكان يمازح أزواجه ويشاركهن المرح والسرور، فعلى المسلمين أن يقتدوا به ويهتدوا بهديه.

رؤية المخطوبة

ليس الزواج اجتماعاً موقتاً لزمنٍ محدود ولكنه حياةٌ دائمةٌ مؤبدةٌ بين الزوجين، ولا تنجح الحياة الزوجية إلا إذا وجدت بين الرجل والمرأة الملاءمة والموافقة بحيث يرضي كلٌ منهما صاحبه في الطبع والخلق، وفي التفكير والتربية النفسية وفي الشكل والصورة أيضاً لأن الأرواح جنودٌ مجندةٌ ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وقد تقع عيناك على شخصٍ للمرة الأولى في حياتك فتشعر في نفسك بميلٍ إليه أو نفورٍ عنه، ولهذا السبب أباحت الشريعة الإسلامية لكل واحدٍ من الخاطب والمخطوبة أن ينظر إلى الآخر قبل أن يتم عقد الزواج بينهما، كي يتأكد كل واحدٍ منهما أن صاحبه يوافقه ويلائمه لأنه سوف يكون شريكاً له في حياةٍ طويلةٍ مديدةٍ.

والأصل في هذا حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه حين خطب امرأةً فأخبر النبي ﷺ فقال له: «أنظرت إليها» قال: لا قال عليه الصلاة والسلام: «فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»، يعني أن النظر سببٌ في حصول الموافقة بينهما غالباً. وقد نقل عن الإمام الأعمش قوله: كل تزويجٍ يقع على غير نظرٍ فآخره همٌ وغمٌ، والوصف مهما كان دقيقاً لا يقوم مقام النظر، ومقاييس الجمال تختلف في أنظار الناس، والجمال من غير جاذبيةٍ جافٌ لا ترغب النفس فيه، ورب امرأةٍ متوسطة الجمال خفيفةً الروح تكون أقرب إلى القلب من ذات الجمال الرائع إذا لم تكن ذات جاذبية.

وأجمع العلماء على أنه يجوز للرجل أن ينظر إلى وجه المرأة التي يريد

الزواج بها وإلى كفيها، لأن الوجه فيه الملامح التي تجذب قلوب الرجال والكفان يدلان على امتلاء الجسم، ولكن هذا النظر من الرجل والمرأة لا يكون إلا بعد العزم على الزواج والبحث فيه كي لا يكون مدعاةً إلى اللهو والعبث.

ولا بد من معرفة رأي المخطوبة وأخذ موافقتها وإذنها، روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن» قالوا يا رسول الله: وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت». فإذا كانت المرأة ثيباً أي كانت متزوجةً من قبل وانفصلت عن زوجها بموتٍ أو طلاق فلا بد أن تصرح بالإذن وبالموافقة على الزواج بمن جاء يخطبها، أما البكر التي لم تتزوج بعد، فإن سكوتها الذي هو سكوت الرضى كافٍ لغلبة الحياء عليها.

وبهذا يتبين أن استئثار بعض الأولياء بتزويج البنات دون سؤالهن ولا استئذانهن مخالفٌ للسنة المطهرة.. وقد علمنا أن معالي وزير العدل في المملكة العربية السعودية قد أصدر أمره إلى المحاكم الشرعية بوجوب أخذ موافقة المرأة المخطوبة قبل إجراء عقد الزواج كي يمكن تجنب الدعاوى من الزوجات بأن أولياءهن زوجوهن بدون رضاهن، جزاه الله خيراً.

المرأة والشيطان

عنوان حديثنا عن المرأة والشيطان، وإذا استمعت امرأةٌ إليه فأغلب الظن أنها سوف تعلن غضبها واستنكارها لهذه الإهانة التي ألحقناها بها، ولكننا نعتذر إليها سلفاً ونعلن أن النساء مثل أية فئةٍ من فئات البشر، فيها الصالح والطالح، وفيها الفاضل وغير الفاضل، وعدد النساء الصالحات الفضليات في التاريخ الإسلامي وفي كل عصرٍ وزمانٍ أكثر من أن يحصى.

ونعود إلى موضوعنا فنقول إن الله سبحانه وتعالى يقول في سورة النساء: ﴿فقاتِلوا أولياء الشيطانِ إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ ويقول في سورة يوسف: ﴿فلمّا رأىٰ قميصَه قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قال إنّه مِنْ كيدِكُنَّ إنّ كَيْدَكُنَّ عظيم﴾ فجعل كيد الشيطان ضعيفاً وجعل كيد النساء عظيماً.

أما آية الشيطان فيروى أن إبليس جاء في غزوة بدرٍ الكبرى برايته وجنوده وألقى في قلوب المشركين اعتقاداً بأنهم يقاتلون عن دين آبائهم وأنهم لن يهزموا.. وأمد الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين بألفٍ من الملائكة. فلما اصطف الفريقان قال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ بكم وقال أبو جهلٍ: اللهم انصر أولانا بالحق ورفع رسول الله ﷺ يده وقال: «يا رب إنك إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً وأخذ قبضةً من ترابٍ ورمى بها في وجوههم فولوا مدبرين وانهزموا»، وقال ﷺ: «ما رأى الشيطان نفسه يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة إلا ما رأى يوم بدرٍ».

وأما آية سورة يوسف فإن امرأة العزيز لما تحرشت بيوسف عليه السلام وراودته عن نفسه وغلقت الأبواب. قال: ﴿مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، عندئذٍ قدت قميصه من الخلف وأحبت أن تتلافى الأمر فقالت لزوجها العزيز: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً، فلما تبينت للعزيز حقيقة الموقف وأنها هي المعتدية قال: إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم.. ووصفه بكلمة عظيمٍ لأن فتنة النساء عظيمةٌ، وعندهن براعةٌ كبيرةٌ في التخلص من الورطة التي تقع الواحدة منهن فيها، ولو بحثنا في أسباب الفتن الكبرى في التاريخ لوجدنا أثر المرأة فيها كبيراً، ومن جملة الأمثال المعروفة عند أهل الغرب المثل الذي يقول (فتش عن المرأة) يقولونه في كل معضلةٍ يصعب حلها.

على أننا نعود فنقول إن الدنيا لا تخلو من فضليات النساء اللواتي ضربن أروع الأمثلة في الاستقامة والحشمة والعفاف والقدرة على تربية النشء الصالح.

زواج المسلمة بغير المسلم

تحدث أحد الكتاب الغربيين عن الحرية الدينية في الإسلام وأثنى على مبدأ التسامح فيه وعدم الإكراه في الدين، وقال إن الحرية في الإسلام تبيح لغير المسلمين تحت ظل راية الإسلام الشيء الكثير ولكنه توقف عند نقطةٍ اعتقد أنها تشوه هذا المبدأ وأنها تنافي مبدأ العدل والمساواة ألا وهي منع المرأة المسلمة من الزواج برجلٍ غير مسلمٍ ولم يفهم الحكمة في هذا المنع.

ونحن نجيبه بأن الشريعة الإسلامية حرمت مثل هذا الزواج من المرأة المسلمة سواءً أكان الخاطب مشركاً لا يدين بنبيٍّ ولا بكتابٍ إلّهي أو كان كتابياً نصرانياً أو يهودياً لأن الزواج ليس حياةً موقتةً تمتد شهراً أو شهرين ولا سنةً أو سنتين ولكنه حياةٌ دائمةٌ مستمرةٌ يسكن فيها الرجل إلى المرأة وتسكن فيها المرأة إلى الرجل، وهي شركةٌ وتعاونٌ ومساواةٌ بين الزوجين في جميع الحقوق، ولا تقوم هذه الشركة إلا إذا بنيت على المحبة الخالصة والمودة المتبادلة واحترام كل من الشريكين للآخر احتراماً يتناول جميع أموره وخاصةً ما يتعلق بالجانب الديني منها، فالكتابي سواءٌ أكان يهودياً أم نصرانياً لا يؤمن بنبوة محمدٍ ﷺ وهو مكذبٌ له، وهو لا يجد من نفسه حرجاً ولا مانعاً من التعرض للنبي الكريم وانتقاده وسبه، ولا يجد مانعاً من نقد زوجته وتعنيفها لاتباعها هذا الرسول الكريم فتسوء العشرة بينهما من جراء ذلك فإما أن يتفرقا وإما أن تتحلل المرأة من دينها إرضاء لزوجها وكلا الأمرين شرٌ.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِراتٍ فَامتحنُوهُنَّ الله أَعْلَمُ بإِيمانِهِنّ فَإِنْ عَلِمتُموهنّ مُؤمناتٍ فلا تَرجِعُوهُنّ إلى الكُفَّارِ لَا هُنّ حِلٌ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنّ ﴾. قال الشعبي: كانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع فأسلمت ولحقت بالنبي ﷺ ثم أتى زوجها المدينة فأمنته فأسلم فردها عليه النبي ﷺ. قال الإمام ابن القيم: كانت المدة بين إسلامها وإسلامه أكثر من ثمانية عشرة سنةً، وقال الترمذي: إن أم حكيمٍ بنت الحارث بن هشامٍ أسلمت يوم الفتح بمكة وهرب زوجها عكرمة بن أبي جهلٍ من الإسلام حتى قدم اليمن، فارتحلت أم حكيمٍ حتى قدمت عليه باليمن فدعته إلى الإسلام فأسلم فقدم على رسول الله ﷺ عام الفتح فلما رآه وثب إليه فرحاً وما عليه رداءٌ حتى بايعه فثبتا على نكاحهما.

ومن المعروف أن الأنوثة ضعيفةٌ وأن الرجل دائماً هو صاحب التأثير البالغ فامرأته معرضةٌ للتأثر بآرائه إما خوفاً منه وإما رغبةً في استجلاب محبته، فإذا عرض عليه الإسلام وأسلم أعيدت إليه وإن لم يقبل فلا مجال لبقاء الزوجية بينهما.

تكريم الأم

اعتادت بعض البلاد في مثل هذه الأيام أن تكرم الأمهات وتدعو إلى احترامهن والبر بهن في يومٍ تخصصه في السنة لهـذه الغايـة تسميه (عيد الأم) والفكرة في حد ذاتها جميلةٌ ومقبولةٌ وإن كان الاسم غير مقبول ولو أطلقوا عليه اسم (يوم الأم) لكان أفضل . . ويتسابق الأبناء في هذا اليوم إلى تكريم أمهاتهن فيشتري كل واحدٍ منهم هديةً جميلةً يختارها بنفسه ويقدمها لأمه في احترامٍ بعد أن يقبل يدها، وتتقبل هي منه تلك الهدية في حنانٍ وابتسامٍ ممزوجين بقبلةٍ تطبعها على خده.

وأنا أعرف أحد الآباء ابتكر طريقةً لطيفةً للاحتفال بذلك اليوم علَّمها أولاده ونفذوها وهي أنهم قرروا أن يقوموا بأنفسهم بإنجاز أعمال البيت فأخذوا منذ الصباح الباكر في الكنس والمسح والترتيب وتهيئة طعامٍ تعلموا طريقة إعداده ومنعوا أمهم عن القيام بأي عملٍ معهم تكريماً لها، وكان لهذه الطريقة المبتكرة أجمل الأثر في نفوس أفراد الأسرة جميعاً.

ومن الواجب على الأبناء تكريم أمهم وأبيهم في كل يومٍ والقيام بحقهما الذي يوجبه الشرع ويقتضيه أما إذا اقتصر هذا التكريم على يومٍ في السنة فإن ذلك لا يعطي الثمرة المرجوة من الفكرة الموضوعة لها.

ويعلم القـراء أن أنـواعِ التكـريم التي أوجبهـا الشـرع الإسـلامي للوالدين لم تأت بمثلها شريعةٌ أخرى ولا أي نظامٍ من أنظمة البشر، ويكفي

تأييداً لذلك أن الله سبحانه قرن اسم الوالدين باسمه عزّ وجلّ حين قال: ﴿أَنْ اشكُرْ لي ولوالدَيْك﴾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي، قال: «أمك» قال: ثم من قال: «أمك» قال: ثم من قال: «أمك» قال: ثم من قال: «أبوك» رواه البخاري في صحيحه، قال العلماء سبب تقديم الأم هو كثرة تعبها وسهرها على الولد ووفرة شفقتها عليه وخدمتها إياه، وتحمل الآلام والمشاق في حمله ثم في وضعه ثم في إرضاعه ثم في تربيته وتمريضه. وروى سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها فسأل النبي ﷺ قائلاً: هل أديت حقها، فقال ﷺ: «لا، ولا بزفرةٍ واحدةٍ». وكان علي بن الحسين بن علي لا يأكلِ مع أمه فقال له رجلٌ: أنت من أبر الناس بأمك ولا نراك تؤاكلها فأجابه قائلاً: أخاف أن تسبق يدي إلى ما قد سبقت إليه عينها فأكون قد عققتها.. أي إنني أخاف أن أتناول لقمةً تحب هي أن تأكلها.

ومن هذا يتبين لنا أن المسلـم مكلفٌ بالبر بأمه وأبيه في كل وقتٍ وفي كل يومٍ، وهو يقوم بذلك راضياً مطمئناً إطاعةً لأمر ربه ولأمر رسوله ﷺ.

مِنْ أدَبِ النّفس

الإخـــلاص

أعمال الناس تتفق في ظاهرها وتختلف في دوافعها ومقاصدها، فأنت ترى اثنين كل واحدٍ منهما يعطي الفقير مبلغاً من المال فيستويان في نظرك لأن عمل الواحد منهما يشبه عمل الآخر ولكنك لو شققت عن قلبيهما واستطعت أن تعرف الغاية والهدف الذي قصدا إليه لاختلف حكمك عليهما، فمن الممكن أن يكون الأول قصد بعمله الرياء والسمعة والمفاخرة، وأن يكون الثاني قصد وجه الله وحده وكان ممن عناهم الله سبحانه بقوله: ﴿ إنّما نُطعِمُكُمْ لِوجْهِ الله لا نُريدُ منكمْ جَزاءً ولا شُكوراً ﴾. فالأمور بمقاصدها كما يقول علماء الأصول، وهي قاعدةٌ مأخوذةٌ من الحديث المعروف: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى».

والإسلام يطلب من المسلم أن يلزم الإخلاص في أقواله وأعماله وتصرفاته فلا يهدف منها إلى شهرةٍ ولا فخرٍ ولا سمعةٍ، بل يجب أن ينظر إلى ما وراء هذه الدنيا وأن يتجرد في عمله عن نوازع النفس الأمارة بالسوء، وأن يطلب رضى الله وحده فهو الذي يضرّ وينفع، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِين لاَ شَرِيكَ لَه﴾.

والقرآن الكريم قد أمر بالإخلاص في مواضع متعددةٍ كقوله تعالى: ﴿ وما أُمِرُوا إلّا لِيَعْبدُوا الله مُخلصين لَهُ الدِّينَ حُنفاءَ ﴾، والله سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم لا تشوبه شائبة رياءٍ ولا نفاقٍ. فالمسلم الحق لا يكون لعمله أو قوله وجهان ولا ظاهرٌ وباطنٌ، ولكنه يعمل

بوجهٍ واحد ولسانٍ واحدٍ لغايةٍ واحدةٍ، وكلمة الإخلاص كلمةٌ جميلةٌ في مبناها، عذبة اللفظ، رائعة المعنى، تسمو بروح صاحبها وتهذبها وينال صاحبها محبة الله سبحانه ومحبة الناس، ينشرحٍ قلبك عند لقائه وتهفو نفسك إلى تحيته والاجتماع إليه، وتجد لكلامه عذوبةً ويقع من نفسك موقع الرضى والقبول، والسبب في ذلك هو أنه ربط قلبه بالله وأخلص عمله لله، ففاز بمحبة الله، وإذا أحب الله عبداً حببه إلى خلقه.

وقد مدح الله سبحانه يوسف الصديق عليه السلام بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ﴾، فالله سبحانه صرف عنه السوء وبرأه من السقوط في مهاوي المعصية لأنه من العباد المخلصين.

فعلينا أن نلزم الإخلاص في سائر تصرفاتنا كي تكون أعمالنا مقبولةً عند الله سبحانه وتعالى.

نور الهداية

إذا توسخ ثوبك غسلته فعاد نظيفاً، وإذا توسخ قلبك غسلته فزال عنه ما علق به من الدرن أما الثوب فإنه يغسل في الدنيا بالماء والصابون، وأما القلب فيكون تنظيفه وجلاؤه بالذكر والاستغفار وقد ورد مثل هذا المعنى في الدعاء للميت، فأنت حين تؤدي صلاة الجنازة تدعو للميت بقولك: اللهم اغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.

والقلب يقسو ويلين، فإذا ارتكب العبد بعض الذنوب والمخالفات أحس بقسوةٍ في قلبه، فإذا سمع الموعظة شعر بأن قلبه يلين، ووصف الله سبحانه كتابه الكريم بأن الذين يخشون ربهم تقشعر منه جلودهم عند تلاوته ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، فهم إذا قرؤوا آيات الوعيد والعذاب خافوا واضطربت نفوسهم، فإذا تلوا آيات الرحمة لانت قلوبهم، وروى العباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة الباليةورقها»،ووصف الله سبحانه عباده المؤمنين بقوله: ﴿والذينَ إذا فَعلوا فاحِشةً أو ظلموا أنفُسَهمْ ذَكرَوا الله فاستغفروا لِذنوبهمْ ومَنْ يَغْفِرُ الذنوبَ إلا الله ولم يُصِرُّوا على ما فَعَلوا وهمْ يَعلمون﴾، فالاستغفار علاجٌ نافعٌ عظيمٌ وثوابه جزيلٌ وقد ورد أنه ما من عبد يذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر له وباب التوبة مفتوحٌ، وإذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح له باب الهداية والتوفيق.

كان عبدالله بن المبارك رضي الله عنه من كبار الصالحين والزاهدين،

سئل يوماً عن بدء زهده فقال: كنت يوماً مع إخواني في بستانٍ لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعاً بضرب العود والطنبور، فقمت في بعض الليل فضربت بالعود، وطائرٌ يصيح فوق رأسي على شجرةٍ والعود في يدي لا يجيبني إلى ما أريد، فسمعت صوتاً يقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُم لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ فانتبهت وقلت بلى والله، وكسرت العود، وصرفت من كان عندي فكان هذا أول زهدي وتشميري.

أما الفضيل بن عياضٍ شيخ الزاهدين فقد كان سبب توبته أنه عشق جاريةً فواعدته ليلاً فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئاً يقرأ ﴿ ألَمْ يأْنِ للذين آمنوا أنْ تَخشَعَ قلوبُهم لذِكْر الله وما نزلَ من الحق ﴾ فرجع القهقرى وهو يقول بلى والله قد آن، فآواه الليل إلى خربةٍ فيها جماعةٌ يقول بعضهم لبعضٍ إن فضيلاً يقطع الطريق، فقال: أواه أراني بالليل أسعى في معاصي الله، وقومٌ من المسلمين يخافونني اللهم إني قد تبت إليك.

مكايد إبليس

يعتبر إبليس العدو الأكبر للمسلم، فهو يجري منه مجرى الدم ويوسوس له آناء الليل وأطراف النهار، ويبذل جهده في غوايته وإضلاله، ويزين له المعصية، وقد أمرنا الله بعصيانه ومخالفته قال تعالى: ﴿ إنّ الشيطانَ لكمْ عدوٌّ فاتّخِذوه عَـدُوّاً ﴾.

وإبليس وذريته يأتون ابن آدم من جميع الجهات كما قال تعالى حكايةً عنه: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِن خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهمْ﴾ فهو يُزَيِّنُ لهمُ الدنيا التي هي بينَ أيديهمْ ويثبِّط هِمَمَهمْ عن الآخرةِ التي هي مِن خَلفِهِمْ، ويَصُـدُّهمْ عنِ الحقِ مِن أيْمانهم ويُـزَيِّنُ لهمُ البـاطـلَ مِن شمائِلهمْ .

قال شقيقٌ البَلْخِيُّ: ما مِنْ صَباحٍ إلاّ ويأتيني الشيطانُ مِن الجهاتِ الأربعِ ، مِن بين يديَّ ومِن خَلفي وعن يميني وعن شِمالي. أمّا بينَ يديَّ فيقولُ لا تَخفْ إن الله غفورٌ رحيم فأقرأ قوله تعالى: ﴿ وإنّي لغَفّارٌ لِمَنْ تابَ وآمَن وعَمِلَ صالِحاً ثم اهْتدى ﴾. . وأما من خلفي فيخوفني من وقوع أولادي في الفقر فأقرأ قوله تعالى: ﴿ وما مِن دابّةٍ في الأرض إلاّ على الله رِزقُها ﴾. وأما من قبل يميني فيأتيني من المدح والثناء فأقرأ قوله تعالى: ﴿وَحِيل بَيْنَهُم وبين ما يشتهون ﴾.

وقال ثابتٌ البناني رضي الله عنه: بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا

عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيءٍ فقال يحيى: يا إبليس ما هذه المعاليق التي أرى عليك؟ قال: هذه الشهوات التي أصيد بهن ابن آدم. قال: فهل لي فيها من شيءٍ؟ قال: ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة ونقلناك عن الذكر. قال فهل غير ذلك؟ قال لا. قال يحيى: لله عليّ أن لا أملأ بطني من طعامٍ أبداً. قال إبليس: وأنا لله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً.

وورد عن سليمان بن المغيرة عن ثابتٍ قال: لما بعث النبي ﷺ جعل إبليس لعنه الله يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي ﷺ فيجيئون إليه بصحفهم ليس فيها شيءٌ فيقول لهم ما لكم لا تصيبون منهم شيئاً؟ قالوا ما صحبنا قوماً مثل هؤلاء... فقال رويداً بهم فعسى أن تفتح لهم الدنيا هنالك تصيبون حاجتكم منهم.

كثرة طرق الخير

إذا أراد أحدنا سفراً أخذ يستعد له أمداً غير يسير، ويجمع الحوائج اللازمة له، والأمتعة التي لا غنىً له عنها هذا فضلاً عن الطعام والشراب وواسطة النقل ونفقات الرحلة، ويكلفه ذلك جهداً ومشقةً ومالاً، هذا في الدنيا فما بالك بالمسلم الذي يعلم علم اليقين أنه قادمٌ على ربه بعد الموت في سفرةٍ طويلةٍ لا بد له فيها من زادٍ وهو الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿ وتزوّدوا فإنّ خيرَ الزادِ التقوى ﴾، ومن نعم الله علينا أنه يسر علينا جمع الزاد لآخرتنا وجعل لنا طرق الخير كثيرةً وسهلةً وليس في كثيرٍ منها صعوبةٌ بل هي في متناول كل واحدٍ منا.

روى الإمام مسلمٌ في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ـ يعني ذهب أهل الأموال بالثواب والأجر ـ يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحةٍ صدقةً وكل تكبيرةٍ صدقةٌ وكل تحميدةٍ صدقةٌ وكل تهليلةٍ صدقةٌ، وأمرٌ بالمعروف صدقةٌ ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ وفي بضع أحدكم صدقةٌ» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه فيها وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ»..

وورد في حديثٍ آخر: «وإماطة الأذى عن الطريق صدقةٌ وتبسمك في وجه أخيك صدقةٌ». وهذا من سهولة الإسلام ويسره، فكل واحدٍ منا يستطيع

أن يستكثر من الخيرات في هذه الأعمال اليسيرة في ظاهرها والتي ينال فاعلها الأجر والثواب، وإن الواحد منا لا يعجز إذا لقي أخاه أو اجتمع بصديقه أن يبتسم في وجهه ابتسامة صفاءٍ وحب ومودةٍ ويقوي بها أواصر الصداقة، ولا يعجز أحدنا إذا رأى في طريقه حجراً يؤذي الناس أو جريدةً أو ورقةً مكتوبةً أو غصن شجرةٍ أو شوكاً أن يرفع ذلك كله بيده ويرميه في مكانٍ بعيدٍ عن طريق المارة، ولا يعجز أحدنا أن ينصح أخاه بلطفٍ وحكمة وأن يدعوه إلى عمل الخير أو ينهاه عن عملٍ غير لائقٍ ولا مقبولٍ شرعاً ولا أدباً، ولا يعجز أحدنا إذا كان سائراً في الطريق أو راكباً سيارةً أن يحرك لسانه بذكر الله والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير فينال الأجر والثواب من حيث يشعر أو من حيث لا يشعر، وقد ورد في الحديث: «أن رجلاً مر بغصن شجرة على ظهر طريق فقال والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأدخل الجنة» رواه مسلم. وورد أيضاً: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»، فبادر يا أخي إلى التزود من هذا الزاد اللطيف الجميل وفقك الله للخير.

شجاعة المسلمين

إن من يقرأ كتب السيرة والتاريخ والتراجم تأخذه الدهشة وتمتلىء نفسه إكباراً لهذه الأمثلة الرائعة التي ضربها أجدادنا المسلمون في ميادين القتال والجهاد، وما أبدوه من أفانين الشجاعة البارعة والجرأة الخارقة مقترنةً بالتقوى والصلاح والعبادة، مما لا يوجد مثله لأمةٍ من الأمم في مشارق الأرض ومغاربها على مر العصور وكر الدهور، وكانوا كما وصفهم أحد المؤرخين المنصفين فرساناً في النهار، رهباناً في الليل.

لقد كانت قلوبهم تنطوي على الغيرة الشديدة على دينهم وعقيدتهم وكرامتهم، فكانوا لا يدخرون وسعاً في الذود عن الواجب وتأييد الحق ونصرة الدين لإعلاء كلمة الله مهما كلفهم ذلك من التضحية في الأموال والأنفس، فلم تهن لهم في سبيل الله عزيمةٌ ولم تضعف لهم إرادةٌ ولم تفتر لهم قوةٌ بل كانوا يقبلون على الموت برغبةٍ صادقةٍ اعتقاداً منهم بأن الجنة بانتظارهم بكل ما فيها من راحةٍ ونعيمٍ، حتى قال أحد قوادهم مخاطباً الأعداء: لقد جئتكم بقومٍ يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة، وبذلك أعلى الله قدرهم ودانت لهم رقاب أعدائهم وخضعت لسيوفهم وشوكتهم رقاب العتاة المتغطرسين وأصبحوا سادة الدنيا وحكام الأرض.

والأمثلة على شجاعة أجدادنا أكثر من أن تحصى، وكتب التاريخ حافلةٌ بها، وفي كل صفحةٍ منها مثالٌ رائعٌ مشرقٌ، ولكننا مع الأسف نجهل تاريخنا.

روى البخاري في صحيحه عن أنسٍ رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدرٍ، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتالٍ قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحدٍ وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء- يعني المشركين- ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذٍ فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد. قال سعدٌ: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنسٌ: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربةً بالسيف، أو طعنةً برمحٍ أو رميةً بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحدٌ إلا أخته ببنانه. قال أنسٌ: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿ مِنَ المؤمنينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عَاهدوا الله عليهِ، فمِنهمْ مَن قضىٰ نَحْبَه ومنهمْ مَنْ يَنتظِرُ وما بَدّلوا تَبْدِيلاً ﴾.

الـرحمـــة

الرحمة من أشرف الخصال وأكرم الأخلاق، وقد وصف الله سبحانه بها نفسه في مواضع كثيرةٍ في القرآن الكريم، وورد في الحديث أن الله رحيمٌ وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، وورد في الحديث القدسي: «سبقت رحمتي غضبي» وقال ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، وقد حث الإسلام على التواضع والرحمة والشفقة ونفر من القسوة والكبرياء، وإن القلب القاسي أبعد القلوب عن رحمة الله، وقد دخلت امرأةٌ النار في هرةٍ حبستها وتركتها من غير طعامٍ.

وقد مثل الله سبحانه للقلب القاسي بالحجر أو أشد قسوةً وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله.

ولو أن قلوب الأغنياء امتلأت بالرحمة والشفقة لما أبغضهم الفقراء، بل كانوا يعيشون معهم إخوةً متحابين متعاونيين كما وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿ أَشِدَّاءُ على الكُفارِ رُحَماءُ بينهِمْ ﴾، وما أجمل المجتمع الذي يعيش فيه الفقير إلى جانب الغني في أخوةٍ صادقةٍ وتفاهمٍ وتعاونٍ، وهذه هي الرحمة التي دعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو خليفة المسلمين إلى أن يخدم عجوزاً من المسلمات ويحمل لأخرى الطحين على ظهره ويشعل الحطب والنار ويطعم الصبية الصغار.

وإن مواساة الأهل والإخوان، والعطف على الأصحاب والجيـران، والشفقة عل المحتاجين والفقراء من أفضل الأعمال التي دعا إليها الشارع الحكيم ورغب فيها وندب إليها، وهي من آثار الرحمة الإلَهية التي قامت بها السموات والأرض. وورد في الصحيحين عن جريرٍ أن رسول الله ﷺ قال: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»، وعن أبي هريرة: لا تنزع الرحمة إلا من شقيٍّ.

وقبل النبي ﷺ حفيده الحسن بن علي رضي الله عنهما، وكان الأقرع بن حابسٍ جالساً عنده فقال الأقرع: إن لي عشرةً من الولد ما قبلت أحداً منهم فنظر إليه ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم»..

والرحمة تشمل الإنسان وتشمل الحيوان وقد ورد في الحديث: «بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ اشتد علـيـه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج وإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسك بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله له تعالى فغفر له». قال: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبدٍ رطبةٍ أجرٌ»... نسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا رحمةً.

الرحمة والشفقة

الرحمة أثرٌ من آثار الإيمان، تدفع إليها العواطف النبيلة ويدعو إليها الشعور الصادق والاحساس الشريف وقد وصف الله بها نفسه في مواضع كثيرةٍ من كتابه الكريم كقوله تعالى: ﴿ بِالمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيم ﴾، أما القسوة فهي من صفات الجاحدين الذين لا يؤمنون بالله، ولا يصح ولا ينبغي أن يقيم أصحابها بين بني الإنسان لأنها من صفات الوحوش المفترسة، وحسبهم قبحاً أن الله سبحانه شبه قلوبهم بالحجارة بقوله: ﴿ثم قَسَتْ قلوبُكُمْ مِن بعدِ ذلك فهي كالحجارةِ أو أشَدُّ قِسوةً، وإنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾، وحسبهم أيضاً قول الرسول الكريم ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقيٍّ». وإن ما نشاهده اليوم من آثار الحروب والتعديات والأحكام الجائرة وأنواع التعذيب ليس إلا نتيجةً لنزع الرحمة من القلوب وخلو النفوس من الشفقة والبعد عن معاني الإيمان وقد عاقب الله سبحانه اليهود حين نقضوا العهود والمواثيق وقال فيهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُم لَعَنَّاهُم وَجَعَلْنَا قُلوبَهُم قَاسِيةً﴾ أي غليظة خاليةً من الإيمان، واللعن هو الطرد من رحمة الله.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا قضى الله الخلق كتب في كتابٍ على نفسه فهو موضوعٌ عنده أن رحمتي تغلب غضبي» رواه مسلم وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ لِمَنْ ما في السَّمَاوَاتِ والأَرض قُلْ لله كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ﴾ أيْ إنّها

وسِعت كلَ شيء مِن الخلقِ حتى إنّ البهيمةَ لها رحمةٌ وعطف على ولدِها ، والإسلام يحث على الرفق بالحيوان فضلاً عن الإنسان وينهى عن تعذيبه، وقد خرج الإمام مسلم في صحيحه عن شداد بن أوسٍ قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شيءٍ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

ولهذا السبب لا يستحب أن يحد السكين أمام الحيوان الذي يريد أن يذبحه، ويكره أن يذبح حيواناً أمام حيوانٍ آخر ونهى النبي ﷺ أن تصبّر البهائم أي أن تحبس وهي حيةٌ لتقتل بالرمي أو بغيره ونهى أن يتخذ شيءٌ فيه الروح غرضاً، ومر ابن عمر رضي الله عنهما بنفرٍ قد نصبوا دجاجةً يترامونها أي يرميها كل واحدٍ منهم بسهمٍ فقال ابن عمر: إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا ونحن نشير بهذه المناسبة إلى حفلات مصارعة الثيران التي يقيمها قومٌ يدعون الرقي والمدنية لأنها اتخاذ الحيوان غرضاً وفيها تعذيبٌ له وإتلافٌ لنفسه وهو مما تأباه النفس الرحيمة الشفوقة.

عيوب النفس

كل واحدٍ منا تعجبه نفسه، ويعتقد أن آراءه صائبةٌ وأن أخلاقه حسنةٌ، وينتقد الناس ويرى نقائصهم وعيوببهم ولكنه عاجزٌ عن معرفة عيوب نفسه، لا يستطيع أن يراها، مثله في ذلك مثل العين في الوجه، فأنت تستطيع أن ترى بعينك القريب والبعيد، والأسود والأبيض وأن تميز بين الأشياء وأن تفحص الثوب وتعرف العيب الذي فيه، ولكنك لا تستطيع أن ترى عينك التي هي في وجهك إلا إذا استعنت بالمرآة.

والمرآة هنا هي الأخ الصالح والصديق الناصح الذي يعاشرك ويعرف أحوالك وطباعك ولا يجاملك ابتغاء نيل رضاك بل يذكر لك العيوب التي رآها فيك وينبهك عليها وينصحك بتركها. وعلى هذه الخطة سار سلفنا الصالح فقد كانوا يتناصحون ويتصارحون ولا يعمدون إلى المجاملة والمداهنة وستر العيوب منفذين قول الله تعالى حين وصف المؤمنين بأنهم يَتـواصَـوْنَ بالحقِ ويتواصون بالصبر، وقد قيل قديماً إن أخاك من صَدَقك لا من صَدَّقك.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي فجعل التصريح بعيوبه كالهدية التي يقدمها إليه صاحبه وصديقه، وكان يسأل حذيفة رضي الله عنه ويقول له: أنت صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين فهل ترى عليّ شيئاً من آثار النفاق؟ فهو على جلالة قدره وعلو منزلته كان يتهم نفسه.

والعيب في النفس كالمرض في البدن، فإذا عرضت نفسك على الطبيب واطلع على مرضٍ فيك ثم أخفاه عنك من باب المجاملة كان غاشاً لك وخائناً الأمانة التي كلف بحملها، والصديق الوفي الناصح يشبه الطبيب، فإن حق الأخوة والصحبة والوفاء يوجب عليه أن يبين لك الخطأ الذي صدر فيك والعيب الذي رآه فيك بأسلوبٍ مهذبٍ ليست فيه قسوةٌ ولا شدةٌ.

وهناك طريقٌ آخر لمعرفة عيوب النفس هو كلام الخصوم والأعداء، لأن عين السخط تبدي المساوي كما يقول الشاعر، ولعل انتفاع الإنسان بخصمٍ مجاهرٍ بالعداوة أكثر من انتفاعه بصديقٍ مراءٍ مداهنٍ فالعدو يبالغ في نشر نقائصك وعيوبك بين الناس، فالعاقل يغتنم هذه الفرصة وينتفع بقول عدوه ويبذل جهده في التخلص من العيب الذي يتبين وجوده فيه، قال الحسن: المؤمن مرآة أخيه إن رأى منه ما لا يعجبه سدده وقومه ونصحه.

العفة والنزاهة

إذا امتنع الإنسان عن فعل ما لا يحل له، وكف عن القيام بعملٍ لا يجمل به ولا يليق سمي عفيفاً والعفة من أسمى الفضائل التي يتصف بها الصالحون وأهل الخير، فهم يبتعدون عن الأعمال الدنيئة وعن الأفعال المذمومة المستهجنة ويرتفعون بنفوسهم الشريفة عنها امتثالاً منهم للأخلاق الفاضلة الكريمة وحفظاً لأقدارهم من أن يهبطوا بها إلى درجةٍ لا ترضى بها المروءة.

ورأس العفة هو ضبط النفس عن الشهوات البدنية والملاذ الحيوانية، والابتعاد عن كل ما يشينها ويخدش كرامتها. وتكون العفة في اليد واللسان والسمع والبصر.

أما عفة اليد فهي الامتناع عن أخذ أموال الناس بالباطل وسلبهم حقوقهم قال تعالى: ﴿ولا تأكُلوا أموالَكُمْ بينكم بالباطِلِ وتُدْلوا بِها إلى الحُكّامِ لِتأكُلوا فريقاً مِنْ أموالِ الناسِ بالإِثْمِ وأنتم تعلمون﴾، فالتاجر العفيف لا يطمع في مال المشتري بزيادة الثمن فوق الحد المتعارف عليه ولا يخدعه ولا يكذب عليه ولا يغشه ليأخذ ماله بغير حقٍ. والموظف الأمين لا يخون أمانة الوظيفة التي كلف بها ولا يمد يده إلى أصحاب المصالح بأخذ الرشوة لتسهيل معاملاتهم وتيسير أمورهم، ولا يمد يده إلى بيت المال ليختلس منه المال الذي حرم الله عليه أخذه، والوصي على اليتيم يمتنع عن أخذ أمواله ظلماً وعدواناً، مطيعاً ربه عزّ وجلّ إذ يخاطبه بقوله: ﴿وآتُوا

اليتامى أموالَهُمْ ولا تَتبدَّلوا الخبيثَ بالطَّيّبِ ولا تأكلوا أموالَهُمْ إلى أموالِكُمْ إنّه كان حُوباً كبيراً﴾.

أمّا عِفَّةُ اللِسانِ فهي تعوْيدُه النُطْقَ بالخيرِ والكلامِ الطّيبِ والنُصْحِ والإرشادِ، وتَرْكِ الكَذِبِ والمُبالغةِ في الحديثِ، والغيبةِ والطعنِ في أعْراضِ الناسِ وتركِ الفاحِشِ مِنَ الأقوالِ والسخريةِ والاستهزاءِ بالناس وإهانتِهِمْ والتنابُزِ بالألقاب.

وأمّا عِفَّةُ السَمْعِ فهي حُضُور مَجالِسِ العِلْمِ والفضلِ والاستماعُ إلى الأحاديثِ النافعةِ والإصغاء إلى كلامِ الخيرِ والصلاحِ وتَجنُبُ الاستماع إلى فُحْشِ القولِ وعَدَمُ الاصغاءِ إلى المُجونِ والكلامِ الغَثِّ الفـارغِ الذي لا يُفيدُ في دينٍ ولا دُنيا كما هي الحالُ في أكثرِ مَجالِس الناس في هذه الأيامِ قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْه ﴾.

وأما عفة البصر فهي غض البصر عن المحارم وعما لا يحل النظر إليه قال تعالى: ﴿ولا تَمُدَّنَّ عينَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا به أزواجاً منهمْ زهرةَ الحياةِ الدنيا﴾. وقد ورد في الأثر أن الله حرم على النار عيناً غضت عن محارم الله.

دواء الخوف

الخوف مرضٌ من الأمراض التي تصيب النفس في حالات الشدة والضيق، أو عند الوقوع في أزمةٍ ماليةٍ، أو في ورطةٍ صعبةٍ لا يعرف الإنسان طريقاً للخلاص منها. . وقد يشعر الإنسان بالخوف عند وقوعه بين يدي ظالمٍ لا يعرف قلبه معنى الرحمة ولا طعم الشفقة، وكثيراً ما يحدث الخوف ويتسلط على النفس في حالات الكوارث كالزلازل والفيضانات أو في ساعات الحرب حين يلتقي الفريقان وجهاً لوجهٍ في ساحة المعركة، ففي تلك الساعة الرهيبة يثبت الشجاع الباسل ويتخاذل الجبان الرعديد.

وقد حدث في غزوة بدرٍ الكبرى حين التقى المسلمون بالمشركين، إن الخوف خالط نفوس بعض المسلمين بسبب قلة عددهم وكثرة عدد عدوهم وعدده، والخائف يحس بالقلق، ويفقد السيطرة على نفسه فيضطرب ويتخاذل، فلا يستقر على حالٍ، ويذهب النعاس من عينيه مهما كان في حاجةٍ إلى النوم، فلما وقع المسلمون في هذا الوضع المضطرب من الخوف كان من نعمة الله عليهم أن ألقى في عيونهم النعاس ليزول عنهم ما أصابهم. قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاس أَمَنَةً مِنهُ ﴾ أي إنه يلقيه على أعينكم فيجعله كالغطاء عليها. والنعاس هو فتورٌ في الحواس وفي أعصاب الرأس، يعقبه النوم، فهو مقدمةٌ للنوم يضعف الإدراك ولا يزيله فيبقى صاحبه بين النائم واليقظان، وقوله تعالى: ﴿ أَمَنَةً مِنهُ ﴾ أي أماناً من الله لكم من عدوكم لئلا يغلبكم. قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: النعاس في

القتال أمنةٌ من الله والنعاس في الصلاة من الشيطان، وبما أن الخائف على نفسه لا يستطيع النوم فصار وقوع النوم في هذه الحال أماناً لصاحبه من الاضطراب والقلق.

ولما تغشاهم النعاس ناموا نوماً خفيفاً واستراحت أبدانهم واطمأنت نفوسهم. يروى عن علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه أنه قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بدرٍ غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائمٌ إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرةٍ حتى أصبح. وإن قوله تعالى: ﴿ أَمَنَةً مِنهُ ﴾ يشير إلى أن هذا النوم أو النعاس كان فضلاً من الله عليهم ونعمةً كي يزول خوفهم واضطرابهم وتستعيد نفوسهم هدوءها وراحتها، فكانت نتيجة ذلك النصر الساحق على المشركين بالرغم من قلة العدد والعدد، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

سعة الصدر

سمعت قصةً عن رجلٍ طلق زوجته في ساعة غضبٍ، فقد عاد إلى منزله يوماً منهكاً مكدوداً من عناء العمل ودخل داره يأمل أن يجد من عطف زوجته عليه ما ينسيه تعبه، وكانت هي متعبةً من أعمال البيت ومداراة الأولاد وجلست تنتظر زوجها ترجو أن تجد من عطفه عليها ما ينسيها متاعبها فلما رأته داخلاً كئيب الوجه فاتر التحية تألمت منه وأعرضت عنه، ولما رآها قد أعرضت عنه سخط عليها وغضب منها وانتظر أن تعتذر منه وانتظرت هي منه مثل ذلك، ثم انفجر المكتوم من غيظه فصاح بها، وصاحت هي به واشتدت بينهما الملاسنة فما كان منه إلا أن أوقع عليها الطلاق وانهار بذلك بيت الزوجية.

فذكرتني هذه القصة بعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال له أحد جفاة الأعراب: والله إنك ما تقضي بالعدل ولا تعطي الجزل فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه فقال له أحد جلسائه: ألم تسمع يا أمير المؤمنين قول الله تعالى: ﴿ خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عنِ الجاهلين؟ ﴾ وإن هذا الرجل من الجاهلين فسكن عمر رضي الله عنه وعفا عنه.

ويروى أن رجلاً قال لمعاوية رضي الله عنه: ما أشبه استك بإست أمك فقال معاوية: ذاك الذي أعجب أبا سفيان منها، وقسم يوماً قطفاً فأعطى شيخاً منها قطيفةً فلم يرضها وأقسم أن يضرب بها رأس معاوية فأتاه وأخبره بقسمه فقال له معاوية: أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ.

ولا شك أن سعة الصدر وضبط النفس يحتاجان إلى إرادةٍ قويةٍ ومجاهدةٍ طويلة حتى يصير الحلم خلقاً راسخاً، وقد قيل قديماً (العلم بالتعلم والحلم بالتحلم) والغضب لا يزول بالرياضة لأنه متأصلٌ في النفس ولكنها تفيد المرء في السيطرة على نفسه فلا يخرجه الغضب عن قيود الشرع ولا عن حدود العقل ويجب على المرء أن يتفكر في النصوص الواردة في فضل كظم الغيظ والعفو واحتمال الأذى رجاء نيل الثواب، وعليه أن يخوف نفسه من عقاب الله، وأن يتفكر في قبح صورته في حال الغضب.

قال المعتمر بن سليمان: كان رجلٌ ممن كان قبلكم يغضب أحياناً ويشتد غضبه فكتب ثلاث صحائف وأعطى كل صحيفةٍ رجلاً من جلسائه وقال للأول: إذا اشتد غضبي فناولني الصحيفة الأولى وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناولني الثانية وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فناولني الثالثة وكان مكتوباً في الأولى: أقصر عن هذا الغضب إنك لست بإلٰهٍ إنما أنت بشرٌ يوشك أن يأكل بعضك بعضاً، وكان مكتوباً في الثانية: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء وكان مكتوباً في الثالثة: احمل عباد الله على العدل فإنه لا يصلحهم إلا ذلك.

الـــريـــــاء

الرياء هو طلب الجاه والمنزلة بالعبادات وهو حرامٌ قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ للمُصَلِّين الـذينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِم سَـاهُونَ الَّـذِينَ هُمْ يُراؤونَ وَيَمْنَعُـونَ المَاعُونَ ﴾. وورَدَ في الأثر لا يقبل الله عزّ وجلّ عملاً فيه مثقال ذرةٍ من رياء.. ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يطأطيء رقبته فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلب.

والرياء مشتقٌّ من الرؤية وأصله أن يراه الناس يفعل الخير طلباً للمنزلة في قلوبهم، ويكون في الهيئة وبالقول وبالعمل وبالعبادة وبغيرها، كمن يطيل في صلاته أمام الناس لينال ثناءهم أو يتنفل بالصوم لأجل الخلق، أو يتظاهر بالورع والتقوى لينال وظيفةً أو منصباً.

وقد وصف الله المنافقين بقوله: ﴿إنَّ المُنَافِقِين يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُم وَإذَا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إلاّ قَليلاً﴾، والمرائي يظهر العبادة وفعل الخير ليراه الناس ولا يقصد بذلك وجه الله تعالى، وقال تعالى: ﴿ لا تُبْطِلوا صَدقاتِكمْ بالمَنِّ والأذى كالذي يُنفِقُ مالَه رِئَاءِ النـاس ﴾ أي ليمدحه الناس وليقولوا عنه إنه كريمٌ وجوادٌ، وإن الذي يقصد بنفقته الرياء والسمعة لا ينال الثواب لأنه لم يقصد بذلك وجه الله. وروي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين».

وروى الدارقطني عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء يوم القيامة بصحفٍ مختمةٍ فتنصب بين يدي الله تعالى فيقول الله تعالى للملائكة: أَلْقُوا هَذَا واقْبَلوا هذا فتقولُ الملائكةُ وعزّتك ما رأَيْنا إلاّ خَيْراً فيقول الله عزّ وجلّ - وهو أعلم -: إنّ هـذا كانَ لِغَيْري ولا أَقْبَلُ اليومَ مِن العملِ إلاّ ما كانَ ابْتُغِيَ به وَجْهي».

وقال سهل بن عبدالله التستري رضي الله عنه: الرياء على ثلاثة وجوهٍ أحدها أن يعقد في أصل فعله لغير الله ويريد به أن يعرف أنه لله فهذا صنفٌ من النفاق وتشككٌ في الإيمان. والثاني يدخل في الشيء لله فإذا اطلع عليه غير الله نشط فهذا إذا تاب يعيد جميع ما عمل. والثالث دخل في العمل بالإخلاص وخرج به لله فعرف بذلك ومدح عليه وسكن إلى مدحهم فهذا الرياء الذي نهى الله عنه.

وقد ورد عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟» قال: فقلنا بلى يا رسول الله فقال: «الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجلٍ». صدق رسول الله.

اليـــأس

كثيرٌ من الناس ينظرون إلى الحياة بمنظارٍ أسود، فينظرون إلى شرورها وعيوبها، ثم ينظرون إلى حياتهم الخاصة بعين التشاؤم فلا يعجبهم فيها شيءٌ، يرى الواحد منهم من هو أكثر منه مالاً فيتألم في قرارة نفسه لفقره وضيق ذات يده، وإذا أصابه وجعٌ في بدنه كثر تشكيه وتبرمه بالحياة فتضطرب حياته وتخمد جذوة نشاطه، وتضعف همته، وما استولى اليأس على نفس أحدٍ إلا قوض آمالها وأضعف قواها، وهو نتيجةٌ للقلق والحزن والهم، وكان النبي ﷺ يدعو ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل ويقول: رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري».

وقد عالج الإسلام الضيق الـذي يعتري النفس فـدعا المسلم إلى الطمأنينة وربط القلب بالله ونبذ القلق، قال تعالى: ﴿ الذين آمنوا وتَطْمَئِنُّ قلوبُهمْ بذِكْرِ الله ألاَ بذكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القُلُوب ﴾ والمسلم يثق بعدل الله سبحانه، ويعتقد أن ما يحدث له من المصائب والآلام النفسية والأوجاع البدنية مقسومٌ له ومقدرٌ له من قبل الحكيم الخبير فهو يتقبل ما يسره كما يتقبل ما يضره بقلبٍ مطمئنٍ معتقداً أن ذلك كله خيرٌ لـه مهما خفيت الحكمة منه، وهو يعلم أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ويقرأ قوله تعالى: ﴿ وعسى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئَاً وَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ وَعَسَى أن تُحِبُّوا شَيْئَاً وَهُوَ شرٌ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُم لا تَعْلَمُون ﴾.

ولو نظَرْنا إلى التشّاؤمِ وفكّرْنا في حقيقتِه لرأَيْناه سُوءَ ظَنٍّ بالله مِن غيرِ

سَبَبٍ واضحٍ مُحَقَّقٍ والتفاؤلُ هو حُسْنُ ظنٍ بالله ويقينٍ بلُطفِه وعَدْلِه قال تعالى: ﴿ إنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ الله إلّا القومُ الكافرون ﴾.

روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «اليمن حسن الخلق والشؤم سوء الخلق». فالمتشائم يغفل عن قضاء الله وقدره ويخالط الخوف قلبه فيجلب له الهم والحزن ويسوء خلقه. أما التفاؤل فإنه يشرح الصدر، وقد قيل: تفاءلوا بالخير تجدوه فعلى المسلم أن يستبشر ويتفاءل، فإن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسراً، ومن ذكر ربَّه في حال صحته ذكره الله في حال مرضه، وإذا ذكره في غناه ذكره الله في فقره، ومن تعرف إلى الله في الرخاء تعرف إليه في الشدة، وأعظم علاجٍ لمحاربة القنوط واليأس والتشاؤم هو قوة الإيمان ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾.

الخلق النبيل

الأخلاق الفاضلة محبوبةٌ ومطلوبةٌ، وعلى رأسها الحياء فهو خلقٌ جميلٌ ونبيل، ومن تحلى به فقد تحلى بأبهى صورةٍ ونال أكرم منزلةٍ، وورد في الحديث الشريف: «ما كان الفحش في شيءٍ إلا شانه وما كان الحياء في شيءٍ إلا زانه»، وكل ما نراه من بذاءةٍ في الأقوال وتكشفٍ في النساء ووقاحةٍ في الأفعال فإن مصدره قلة الحياء، والإنسان إذا لم يستحي من الله ولا من الناس لم يبال بما يصدر عنه من أقوال أو أفعال وهذا مصداق ما روي عن ابن مسعود قال: كان آخر ما حفظ من كلام النبوة: «إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت». لأن الحياء هو الذي يكف النفس عن السيئات ويردعها عن المعاصي ويمنعها من إتيان المنكرات. والنفس أمارةٌ بالسوء وهي بطبيعتها تميل إلى ارتكاب المعاصي لأنها تشعر بلذتها، فيأتي الحياء رادعاً لها يكبح جماحها ويمنعها عن الوقوع في المخالفات ويحول بينها وبين الأفعال الذميمة.

وقد فهم أجدادنا الإسلام على حقيقته فاستحيوا من الله حق الحياء فصار أحدهم إذا أراد أن يغتسل جمع أعضاء جسمه بعضها إلى بعضٍ وقارب بينها جهد المستطاع ووضع ثوبه قريباً منه كي يسرع إلى ارتدائه في أقرب وقتٍ. وروى أنسٌ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الحياء شعبةٌ من الإيمان». قال ابن عمر رضي الله عنه: الحياء والإيمان مقرونان جميعاً فإذا رفع أحدهما ارتفع الآخر.

وعرفه بعض العلماء فقال الحياء: انقباض النفس عن القبائح والامتناع

عن بعض الأعمال خوفاً من مواقعة القبيح، وعرفه آخرون بأنه: تغير وانكسارٌ يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم عليه.

قال الإمام الشعبي: تعايش الناس زماناً بالدين والتقوى، ثم رفع ذلك فتعايشوا بالحياء والتذمم، ثم رفع ذلك فما يتعايش الناس إلا بالرغبة والرهبة وأظنه سيجيء ما هو أشد من هذا.. وأنا أظن أن الشعبي يقصد زماننا هذا.

ونختم كلمتنا هذه بأن الحياء مطلوبٌ دائماً إلا في طلب العلم فإنه مذمومٌ، لأن العلم لا يناله مستحيٍ ولا خجولٍ ولا متكبر قالت عائشة رضي الله عنها: نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين.

قرين السوء

من أضر الأشياء على الإنسان أن يكون له أصحابٌ فاسدون، وبما أن المرء محتاجٌ إلى الأصدقاء والأصحاب لأنه لا يستطيع الحياة وحده في هذا المجتمع فلا بد له من أن يحسن اختيار إخوانه وأصحابه فإذا اطمأن إلى أحدهم في دينه وخلقه حرص عليه وتمسك به وإذا ظهر له من صاحبٍ آخر خلاف ذلك عمل على تركه وقطع صلته به، وقد ورد في الحديث الشريف: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل». وقالت الحكماء: إن مثل الصديقين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: لا تصحب إلا أحد رجلين رجلاً ترتفق به في أمر دنياك أو رجلاً تزيد معه وتنتفع به في أمر آخرتك، والاشتغال بغير هذين الصديقين حمقٌ ظاهرٌ وخطأٌ كبير فلا خير في صحبة الأحمق لأن العقل رأس مال الإنسان، ولا خير في صحبة الفاسق بل يجب هجره لأن مخالطته تهون على المرء ارتكاب المعصية، ولا يوثق بصداقة امرىءٍ لا يخاف ربه.

قال أبو الأسود الدؤلي رضي الله عنه: ما خلق الله خلقاً أضر من الصاحب السوء.. وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾، أي أن من يعرض عن ذكر الله تعالى إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم نجعل له شيطاناً يكون قريباً له يمنعه من الحلال ويبعثه على الحرام وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية قال ذلك ابن عباس رضي الله عنه وقال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُم قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا

خَلْفَهُم﴾، فهؤلاء القرناء من الشياطين ومن الأنس يزينون لهم المعاصي ويحسنونها عندهم حتى يألفوها ويستسهلوها، ويصرفونهم عن ذكر الله وعن الاستعداد للآخرة ويرغبونهم في الدنيا ولذاتها ومتاعها الزائل فتكون النتيجة أن يحق عليهم القول ويقع بهم العذاب. وقد ورد في الحديث عن أنسٍ عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «مثل الجليس الصالح مثل العطار إن لم ينلك منه أصابك من ريحه ومثل جليس السوء مثل القين ـ أي الحداد ـ إن لم تصبك ناره أصابك شراره».

وما أحسن قول الشاعر ابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
إذا انقلب الصديق غدا عدواً مبيناً والأمور إلى انقلاب

أصول الفضائل (١)

في القرآن الكريم آيةٌ قصيرةٌ ذات كلماتٍ معدودة جمعت أطـراف الفضائل وأصول الأخلاق والمكارم وهي قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عنِ الجاهلين ﴾. قال الإمام جعفر الصادق: ليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكـارم الأخلاق من هذه الآية. . وما قاله صحيحٌ لأنها تضمنت قواعد الشريعة فيما أمرت به وفيما نهت عنه، فالمؤمن في معاملته مع الناس يقبل من أخلاقهم ما يراه حسناً ويغض النظر عن هفواتهم ويأخذهم بالرفق ولا يقابل السيئة بمثلها ولكن يعفو ويصفح وإن مقـابلة المسيء بالعفو والصفح تجعله يتنبه للخطأ الذي صدر عنه ويتراجع عنه ويصبح بعد ذلك أطيب نفساً وأوسع قلباً.

ورد في سبب نزول هذه الآية أن جابر بن سليمٍ قال: ركبت قعودي ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله ﷺ فأنخت قعودي بباب المسجد فدلوني على رسول الله ﷺ فإذا هو جالسٌ، عليه بردٌ من صوفٍ فيه طرائق حمرٌ فقلت: السلام عليك يا رسول الله فقال: «وعليك السلام» فقلت: إنا معشر أهل البادية قومٌ فينا الجفاء فعلمني كلماتٍ ينفعني الله بها، قال: «أدن» ثلاثاً فدنوت فقال أعد عليّ فأعدت عليه فقال: «اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئاً وأن تلقى أخاك بوجهٍ منبسطٍ وأن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وإن امرؤٌ سبك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعلٌ لك أجراً وعليه وزراً، ولا تسبن شيئاً مما خولك الله تعالى». قال الرجل: فوالذي نفسي بيده ما سببت بعده شاةً ولا بعيراً. .

ومن الملاحظ أن مقابلة الغضب بالغضب والسباب بالسباب يوسع شقة الخلاف بينك وبين صاحبك وقد يؤدي ذلك إلى المضاربة ولا يستبعد وقوع جريمةٍ في تلك الساعة الشيطانية التي يفقد فيها المرء اتزانه وتفكيره، ولذلك كان الصمت والعفو في مثل هذه الحال من أعظم المواقف وأحسن الأخلاق، ولذلك ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «أمرني ربي بتسعٍ الإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني وأصل من قطعني وأن يكون نطقي ذكراً وصمتي فكراً ونظري عبرةً».

وكان من عادة العرب في الجاهلية المسارعة إلى الانتقام والأخذ بالثأر وكانت تشتد الخلافات بينهم بسبب ذلك وتسفك الدماء فلما جاء الإسلام دلهم على طريق العفو والصفح فتركوا تلك العادة القبيحة المستهجنة.

أصول الفضائل (٢)

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿خُذِ العفوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعرِضْ عن الجاهلين﴾. وهذه الآية الكريمة من الآيات الجامعة لخصال الخير وأنواع الفضائل، وقد ذكرنا فضيلة العفو والصفح.

أما الأمر بالعرف فهو الأمر بكل خصلةٍ حسنةٍ وخلقٍ كريمٍ. ورد في الحديث الشريف عن تميمٍ الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة»، قيل: لمن يا رسول الله قال: «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»، وقال الحسن: المؤمن شعبةٌ من المؤمن وهو مرآة أخيه إن رأى منه ما لا يعجبه سدده وقومه.

ولا شك أن الأمر بالمعروف هو الدستور الواضح للأخلاق التي يجب أن يراعيها المؤمنون في تصرفاتهم ومعاملاتهم، ويجب على كل مسلم أن يكون من الداعين إلى الإصلاح ومن العاملين في مجال الخير. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاس تَأْمُرونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ المُنْكَرِ﴾..

وذكر المؤرخون أن الخليفة أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه لما ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قضاء المدينة لبث عمر سنةً كاملةً لم يرفع إليه فيها قضيةٌ ولا دعوى فطلب إعفاءه من القضاء ولما سأله أبو بكرٍ عن السبب في ذلك قال: إنّ قوماً يوقر صغيرهم كبيرهم، ويرحم كبيرهم صغيرهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ينصفون أعداءهم من أنفسهم القوي عندهم ضعيفٌ حتى يؤخذ الحق فيه والضعيف عندهم قويٌّ حتى يؤخذ الحق له، إذا

مرض أحدهم عادوه وإذا مات شيعوه.. إن قوماً هذا شأنهم لا حاجة لهم بقضاء عمر.

أما الإعراض عن الجاهلين فهم السفهاء، والإعراض عنهم يكون بترك معاشرتهم ومخالطتهم. قال الإمام القرطبي: إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم، وهذا وإن كان خطاباً لنبيه عليه السلام فهو تأديبٌ لجميع خلقه.. وقد مدح الله سبحانه عباده المؤمنين بقوله: ﴿ وإِذَا خاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمَاً ﴾. وقال رجلٌ من الأعراب لعمر بن الخطاب: والله ما تقضي بالعدل ولا تعطي الجزل فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه فقال له رجلٌ: ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿ خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرفِ وأعرِضْ عن الجَاهِلين ﴾ وإن هذا من الجاهلين فسكن عمر رضي الله عنه وعفا عنه.

قال القاضي أبو بكرٍ ابن العربي: قال علماؤنا. هذه الآية من ثلاث كلماتٍ قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات حتى لم يبق فيها حسنةٌ إلا أوعتها ولا فضيلةٌ إلا شرحتها ولا أكرومةٌ إلا افتتحتها. وتناولت جانب اللين وجانب المعروف وجانب الصفح.

القنوط والضجَر

تمر بالمرء في حياته ساعات صفوٍ وسرور ينشرح فيها صدره للحياة، وتمر به ساعات غمٍّ وضيقٍ تسود فيها الدنيا في وجهه، والحياة فيها الحلو والمر، والخير والشر وهي لا تصفو لأحدٍ من الناس.

أما الجاحد فإنه يطغى في حال النعمة، ويتبرم بأيامه عند المحنة، وأما المؤمن فإنه إذا أعطي شكر، وإذا منع صبر، ويحمد ربه في السراء والضراء.

وقد اعتاد بعض الناس اليوم أن يظهروا سخطهم على الزمان، وأن يجاهروا بتبرمهم بالحياة، ويقولون متذمرين: ما هذا الزمان القبيح؟ وما هذه الأيام السوداء؟ مع أن النهي عن ذلك قد ورد على لسان النبي ﷺ إذ يقول فيما يروى عنه: «لا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر، فإن الدهر هو الله». رواه البخاري ومسلم.

وكان العرب في جاهليتهم إذا أصابهم ضرٌّ ونزل بهم ما يكرهون نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لهم لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر. ويروى أن سالم بن عبدالله بن عمر كان كثيراً ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال إياك يا بني وذكر الدهر. وورد في الحديث القدسي أن الله سبحانه وتعالى يقول: «يُؤذيني ابنُ آدَمَ يَسُبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ، بِيَدي الأمرُ أُقَلِّبُ الليلَ والنهار».

والمؤمن لا يتضجر ولا يتبرم بالحياة ولا يقنط لأنه يعلم أن ما قدر له واقعٌ لا محالة، وأن الأمور بيد الله يصرفها بقدرته ومشيئته، وهذا الإيمان يعين

على تقبل المصائب والمتاعب بقلبٍ مطمئنٍ ونفسٍ راضية.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ ولا هم ولا حزنٍ ولا أذىً ولا غمٍّ حتى الشوكة يشاكها إلا حط الله بها من خطاياه». وقال عليه السلام: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»، رواه الترمذي. وروي في الخبر أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ يُعملْ سُوءاً يُجْزَ بهِ﴾، قال أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكرٍ، ألست تمرض؟ أليس يصيبك الأذى؟ أليس تحزن؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «فهذا ما تجزون به». يعني أن جميع ما يصيبك من سوءٍ يكون كفارةً لك.

فالمؤمن إذاً لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر والتسليم والرضا بما قدره الله وقضاه.

علاج القلب

القلب يمرض كما يمرض الجسم، وإذا اعتاد الناس أن يسرعوا إلى أطباء الأجسام لمداواة أبدانهم المريضة، فما أجدرهم أن يقصدوا أطباء القلوب يطلبون إليهم أرشادهم إلى العلاج الذي يشفي أمراض قلوبهم.

وقد أشار الله سبحانه في كتابه الكريم إلى مرض القلب في مواضع متعددةٍ، فقد قال في سورة الأحزاب: ﴿لئِنْ لم يَنْتَهِ المُنَافِقُونَ والذينَ في قُلوبهمْ مَرَضٌ﴾، وقال في السورة نفسها أيضاً: ﴿فلا تَخْضَعْنَ بالقَوْلِ فَيطمَع الذي في قَلْبِهِ مرضٌ﴾، وقال في سورة البقرة: ﴿في قلوبِهِمْ مرضٌ فزادَهُمُ الله مَرَضاً﴾.

وقلب المؤمن تتجاذبه قوتان: فالإيمان بالله تعالى وطلب مـرضاتـه والتوكل عليه تجذبه كلها نحو الخير، كما أن التعلق بالدنيا وبمتاعها الزائل وحب المال والشهوات تجذبه كلها نحو الشر، وبقدر قوة أحد الجاذبين يكون مقدار مرضه، ونحن ندعو الله كل يوم قائلين: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

وأمراض الأبدان معروفةٌ يعرفها الأطباء ويعرفها كثيرٌ من المرضى، ويعرف كثيرٌ من الناس طرق الوقاية منها، ولكن هل يعرف الناس أمراض القلوب؟ إن أمراضها هي الأخـلاق الخبيثة والاعتقادات السيئة والاتجاهات الباطلة والتطورات المنحرفة والأفكار الشاذة، وهي أمراضٌ إذا أصابت القلب

صرفته عن الإحساس بحلاوة الإيمـان وأبعدتـه عن الشعور بلذة اليقين، وجعلت عليه غشاوةً وهي (الران) المذكور في قوله تعالى: ﴿ كلاّ بَلْ رانَ على قلوبهمْ ما كانوا يكسِبون ﴾ قال مجاهدٌ: هو الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه حتى تغشي الذنوب قلبه. وجاء في الحديث عن النبي ﷺ قوله: «إن الرجل ليصدق فتنكت في قلبه نكتةٌ بيضاء (والنكتة هي النقطة) وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسود قلبه».

وإن معالجة مرض القلـب مطلوبةٌ قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها ﴾ وإن إهمال معالجته مذمومةٌ قال تعالى: ﴿ وقد خابَ مَنْ دَسّاها ﴾ والمعالجة ممكنةٌ إذا صح العزم وقويت الإرادة بتوفيقٍ من الله ولو كانت الأخلاق غير قابلةٍ للتغيير لبطلت المواعظ والوصايا وقواعد التربية.

أما طرق المعالجة فهي كثيرةٌ وعلى رأسها مراجعة أطباء القلوب وهم العلماء العاملون والزاهدون المخلصون، الداعون إلى الله على بصيرةٍ الدالون عليه بحكمة وعقل وفهم الذين إذا جلست إلى أحدهم شعرت أن روحك قد اتصلت بروحه نسأل الله أن يصلح قلوبنا.

بين الحسد والتمني

إذا رأيت غيرك في نعمةٍ وتمنيت زوالها عنه فذلك هو الحسد سواءً أحببت انتقالها إليك أم لا، أما إذا تمنيت أن تكون في مثل حاله من غير زوالها عنه فذلك هو التمني أو الغبطة.

أما الحسد فهو مذمومٌ لأنه ظاهرةٌ من مظاهر الحقد والكراهية والبغضاء ودليلٌ على سوء الطوية وخبث النفس لأن صاحبه يحب الانفراد بالنعمة وحده دون عباد الله وهذا من أقبح الصفات وأرذل الأخلاق، وهو من أمراض القلوب الشديدة المستعصية، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، ووصفه الحسن رضي الله عنه بقوله: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلومٍ من حاسدٍ: غمٌّ دائمٌ وحزنٌ لازمٌ وعبرةٌ لا تنفد، ويروى أن الله سبحانه يقول في بعض الكتب: الحسود عدو نعمتي متسخطٌ لقضائي غير راضٍ بقمستي.

هذا وصف الحسد، أما التمني وهو أن تتمنى في نفسك مثل حال من أنعم الله عليه من غير تمني زوالها عنه فقد أجازه جمهور العلماء، وقد أفرد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه باباً سماه (كتاب التمني) صدره بقول النبي ﷺ: «لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا»، وذكر فيه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تحاسد إلا في انثتين رجلٌ آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار يقول لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل ورجلٌ آتاه الله مالاً ينفقه في حقه فيقول لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل» وذكر في صحيحه التمني المذموم وأورد قوله

تعالى: ﴿ولا تتمَنَّوا ما فَضَّلَ الله بِهِ بعضَكُم على بعضٍ﴾ لأن التفضيل قسمةٌ من الله تعالى صادرةٌ عن حكمةٍ وتدبيرٍ.

فعلى كل واحدٍ أن يرضى بما قسم الله له ولا يحسد أخاه على حظه فهو خلقٌ مذمومٌ، أما الغبطة وهي التمني فقط من غير حسدٍ فقد أجازها قومٌ ومنعها آخرون وقال المانعون: لا ينبغي أن يقول اللهم أعطني داراً مثل دار فلانٍ ومالاً مثل ماله بل يقول: اللهم أعطني ما يكون صلاحاً في ديني ودنياي ومعادي ومعاشي، ولكن الذين أجازوا هم جمهورٌ كبيرٌ من العلماء قالوا إن التمني في الأعمال الصالحة حسنٌ، وإذا تمنى المرء على الله من غير أن يقرن أمنيته بشيءٍ فذلك جائزٌ، ومن أدلتهم على الجواز ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الدنيا لأربعة نفرٍ: رجلٌ آتاه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل به رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل، ورجلٌ آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلانٍ فهو بنيته فأجرهما سواءٌ....» إلى آخر الحديث والله أعلم.

المثابـــرة

كانوا يقولون إن عجائب الدنيا خمسة أشياء أحدها منارة ذي القرنين والثاني أصحاب الرقيم والثالث مرآةٌ في بلاد الأندلس معلقةٌ على باب مدينتها الكبيرة فإذا غاب الرجل نظروا إليها وشاهدوه فيها من مسافة مئة فرسخٍ والرابع مسجد دمشق وما فيه من نقوشٍ بديعةٍ ودقةٍ في الصنعة والخامس الرخام والفسيفساء، وإن الذي قال هذا الكلام لو عاش في زماننا هذا ورأى الأبنية الضخمة وناطحات السحاب ورأى المخترعـات والطائرات والصواريخ التي تنقل الناس إلى القمر لبلغ عدد العجائب في نظره المئات، وهذه الآثار الضخمة والعجائب الفخمة لم تحدث في يومٍ وليلةٍ، ولم تظهر للوجود بين عشيةٍ وضحاها ولكن العمل فيها استمر عشرات السنين وبذلت في سبيل إنجازها الجهود الكثيـرة المضنية، ولم يتم إنجازها إلا بالجهد والتعب والعرق والدأب والمثابرة، ولو أن الذين اشتركوا في إنجازها كلوا وملوا ودب في نفوسهم القنوط واليأس لما ظهرت هذه العجائب إلى عالم الوجود.

وهكذا نرى أن طريق المجد طريقٌ طويلٌ صعبٌ شاقٌّ لا يمكن سلوكه إلا بالإرادة القوية والعزيمة الصادقة والدأب والمثابرة والصبر على الجوع والعطش والتعب والسهر وسائر المشقات.

وأقرب مثالٍ على ذلك هذه النملة الصغيرة ذات الجسم الضئيل والوزن الخفيف كيف تقضي حياتها في جهدٍ متواصلٍ وعملٍ دائبٍ وسعيٍ مستمرٍ لا تكاد تفتر عن الحركة ولا تراها العين إلا ذاهبةً راجعةً تسعى لجمع رزقها في

صمتٍ وصبرٍ لا تتبرم ولا تشكو، ولو رأى أحدٌ بيوتها تحت الأرض لأخذه العجب وبلغت به الدهشة مبلغها.

روى الإمام ابن الجوزي رحمه الله في كتابه الذي سماه (المدهش) أن رجلاً من العجم طلب العلم والأدب حيناً من الدهر، فبينما هو سائرٌ في الطريق إذ مر بصخرةٍ ملساء فتأملها فرأى الذر يمشي فوقها، والذر هو النمل الأحمر الصغير الذي لا يكاد يرى لصغره، والذي لا يكاد يكون له وزنٌ لخفته ورأى الذر قد ترك في الصخرة أثراً بسبب كثرة مشيه عليها زمناً طويلاً، ففكر في نفسه وقال بالرغم من صلابة هذا الصخر، وبالرغم من خفة هذا الذر فقد ترك فيه هذا الأثر فأنا أحرى بالمداومة على طلب العلم والأدب، فداوم عليه حتى ذاعت شهرته بين الناس.

وهكذا يجب على طالب العلم، وعلى طالب المجد أن يثبت على الطلب وأن يثابر عليه وأن يصبر على الصعاب والمشاق التي تعترض طريقه وقديماً قال الشاعر:

بقدر الجد تكتسب المعالي ومن طلب العلى سهر الليالي

راحة النفس

أعرف رجلاً من أصحاب الأعمال، ذا تجارةٍ واسعةٍ، ويقوم بمشروعاتٍ ضخمةٍ تدر عليه الأموال الطائلة كلما جاءه مالٌ جديد أضافه إلى ثروته ثم راح يطلب غيره، وهو مشغولٌ في صباحه ومسائه وفي ليله ونهاره لا يكاد يعرف معنىً للراحة والإستجمام، ورأيت الناس ينظرون إليه بإعجابٍ ويتمنون لو كانوا في مثل حاله وأن يصلوا إلى ما وصل إليه.

نظرت إليه، ثم نظرت في نفسي وأنا مرتاحٌ فوق أريكتي أنعم بالجو الهادىء، وأحس بمتعة الراحة وقلت في نفسي: هل يمكن أن يكون هذا الرجل أسعد مني حالاً، وأنعم مني بالاً، وأهنأ مني عيشاً؟ هل يشعر بالاطمئنان الذي أشعر به، وهل يجد طعم الهدوء الذي أجده؟.

ونظرت في قول النبي ﷺ: «من أصبح معافىً في بدنه آمناً في سربه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»، فرأيت السعادة الحقيقية في اجتماع هذه النعم الثلاث: الصحة والأمن وبعض القوت. إن الغنى ليس بكثرة المال، ولا بالعقارات، ولا بتكديس الثروات، ولكنه في غنى النفس والرضى بما قسم الله، وقد ورد في الأثر: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» فإذا قمت بواجب السعي والعمل واتخاذ الأسباب ثم رضيت من بعد ذلك بما قسم الله لك، وجدت راحةً في قلبك وطمأنينة في نفسك، وتوجد إلى جانب نعمة المال نعمٌ كثيرةٌ في الجسم والروح والعقل وفي الأهل

والولد والأصحاب، وكلها تستحق التأمل فيها وتستحق الشكر عليها ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

وهذه الحياة بزخرفها ومتاعها وزينتها لا تدوم لأحدٍ وهي لا تستحق أن نحصر تفكيرنا فيها ولا أن نعمل لها وحدها، بل علينا أن نأخذ منها ما يكفينا كالمسافر الذي يأخذ من الزاد ما يبلغه المحل، لأنه سوف يقضي أياماً معدودةً في الطريق إلى أن يصل إلى البلد الذي يقصده كي يستقر فيه.

والنفس مفطورةٌ على الطمع فلا يكفيها شيءٌ وكلما نالت نصيباً من الدنيا طلبت المزيد، وقد ورد: «منهومان لا يشبعان طالب علمٍ وطالب مال»، وجاء في الأثر: «لو كان لابن آدم واديان من ذهبٍ لابتغى لهما ثالثاً ولن يملأ فم ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»، وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قوتاً»، والقوت هو ما يسد الرمق. وقال أيضاً: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»، أما هؤلاء الذين يعيشون للمادة وحدها ولا يفكرون في صباحهم ومسائهم إلا بأمور التجارة والأعمال والحسابات، ولا يتركون ساعةً من يومهم لتغذية أرواحهم بالمواعظ الرقيقة وتنمية عقولهم بالعلوم النافعة فإنهم سوف يندمون حين يبلغون الشوط الأخير من حياتهم ويستلم ورثتهم أموالهم من بعدهم ويحاسبون في الآخرة على كل قرشٍ منها.

الشاكر والصابر

خلق الله سبحانه الخلق وجعل منهم القوي والضعيف، والوضيع والشريف، والصحيح والمريض لحكمةٍ يعلمها، ولو شاء لجعل الناس أمةً واحدة، ولكنه رفع بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ في الخلق والرزق والقوة والبسطة والفضل والعلم، وجعل منهم الغني والفقير ليبلو كل واحدٍ منهما، فابتلى الموسر بالغنى وطلب منه الشكر، وابتلى المعسر بالفقر وطلب منه الصبر، وجعل الغنى نعمةً امتن بها على رسوله حين قال له: ﴿ ووجَدَك عائِلاً فأغْنىٰ ﴾، وإن للغني الشاكر من الثواب عند الله ما للفقير الصابر، بل ربما زاد الأول لأن الشكر مع الغنى يحتاج إلى إيمانٍ قويٍّ وعقيدةٍ راسخةٍ قال تعالى: ﴿لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّون﴾ وورد في الحديث أن اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى والأولى هي المعطية والثانية هي الآخذة.

وما أحسن المال إذا وقى المرء به نفسه من النار وقدمه أمامه لينال به ثوابه عند ربه ولم يتخذه كنزاً يكوى به جنبه وجبهته وظهره يوم القيامة، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» والمقصود هو الذي ينفقه في سبيل الله والله أعلم ، ويروى أن سعد بن عبادة سيد الأنصار رضي الله عنه كان له جفنةٌ كل يوم مملوءةٌ طعاماً يبعث بها إلى رسول الله ﷺ تدور معه حيث دار من نسائه وكان يقول: اللهم ارزقني مالاً فإنه لا تصلح الفعال إلا بالمال .

وهذا سعيدٌ بن المسيب من كبار العباد والزهاد قال رضي الله عنه: لا خير

فيمن لا يريد جمع المال من حله يعطي منه حقه ويكف به وجهه عن الناس.. وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: من آتاه الله منكم مالاً فليصل به القرابة وليحسن فيه الضيافة وليفك فيه العاني والأسير وابن السبيل والمساكين والفقراء والمجاهدين وليصبر فيه على النائبة فإن بهذه الخصال ينال كرم الدنيا وشرف الآخرة.

يتبين مما ذكرنا أن الله سبحانه جعل المال قوام الحياة ووسيلةً للعيش، وإن صاحب المال إذا أدى زكاته والحقوق الشرعية فيه يكون في امتحانٍ من الله كيف يحسن التصرف فيه بما يرضي ربه وبما يزيد المسلمين قوةً وعزاً، فإن كان تاجراً تصرف فيه في طريق التجارة بالأساليب المشروعة وإن كان مزارعاً أو صانعاً فعن طريق الزراعة والصناعة، ولا شك أن الإسلام في دور قيامه استفاد من ثروة أغنياء الصحابة عوناً ويسراً وقوةً، وقال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مالٌ كمال أبي بكر» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حث رسول الله ﷺ على الصدقة فجئت بنصف مالي فقال لي: «وما أبقيت لأهلك؟» فقلت مثله أي النصف، وقد خلف طلحة ثلاثمئة حمل بعيرٍ في كل حملٍ ثلاثة قناطير وكان مال الزبير خمسين ألف ألف درهمٍ وخلف ابن مسعودٍ تسعين ألفاً والله أعلم.

الموظف الحليم

دخلت على موظفٍ في إحدى الوزارات فأحسن لقائي، وبش في وجهي من غير سابق معرفةٍ بيني وبينه، وقدمت إليه معاملةً كانت معي، فاتخذ عليها الإجراء الذي يوجبه النظام ودلني على المراحل اللازمة لها، وكان مؤدباً معي، رفيقاً في معاملتي، وحدثني من أثق به أنه يعامل أصحاب المصالح بالأسلوب ذاته، فسرني منه ذلك وتمنيت أن يحذو الموظفون حذوه وأن ينهجوا نهجه.

فالرفق خلقٌ جميلٌ ويدل في ظاهره على حسن الخلق وسلامة الطوية، وإن صاحبه ينال محبة الناس، ويربح عطفهم وثناءهم، وقديماً قالوا: إن التودد إلى الناس نصف العقل، وإن بسط الوجه للناس وحسن ملاقاتهم خيرٌ من بذل المعروف، وورد في الحديث: «يحرم على النار كل هينٍ لينٍ قريبٍ سهلٍ».. وفي الحديث الآخر: «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة».

والوظيفة في حقيقتها هي خدمة الناس والنظر في مصالحهم وقضاء حوائجهم، ولم ينصب الموظف ليتكبر على الناس ولا ليشمخ بأنفه على أصحاب المصالح ولكنه نصب خادماً لهم فإذا كان رفيقاً لطيفاً مهذباً لين الجانب نال محبتهم وتقديرهم، وليس بلوغ هذه المنزلة صعباً على من أراده، فبقليلٍ من سعة الصدر وحسن الخلق مع ابتسامةٍ صغيرةٍ ينال الموظف محبة

الناس قال الحسن رضي الله عنه: قضاء حاجة أخٍ مسلمٍ أحب إليَّ من اعتكاف شهرين، ولو لم يكـن في قضاء الحوائج إلا استحقاق الثناء لكفى.

وقد ورد في صحيح الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به». وفي هذا الحديث ترغيبٌ في تسهيل مصالح الناس باللين واللطف وتحذيرٌ شديدٌ من إدخال المشقة عليهم والتهاون في إنجاز مصالحهم..

ونحن لا ننكر أن في المراجعين وأصحاب المصالح من لا يتقيد بقيود الأدب ومن لا يريد أن ينتظـر دوره ومن لا يعذر الموظف في عمله الكثير، ولكن الموظف يستطيع بحكمته وسعة صدره أن يوقف أمثال هؤلاءٍ عند حد الأدب، ولا حرج عليه إذا احتمل بعض المزعجات والمنغصات، لأن هذه الطريقة أسلم عاقبةً من الغضب ومخاصمة الناس، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

حالات النفس

قسم الإمام (ابن القيم) رحمه الله النفوس إلى ثلاثة أقسامٍ: مطمئنةٌ ولوامةٌ وأمارةٌ.

فالنفس المطمئنة ورد ذكرها في قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿ يـا أيَّتُها النفسُ المُطمئنَّة ارْجِعي إلى ربكِ راضيةً مَرْضيَّةً ﴾. والنفس اللوامة ورد ذكرها في سورة القيامة في قوله تعالى: ﴿ لا أُقْسِمُ بيَوْمِ القيامةِ ولا أُقْسِمُ بالنفسِ اللَّوَّامةِ ﴾. والنفس الأمارة ورد ذكرها في سورة يوسف في قوله تعالى: ﴿ وما أُبَرِّىءُ نفسي إنّ النفسَ لأَمَّارةٌ بالسوءِ إلّا ما رَحِمَ ربِّي ﴾..

وهذا التقسيم الذي أشار إليه الإمام رحمه الله يشير إلى أن النفس إذا تركت على هواها حرةً طليقةً من غير زمامٍ ولا قيدٍ بقيت على طبيعتها تأمر بالسوء وترغب صاحبها بالشهوات والملذات وتسوقه إلى ارتكاب ما حرم الله من المنكرات، مثل الدابة التي أطلقـت من غير زمامٍ يكبح جماحها فإنها تنطلق في الأرض وتؤذي النـاس وتفسد كل ما يعترض طريقها.

أما المؤمن فإنه دائماً يلوم نفسه ويعاتبها على الشر الذي فعلته، وعلى الخير الذي لم تفعله، قال الحسن: إن النفس اللوامة هي نفس المؤمن لا تلقاه إلا وهو يحاسب نفسه: ماذا أردت بكلامي الذي تكلمت به؟ ماذا أردت بأكلي؟ وقال مالك بن دينار: رحم الله عبداً قال لنفسه ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم زمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله عزّ وجلّ فكان لها قائداً.

والنفس المطمئنة هي المؤمنة الموقنة بثواب الله الراضية بقضاء الله، المخلصة في عبادة الله المستأنسة بذكر الله المطيعة لأوامره والمجتنبة لنواهيه، الموقنة أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها. والاطمئنان هو السكون والاستقرار فكأن النفس سكنت إلى طاعة ربها واستقرت في الأعمال التي تبلغها رضى خالقها.

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بعض عماله: حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضى والغبطة، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والحسرة.

وقد ورد في االخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «ما تقولون في صاحبٍ لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غايةٍ، وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غايةٍ» قالوا يا رسول الله: هذا شر صاحبٍ في الأرض قال: «فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم».

التأني والعجلة

يجب على العاقل أن يتريث في أعماله ولا يستعجل بها، وعليه أن يتمهل في حكمه على الأمور ويفكر فيها بروية وهدوء ولا يتعجل في حكمه عليها، وقد وردت أقوال كثير من الحكماء والعلماء في ذم العجلة والتنفير منها وقالوا إن التأني حصن السلامة وإن العجلة مفتاح الندامة، ويسمون العجلة أم الندامة لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ويجيب قبل أن يفهم ويعزم قبل أن يفكر ويقطع قبل أن يقدر ويحمد قبل أن يجرب ويذم قبل أن يمتحن. وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه»، وقال تعالى: ﴿ خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتي فلا تَستعجلونْ ﴾، وقال مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ فاصْبِرْ كما صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ولا تستعجْل لهم ﴾.

فالإسلام ينفر أتباعه من العجلة، ولكن ليس معنى ذلك الدعوة إلى البطء والتراخي في العمل وإنما معناه التأني والتروي وإعمال الفكر قبل الإقدام على العمل، وقبل التسرع في الحكم على الأشياء وليست العجلة مذمومةً في كل الحالات، فهي ممدوحةٌ أحياناً، ومن هذا القبيل ما ينسب إلى حاتمٍ الأصم حيث يقول: العجلة من الشيطان إلا في خمسٍ إطعام الطعام إذا حضر ضيفٌ وتجهيز الميت إذا مات وتزويج البكر إذا أدركت وقضاء الدين إذا وجب والتوبة من الذنب إذا أذنب. وهذا الذي ذكره حقٌ فمن الواجب التعجيل في تقديم الطعام للضيف الجائع من غير تكلفٍ ولا انتظارٍ ومن

المطلوب الإسراع في تجهيز الميت لأن إكرام الميت التعجيل بدفنه، ومن المستحب إعفاف الفتاة البالغة إذا جاءها الخاطب الصالح، كما أن المبادرة إلى أداء الدين إذا حان موعد وفائه من الأمور المرغب فيها والمأمور بها، والتعجيل بالتوبة ضروريٌ وقد دعا إليه الإسلام قال تعالى: ﴿ وسارِعُوا إلى مَغْفِرةٍ مِنْ رَبِكُمْ وجَنّةٍ عَرْضُها السماواتُ والأرضُ أُعِدَّتْ للمتّقينِ ﴾.

وقد رغب الشارع في التبكير لقضاء الحوائج وورد في الحديث: «باكروا في طلب الرزق والحوائج فإن الغدو بركةٌ ونجاحٌ» وقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»، وحث الدين على المسارعة إلى أعمال البر والمبادرة إلى الحسنات قال ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمسٍ صحتك قبل سقمك وشبابك قبل هرمك، وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك». فالعجلة مكروهةٌ في بعض التصرفات التي تبنى على الارتجال من غير تروٍّ ولا تفكيرٍ ولكنها محمودةٌ في الأعمال الصالحة، ومستحسنةٌ في بعض الحالات التي لا تقبل التأجيل ولا التسويف.

خشوع القلب

شكا إليّ أخٌ من طلبة العلم صعوبة الخشوع في صلاته وقال إنه كثيراً ما يعزم على جمع شتات ذهنه وطلب حضور قلبه، ولكن فكره في كثيرٍ من الأحيان يشرد عنه ويتفلت منه كما يشرد البعير من صاحبه، فقلت له: لست أنت وحدك الذي يشكو من هذا المرض وما أظن أحداً قد تخلص منه إلا من رحم ربك ولكن الأمر يختلف بين الناس في شدته وضعفه فمنهم من يطول أمد شرود ذهنه، ومنهم من يستطيع أن يكبح جماح نفسه ويردها إلى الخشوع في صلاته عندما يحس منها الغفلة.

والمصلي يناجي ربه، فإذا كان غافلاً لم يعتبر مناجياً مثله في ذلك مثل الذي يجري الكلام على لسانه وهو نائمٌ، وإن المقصود من القراءة والأذكار في الصلاة هو الثناء على الله عز وجل وحمده والتضرع إليه، فإذا خاطب أحدنا ربه من غير أن يفهم معنى ما يقوله بل يحرك لسانه بحكم العادة لم يكن قد أدى المقصود من الصلاة الذي هو في الحقيقة صقلٌ للقلب وجلاءٌ له.

وقد شغلتنا أمور الدنيا، وطغت على تفكيرنا مشاكل الحياة التي أصبحت معقدةً، وانغمسنا في لجتها حتى غلبتنا على أنفسنا، وهذا ما جعل كثيراً منا يتمنى لذة الخشوع في صلاته وحضور قلبه، ولا يمكن أن يتم هذا الحضور للقلب إلا إذا فرغناه عما هو مشغولٌ به، ولا يتم ذلك إلا بالإرادة والعزيمة والهمة، فأنت تفكر في أمور الدنيا لأنك حريصٌ عليها مهتمٌّ بها، فإذا استطعت بهمتك وعزيمتك أن تعتني بصلاتك وتقصد حسن أدائها بيقظةٍ

وانتباهٍ أحسست من نفسك بلذةِ الخشوع والمناجاة.

ومن الطرق المؤدية إلى هذه النتيجة أن تحاول صرف ذهنك إلى معاني الآيات التي تقرؤها على قدر إمكانك ودرجة علمك وثقافتك.. وعليك أن تتصور عظمة الله سبحانه وقدرته وسطوته، إلى جانب تقصيرك في حمده وشكره وعجزك عن القيام بحقه.. وقد يكون الذي يشغلك عن الخشوع أمراً ظاهراً غير باطن، فإذا كان أمام بصرك ما يلهيك كالأطفال أو مجالس الرجال أو شيءٌ من الطعام فمن الأفضل أن تقترب من الجدار كي تضيق مسافة بصرك ولهذا السبب يستحب الاحتراز من الصلاة في الحدائق العامة أو مجتمعات الناس أو على الفرش المنقوشة، وقد ورد في الأثر أن النبي ﷺ لما لبس الخميصة التي أتاه بها أبو جهمٍ وعليها علمٌ ونقشٌ، صلى بها ثم نزعها بعد الصلاة وقال: «اذهبوا بها إلى أبي جهمٍ فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي».

ومثل ذلك أيضاً الابتعاد عن الناس الذين يتحدثون بأصواتٍ مرتفعةٍ، وعن المذياع الذي تسمع الأصوات منه لأن الهدوء والسكينة يعينان على الخشوع نسأل الله أن يجعلنا من الخاشعين.

جزاء الطاعة

كل مسلـم مأمورٌ بإطاعة الله سبحانه فيما أمر به، وبما أن الرسول ﷺ مبلغٌ عن الله عز وجل فإن طاعته من طاعة الله، قال تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله ﴾. والطاعة هي الخضوع والانقياد، وإن فضلها كبيرٌ وجزاءها عظيمٌ.

وقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يتسـابقون إلى إطـاعة الرسول ﷺ في كل ما يأمرهم دون نقاشٍ ولا جدالٍ ومن غير ترددٍ، وكانوا يلازمونه ولا يصبرون على البعــد عنه لأنهم أحبوه من كل قلوبهم أكثر من حبهم أهليهم وأولادهم مصداقاً للحديث الشريف الذي يقول: «لا يؤمنُ أحَدُكم حتى أكونَ أحَبَّ إليه مِن أهْلِه ووَلَدِه والناسِ أجمعين».

روى الإمام ابن جريرٍ الطبري عن سعيد بن جبيرٍ رضي الله عنه أنه قال: جاء رجلٌ من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون فقال: يا رسول الله، شيءٌ فكرت فيه فقال له ما هو؟ قال الرجل: نحن نغدو إليك ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك فنزل قوله تعالى: ﴿ ومَنْ يُطِعِ الله والرَّسُول فأولئك مَعَ الَّذينَ أنْعَمَ اللهُ عَلَيهمْ مِنَ النَبيِّينَ وَالصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحين ﴾.

وفي روايةٍ أخرى أن هذه الآية نزلت في ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان ثوبان شديد الحب له قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يومٍ وقد تغير لونه

ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن فقال له: «يا ثوبان ما غير لونك؟» فقال يا رسول الله ما بي ضرٌ ولا وجعٌ غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشةً شديدةً حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف ألا أراك هناك، لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين وإني إن دخلت الجنة كنت في منزلةٍ هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حينٌ لا أراك أبداً، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ ومَنْ يُطِعِ الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعَم الله عليهم ﴾.... إلى آخر الآية.

وهذه منزلةٌ عظيمةٌ لمن يطيع الله ورسوله لأنه يحبهما فيكون مع النبيين وقد ورد في الحديث أن المرء مع من أحب، والصديقون هم الذين يكثر منهم الصدق ومرتبتهم تلي مرتبة النبيين، والشهداء هم الذين شهدوا الحق وأعلنوه ودعوا إليه، فالمؤمن المطيع لربه ولرسوله يكون مع هؤلاء جميعاً، قال تعالى: ﴿ وحَسُنَ أولئك رَفيقاً ﴾ وما أحسن رفقتهم وأطيبها، وهي فضلٌ من الله كبيرٌ، ونعمةٌ منه جليلةٌ، ورحمةٌ يرحم بها المتقين من عباده نسأله سبحانه أن يجعلنا منهم إنه سميعٌ مجيبٌ.

ادفع بالتي هي أحسن

مقابلة الشر بالشر عند كثيرٍ من الناس عملٌ سهلٌ لا صعوبة فيه، وإذا سمع أحدهم من غيره كلمة سبٍ أو شتمٍ فإنه مستعدٌ لمقابلته بعشر كلماتٍ من نوعها وهو يعتبر ذلك رجولةً وبطولةً، وإذا أنت طلبت إليه أن يسكت عنها وأن يمتنع عن الإجابة عجب من كلامك وقال أيشتمني وأسكت عنه؟ وهل أنا جبانٌ أو عاجزٌ؟ سوف أجيبه كي أثبت له أنني لا أقبل الإهانة.

هذه حال كثيرٍ من الناس، تثور فيهم النفس الغضبية، وينفخ الشيطان في مناخرهم ويحرضهم على مقابلة السيئة بسيئةٍ أكبر منها ويصور لهم هذا العمل رجـولةً، والسكوت عنه ضعفاً وجبناً.

مع أن هذا في الحقيقة منافٍ للآداب الإسلامية ومخالفٌ للأخلاق النبوية، ولو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يصف المؤمنين بأنهم يدرؤ ون بالحسنة السيئة، أي إنهم يقابلون الشر بالخير، وقد مدح الله سبحانه المؤمنين بها لأنها عملٌ صعبٌ يحتاج إلى أعصابٍ قويةٍ وصدرٍ واسعٍ وإيمانٍ قويٍّ، وإن كل نفسٍ فيها ملكٌ وشيطانٌ، فإذا تغلب الأول على الثاني دل ذلك على قوة الإيمان وعلى أن صاحبها ممن قال الله سبحانه فيهم: ﴿وَالكَاظِمِينَ ٱلغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، وإن الوصول إلى هذه المرتبة يحتاج إلى علمٍ ومعرفةٍ وإلى تدربٍ وتمرينٍ بعزيمةٍ صادقةٍ.

وقد أمر الله عزّ وجل نبيه ﷺ بقوله: ﴿ ادفعْ بالتي هي أَحْسَنُ فإذا الذي

بينَك وبينه عَداوةٌ كأنّه وليٌّ حميم ﴾، ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿ وما يُلَقّاها إلا الّذينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقّاهَا إِلاّ ذُو حَظٍّ عَظِيم ﴾ لأنها في الحقيقة منزلةٌ سامية رفيعةٌ ليس الوصول إليها بالأمر الهين وليس الطريق إليها سهلاً. أمرنا الله سبحانه أن ندفع بصبرنا وحلمنا جهل من يجهل علينا... يروى أن رجلاً تكلم مع أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه كلاماً نابياً سيئاً ونال منه، فقال له أبو بكرٍ: إن كنت صادقاً فغفر الله لي وإن كنت كاذباً فغفر الله لك. فالمؤمن الصادق يدفع الشر بالخير، والمنكر بالمعروف، والفحش بالعفو والسفه بالحلم.

يروى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت يوماً بصحن فيه مرقةٌ، فمال الصحن في يدها وانصب منه شيءٌ على ثوبه فأراد أن يضربها فقالت الجارية: يا مولاي إن الله سبحانه يقول: ﴿ والكاظمينَ الغيظَ ﴾. قال لها كَظَمتُ غيظي. قالت: ﴿والعافين عن الناس﴾ قال: عفوت عنك قالت: ﴿والله يحب المحسنين﴾ قال اذهبي فأنت حرةٌ لوجه الله.. وروى أبو داود والترمذي أن النبي ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء» صدق رسول الله ﷺ.

المحافظة على الوعد

حدثني قادمٌ من بلاد الغرب أن القوم هناك يتقيدون بتنفيذ مواعيدهم بحرص ٍ بالغ ٍ ودقةٍ تامة لا يتأخرون عن مواعيدها المضروبة فيما بينهم، فأجبته أن هذه الصفة من الصفات الحميدة وهي من صميم الأخلاق الإسلامية التي عني الإسلام بها ودعا إليها وحث عليها وعلى التمسك بها، وحسبك مثالاً على ذلك العبادات المفروضة على المسلم، فللصلاة مثلاً وقتٌ محددٌ لا تؤدى قبله ولا بعده إلا قضاءً، وغروب الشمس هو وقت إفطار الصائم فلو أفطر قبله ولو بزمنٍ يسيرٍ لم يقبل ذلك منه وللحج أيامٌ معلوماتٌ، والشريعة تدعو المسلم إلى اتباع النظام والتقيد بالمواعيد. وصدق الوعد من الأخلاق الحميدة وهو من خلق النبيين والمرسلين، قال تعالى مثنياً على إسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾. قال المفسرون: إن إسماعيل عليه السلام وعد رجلا أن يلقاه في موضعٍ فجاء إسماعيل وانتظر الرجل يومه وليلته، فلما كان في اليوم الآخر جاء فقال له: ما زلت ها هنا في انتظارك منذ أمس.

وقد ورد مثل هذا عن النبي ﷺ فقد أخرج الترمذي عن عبدالله بن أبي الحمساء قال: بايعت النبي ﷺ ببيعٍ قبل أن يبعث وبقيت له بقيةٌ فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاثة أيامٍ فجئت فإذا هو في مكانه فقال: «يا فتى لقد شققت عليَّ أنا ها هنا منذ ثلاثٍ أنتظرك». فانظر إلى هذه الأخلاق الطاهرة وإلى الحرص على التقيد بالوعد وعدم الإخلال به، ويا ليت

المسلمين اليوم يتخلقون بهذا الخلق الكريم إذاً لأراحوا أنفسهم بتنفيذ الوعد وأراحوا غيرهم من عناء الانتظار، وإن الناس لهم أعمالهم ومشاغلهم ومن الظلم الواضح أن تتأخر أنت في تنفيذ مواعيدك معهم، لأن في تأخرك عنهم وانتظارهم إياك تفويتاً لمصالحهم وتعطيلاً لأعمالهم، وعليك أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، وقد قالت الحكماء: لا تعدن عدةً لا تثق من نفسك بإنجازها فإذا لم تكن واثقاً من قدرتك على تنفيذ الوعد في موعده المعين فخيرٌ لك أن لا تعطي وعداً.

والحديث الذي خرجه الإمام البخاري معروفٌ وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «أربعٌ من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر». وكان ابن مسعودٍ رضي الله عنه لا يعد وعداً إلا ويقول إن شاء الله وهو الأولى. والنفاق يصدق على الرجل إذا كان عند إعطاء الوعد عازماً على عدم الوفاء به، أما من عزم على الوفاء ثم منعه عذرٌ مشروعٌ عن الوفاء به فلا ينطبق عليه الحديث ولكن يجب على المسلم أن يبذل جهده في تنفيذ الوعد في الوقت المحدد له والله الموفق.

فهرس

تقديم: للشيخ علي الطنطاوي ٥
مقدمة المؤلف ٢٥

آداب المجتمع

اللَّغو في الأقوال ٢٩
المبالغة في الضحك ٣١
إلى إخواننا الأطباء ٣٣
السخرية والاستهزاء ٣٥
من صفات الصديق ٣٧
العناية بالأولاد (١) ٣٩
العناية بالأولاد (٢) ٤١
فلذات أكبادنا ٤٣
الأخذ بالثأر ٤٥
حقوق الجوار ٤٧
من آداب السفر (١) ٤٩
من آداب السفر (٢) ٥١
آداب الضيافة ٥٣
حق الأقارب ٥٥
الأمانـة ٥٧
أدب الطعام والشراب ٥٩

الإسلام دين النظافة ٦١
المعاريض في القول ٦٣
من آداب الزيارة ٦٥
أدب الجدال ٦٧
الاعتراف بالحق ٦٩
المبالغة في الثناء ٧١
أدب النصيحة ٧٣

في المعاملات

نعمة الإيمان ٧٧
الأدب مع الصحابة ٧٩
الرفق بالحيوان ٨١
حسن الظن بالله ٨٣
من وسائل الدعوة ٨٥
الاعتدال في الإنفاق ٨٧
الرفق في المعاملة ٨٩
الطمع والغش في التجارة ٩١
مكافحة الغش ٩٣
وطأة الدَّيْن ٩٥
دواء الهجران ٩٧
رحمة واسعة ٩٩
الشفاعة الحسنة ١٠١
الإصلاح بين الناس ١٠٣
القصد في الطعام ١٠٥
فضل العمل والكسب ١٠٧
زينةٌ وفتنة ١٠٩
الخياط والسلطان ١١١
التشاؤم ١١٣

التفـاؤل ١١٥
مفتاح الشيطان ١١٧
المدح والثناء ١١٩
بين اليقظة والغفلة ١٢١

من العبـادات

تجويد القرآن ١٢٥
ترتيل القرآن ١٢٧
صلاة الضحى ١٢٩
الحي والميت ١٣١
الوضوء سلاح المؤمن ١٣٣
سجدة الشكر ١٣٥
علاج الأرق ١٣٧
الإيمان بالله ١٣٩
حق المسجد ١٤١
الأخذ بالأسباب ١٤٣
القيام بالقسط ١٤٥

من أحكـام الإسـلام

الباقيات الصالحات ١٤٩
الأذكـار ١٥١
ستر العورة ١٥٣
إقامة الحدود ١٥٥
الإذن بالقتال ١٥٧
تهمةٌ باطلة ١٥٩
الأبيض والأسود ١٦١
تخفيف الصلاة ١٦٣
نصف العلم لا أدري ١٦٥
متى تباح الغيبة ١٦٧

الخدمات الاجتماعية (١) ١٦٩
الخدمات الاجتماعية (٢) ١٧١
قطع اليد ١٧٣
الرضى بحكم الشرع ١٧٥
الجهر بالسوء ١٧٧
تلاوة القرآن واستماعه ١٧٩
التأميـن ١٨١
ميزان الدنيا والآخرة ١٨٣
كتابة الدَّيْن ١٨٥
العلماء والجهاد ١٨٧
بين الشفاعة والوساطة ١٨٩
العدل المطلق ١٩١
النهي عن الجزع ١٩٣
إخفاء الصدقة ١٩٥
مقاطعة أهل الأهواء ١٩٧
الاستخـارة ١٩٩
الإيمان بالقدر ٢٠١
وليمة العرس ٢٠٣
من هو الشهيد ٢٠٥
اللغو في الأَيْمان ٢٠٧
بين الإيمان والإسلام (١) ٢٠٩
بين الإيمان والإسلام (٢) ٢١١
إفشاء السلام ٢١٣
حكم القيام ٢١٥
الدفاع عن العرض والمال ٢١٧
بين السلم والحرب ٢١٩
حقيقة الزهد ٢٢١

عذرٌ غير مقبول ٢٢٣
دعاء جامع ٢٢٥

رجال من التاريخ

الليث بن سعد ٢٢٩
ركعتان ودعاء ٢٣١
قبل الخلافة ٢٣٣
تاجٍ العروس ٢٣٥
الجنّة بركعتين ٢٣٧
عبد الرحمن بن عوف ٢٣٩
التاجر الورع ٢٤١
القاضي الفارس ٢٤٣
سعد بن عبادة ٢٤٥
يونس عليه السلام ٢٤٧
نور الدين الشهيد ٢٤٩
عروة بن الزبير ٢٥١
زيد بن حارثة ٢٥٣
أبو الدحداح ٢٥٥
ماء فرس ٢٥٧
علو الهمة ٢٥٩
المقداد بن الأسود ٢٦١
قصة جابر ٢٦٣
الحواريون ٢٦٥
طلحة الفياض ٢٦٧
دولة الموحدين (١) ٢٦٩
دولة الموحدين (٢) ٢٧١
المجاهد الصغير ٢٧٣
القاضي الجريء ٢٧٥

صهيبٌ سابق الروم ٢٧٧
القائد الزاهد ٢٧٩
المتكلمون في المهد (١) ٢٨١
المتكلمون في المهد (٢) ٢٨٣
السامـري ٢٨٥
بين الأب وابنه ٢٨٧
تجارةٌ رابحةٌ ٢٨٩
مؤمن آل فرعون ٢٩١
المشي على الماء ٢٩٣
العلاء بن الحضرمي ٢٩٥
الملك الظاهر ٢٩٧
يوم اليمامة ٢٩٩
الاسم الصريح ٣٠١

نظرات في الحياة

التوسط في الأمور ٣٠٥
الأمل والأجل ٣٠٧
النظر والتدبُّر ٣٠٩
إفساد العقول ٣١١
التعاون في الإسلام ٣١٣
الأشهر الحـرم ٣١٥
بلاغة القرآن ٣١٧
إلى الموظفيـن ٣١٩
العجلة من الشيطان ٣٢١
الصبر على المكاره ٣٢٣
بين الروح والبدن ٣٢٥
أعيادنا وأعيادهم ٣٢٧
الكلام والصمت ٣٢٩

واجب الشكر ٣٣١
دفاع عن اللغة العربية ٣٣٣
الجامع والجامعة ٢٣٥
اللحظة الحاسمة ٣٣٧
وداع واستقبال ٣٣٩
ولكم في القصاص حياة ٣٤١
ذكرى المولد ٣٤٣
الطالب والمطلوب ٣٤٥
العمل والجزاء ٣٤٧
بين العزلة والمخالطة (١) ٣٤٩
بين العزلة والمخالطة (٢) ٣٥١

الإسلام والمرأة

من نعيم الدنيا ٣٥٥
طبيعة المرأة ٣٥٧
الرجال والنساء ٣٥٩
عضل النساء ٣٦١
مهر الزوجة ٣٦٣
المرأة والعدة (١) ٣٦٥
المرأة والعدة (٢) ٣٦٧
نشوز المرأة ٣٦٩
الكفاءة في الزواج ٣٧١
التحكيم ٣٧٣
المرأة في الإسلام ٣٧٥
رؤية المخطوبة ٣٧٧
المرأة والشيطان ٣٧٩
زواج المسلمة بغير المسلم ٣٨١
تكريم الأم ٣٨٣

من أدب النفس

الإخلاص ٣٨٧
نور الهداية ٣٨٩
مكايد إبليس ٣٩١
كثرة طرق الخير ٣٩٣
شجاعة المسلمين ٣٩٥
الرحمة ٣٩٧
الرحمة والشفقة ٣٩٩
عيوب النفس ٤٠١
العفة والنزاهة ٤٠٣
دواء الخوف ٤٠٥
سعة الصدر ٤٠٧
الرياء ٤٠٩
اليأس ٤١١
الخلق النبيل ٤١٣
قرين السوء ٤١٥
أصول الفضائل (١) ٤١٧
أصول الفضائل (٢) ٤١٩
القنوط والضجر ٤٢١
علاج القلب ٤٢٣
بين الحسد والتمني ٤٢٥
المثابرة ٤٢٧
راحة النفس ٤٢٩
الشاكر والصابر ٤٣١
الموظف الحليم ٤٣٣
حالات النفس ٤٣٥
التأني والعجلة ٤٣٧

خشوع القلب ٤٣٩
جزاء الطاعة ٤٤١
ادفع بالتي هي أحسن ٤٤٣
المحافظة على الوعد ٤٤٥
الفهرس ٤٤٧